

أعمال
خالدة



علي مولا



لورد بايرون

أسفار شيلد هارولد



ترجمة : عبد الرحمن بدوي

١٧٥
١٥٥٥٥٥

أسفار شیلد هارولد

أعمال خالدة

Author : Lord Byron
Title : Childe Harold's Pilgrimage
Translator: Abdel-Rahman Badawi
Al-Mada P.C.
Second Edition : 2007
Copyright © Al-Mada

اسم المؤلف : لورد بايرون
عنوان الكتاب : أسفار شيلد هارولد
المتـرحم : عبد الرحمن بدوي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب. ٨٢٧٢ او ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٢٢٢٢٧٥ - ٢٢٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٢٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٧ - ٧٥٢٦١٦

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥ - ٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

لورد بايرون

أسفار شيلد هارولد

ترجمة

عبد الرحمن بدوي



تصدير عام

"كان فيه احتقار مستمر لكل شيء، حتى ليخيل إليك أنه عانى أسوأ ما يمكن أن يكون؛ وكان يعيش على الأرض غريباً عنها، وكأنه روح شاردة أُلقيَ بها من عالم آخر؛ وكان له خيال مظلم يخلق لنفسه الأخطار التي يكون قد أنقذ منها؛ ولكن عبثاً، فذكرها كانت لنفسه مصدر انتصار وندم معاً.

"وهُب قدرة على الحب لم يتيسر مثلها لكائن من الناس؛ فكانت أحلامه في الفضيلة تتجاوز منذ البدء نطاق الحقيقة والواقع؛ وشبابه الذي خاب أمله قد تلتفه رجولة عاصفة. فلم يبق لديه إلا الأسف على كل تلك الأعوام التي بددها في مطاردة شبح وخيال، وعلى سوء استخدامه للطاقة التي وهبت لروحه من أجل الاستفادة منها على وجه أحكم وأتم. لقد كان فريسة لوجدانات عنيفة نثرت في طريقه الخراب والشقاء، ولم تترك لأجمل عواطفه غير اضطراب باطن وأفكار قاسية تستثيرها حياة عاصفة مضطربة. ولكنه كان من الكبرياء والبطء في الإدانة بحيث ألقى نصف المسؤولية في هذا على الطبيعة، وعزا كل أخطائه إلى هذا البدن الذي قضت عليه الطبيعة أن يكون سجنًا للروح وقوتاً لدود القبر؛ حتى انتهى به الأمر إلى الخلط بين الخير والشر، فقال عن أفعال إرادته إنها أوامر القدر.

"لقد كان أرفع من أن يحمل أثرة العاديين من الناس، فعرف كيف يضحي بنفسه في سبيل خير الآخرين، حينما يقتضي الأمر. أفكان هذا منه عطفاً أو واجباً؟ كلا؛ إنما كان بالأحرى نوعاً من الفساد الغريب في طبيعته، كان يدفع بكبريائه إلى فعل ما لم يجرؤ على فعله غير قليل من الناس. وهذا بعينه قد كان الدافع الذي كان يجعله من قبل يفضل سبيل الجريمة؛ لأنه كان شديد الرغبة في الانفصال - إن بالخير أو بالشر - عن هؤلاء الذين تلقوا مثله حياة فانية؛ إن روحه لم تكن تسمع لغير الكراهية التي يحملها

لهم في نفسه، فوضعت عرشها بعيداً عن هذا العالم، في مملكة خيالية قد خلقتها لنفسها؛ هنالك، في هذه التأملات الباردة لاحتقاره، كان دمه يبدو كأنه يسيل على نحو من الهدوء أكبر. ما كان أسعده لو أنه لم يحترق بعد بناء الجريمة؛ وما كان أسعده لو أنه نعمَ دائماً بهذه الطمأنينة الباردة.

"أجل، إنه سلك من السبل ما سلكه كل الناس؛ أجل، إنه بدا في الظاهر وكأنه يتحدث كما يتحدثون ويفعل ما يفعلون، دون أن يهين العقل بأي انحراف عن سبيله. إلا أن جنونه كان جنون قلب، ولم يكن جنون عقل: فلم يكن يهذي في أقواله إلا نادراً، ولم يرفع النقاب عن أعماق نفسه إلا قليلاً من أجل إزعاج من كانوا يستمعون إليه".

في هذا التحليل الدقيق لشخصية بطله لارا^(١) قدم لنا بيرنُ أصدق صورة عن نفسه. فقد كانت روحه عاصفة من الأحاسيس المضطربة والوجدانات الهائجة التي كانت تدور دائماً حول نفسها، مرتطمة حيناً بصخرة البشر الجرداء الباردة التي لا تلبث أن تترد عنها قانطة من بني الإنسان، ناظرة إليها بإزدراء متهانف؛ ومنطوية على نفسها حيناً آخر لـواذاً بالوحدة من تفاهة الناس. وفي كلتا الحالتين وحدة، الأولى إيجابية معتدية، والأخرى سلبية ليس فيها معنى الكراهية، "لأن تجنب بني الإنسان ليس معاناة بالضرورة كراهيتهم؛ فليس كل امرئ مهياً للدخول في غمرتهم ومزاحمتهم في مشاغلمهم. وليس من الزرابة بهم أن تحتفظ بقلبك عميقاً في ينبوعه، خوفاً من أن يفيض غلياناً من حميم الطعام، حيث نصير فريسة لداء عياء، إلى أن نندب، متأخراً ولزمان طويل، ضرورة كفاحنا ضد العدوى، وننتقل من خطأ إلى خطأ ومن شقاء إلى شقاء، وسط عالمٍ تشيع فيه روح معادية لا نقوى على صدها والتغلب عليها - ("أتشيلد هارولد"، ٣: ٦٩، ص ١٥٧ من هذا الكتاب). ذلك أن روحه المتوثبة المجاهدة لا تستطيع أن تستمر في جهادها العملي حتى النهاية، لأن سلاحه فيه غير سلاح أعدائه من البشر من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، لأن روح النضال عنده ليست روح نضال في مملكة الواقع، بل في مملكة الفكر؛ ومثلها إذا استيأس من الواقع، لاذ بنفسه. ومن هذا اللوذاً المستمر بالذات تولدت في نفسه نزعة ذاتية هدامة للباطن، قد أحالته إلى أتون من اللهب الوجداني الذي يحرق نفسه، ويكتوي بنيران ذاته؛ مما أوجد من نفسه

(١) لارا ١٠: ١٨٠

دوامة مرضية، إن صح هذا التعبير، تمزق النفس بأحوالها المختلفة، مما من شأنه أن يجعل التناقض طابعاً أصيلاً في تكوينها. ولهذا التناقض من الحدة ما يجعل السيطرة على النفس مستحيلة، وتنظيم الوجدان فيما بينها وبين بعض عسيرا؛ لأنه لم تعد توجد بعد هذه السلطة المركزية التي تستطيع الهيمنة على كل هذه القوى المتضاربة. ومن شأن هذا كله أن يجعل صاحب هذه النفس "يعيش على الأرض غريباً عنها، وكأنه روح شاردة ألقى بها من عالم آخر"؛ لأن المشاركة في أحوال الناس لا تتم إلا بواسطة التوفيق والمساومة والانسجام بين مختلف القوى النفسية في داخل الذات الواحدة من ناحية، ثم في صلتها بالناس والعالم الخارجي من ناحية أخرى. أما الذين يعجزون عن هذا التوفيق، فيبدون غرباء في أوطانهم، يشذ وينأى عنهم أقرباؤهم من بني الإنسان. وليس له بعد هذا إلا أن يحيى في وحدة هائلة مع نفسه؛ وحدة هي في الآن نفسه اجتماع إلى أعلى درجة، لأن نفسه ستكون حينئذ عالماً بأكمله، إذ هو خليط هائل من الأنفس المتعددة المنقسمة على نفسها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الوحدة مع النفس الخاصة هي في الوقت عينه وحدة مع الكون بأسره. لهذا ترى صاحبها يشعر بدخول الوجود كله في نفسه، حتى تصير "الجمال والأمواج والسموات بضعة مني ومن روحي، كما أنني أنا بضعة منها" ("أتشيد هارولد"، ٣:٧٥، ص ١٦٠ من هذا الكتاب). فإلى هذا الشعور بوجود الوحدة تفضي الوحدة السلبية.

أما الوحدة الإيجابية فستحيل إلى ازدراء متعالٍ يخيل إلى صاحبه فيه أنه فوق مستوى الكل، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يتلقى عن الآخرين درساً أو تجربة، لأنه يتوهم في نفسه أنه قد عانى كل التجارب، وأنه "عاش طويلاً في عالم الأحران، وتعمق الحياة حتى القاع بالأفعال لا بالسنوات، حتى لم يعد يدهشه شيء، ولم تعد سهام الحب أو الألم أو الشهرة أو الظموح أو الكفاح تصيب قلبه بنصل الاحتمال الصامت الحاد" (٣:٥)؛ فيلوذ حينئذ بقلعة من الكبرياء المتمردة؛ مما يشيع في نفسه الهدوء البارد الذي هو أقرب ما يكون إلى اليأس. ولكنه يأس حي، لأن "في ياسنا حياةً وأي حياة، ألا وهي حياة السّم: إنه جذر حي يغذي هذه الأغصان الذابلة، لأن اليأس لن يكون شيئاً ذا بال إذا أماتنا" (٣:٣٤). إنه يأس قد علتته "بسمة كالحة، بسمة إن تكن وحشية.... فإنها مع هذا توحى بابتهاج لم يفكر في طرده عن نفسه"

(٣:١٦). وقد يخيل إليه حينئذ، بعد أن تحصن بعدم الاكتراث، "أنه يستطيع أن يعاشر الناس من جديد... وأن روحه قد صارت اليوم من المناعة والأمان بحيث لم تعد تخش أن يصيبها ما يحزنها، وإن لم يأتها ما يسرها" (٣:١٠)؛ "غير أنه سرعان ما يتبين أنه أقل الناس قدرة على استبطان سواد الناس، ممن لا تجمع بينهم وبينه وشيجة ولا مشابهة. فإن روحه لم تعرف مطلقاً كيف تخضع أفكارها لأفكار الآخرين، ولم تكن تستطيع أن تخضع إلا لنفسها. إنما كانت نائرة على كل إبحاء أجنبي، فخوراً بقنوطها، قد حملتها الكبرياء على عدم الانقياد إلى أي مخلوق كائناً من كان" (٣:١٢). فيضطر حينئذ أن يعود إلى الطبيعة الحية كما يجد فيها الأصدقاء له، بعد أن ينس من بني الإنسان.

غير أنه لا يستطيع أن يستسلم لهذه الطمأنينة الباردة، لأن "الهدوء جسيم بالنسبة إلى النفوس المتوثبة.... إن ثمة ناراً وحركة في النفوس التي تأبى أن تنحصر في دائرة وجودها الضيقة، بل تصبو إلى ما وراء حدود الرغبة المتوسطة المعتدلة. إنها حين تشتعل مرة بهذه النار العسيرة الإطفاء، لتتحرق عطشاً ولواحاً إلى المخاطر العالية، ولا تتعب من شيء إلا من الراحة" (٣:٤٢). لهذا نجد في طبيعة هؤلاء نزوعاً مستمراً نحو آفاق جديدة وأفكار ممتازة، يخلقونها لأنفسهم إذا لم يتيسر لهم أن يحصلوا عليها حقاً؛ أو بالأحرى هم لا ينشدونها إلا في مملكة خيالهم، لأنهم في الواقع إنما يجرون دائماً وراء شبح يحاولون اقتناصه وهو يفر منهم أبداً، مما يكون في نفوسهم ذلك القلق العنيف الوثاب الذي يميزهم من دون الناس.

ومن أهم ما يمتاز به هذا النفر من الناس محاولتهم الانفراد عن سواد الناس، كنتيجة لهذه العزلة التي يأوون إليها أو يخلقونها لأنفسهم خلقاً. فتراه يأتي من الأفعال ما يميزه منهم على أي نحو حتى لو خالف ذلك مبدأه. فعلى الرغم من أنه يكره الناس، فإنه مع هذا لا يشعر بأثرة؛ بل هو متأهب للتضحية بنفسه في سبيل الآخرين عند الحاجة. وما هذا منه واجبٌ أو من باب العطف على الناس؛ إنما ذلك لأن الناس نادراً ما يؤثرون غيرهم، وقد يبلغ به هذا الميل إلى التمييز من الناس حد إتيان الجريمة لا لسبب غير هذا. وهي حالة نفسية معروفة تشاهد عند كبار المجرمين المصابين بجنون العظمة الذي يستحيل أحياناً أو يبدو على هيئة رغبة في إيذاء الآخرين واضطهادهم.

ولأن الحب الحقيقي ليس من هذا العالم الأرضي في شيء، فإن هذه العاطفة تراها نامية عنده إلى أقصى درجة، مما يدفع به إلى نشدان أوهاام تجور به عن سبيل الوقائع وتقوده إلى خيبة أمل تعصف بحياته. فاتشيلد هارولد قد وهب قدرة على الحب كبيرة غير متيسرة لأحد من الناس، فاتجه بها أولاً إلى ابنة عمه ماريا أتشوروت، وخيل إليه أن حبه سيتوج بالنجاح، لكن "هذه التي عشقها وهام غراماً بها، لم يستطع، يا للتعاسة، أن يظفر بها" (١:٥)، فكانت له عن هذا تجربة مرة كان لها في نفسه أبلغ الأثر، مما دفع به إلى التجوال الطائر بين الغادات الحسان دون أن يشعر بالحب نحو إحداهن. ثم كانت له تجربة ثانية أشد من الأولى مرارة وتعاسة، هي تجربة زواجه البائس، الذي كان كارثة عظمى في حياته، لأن وضاعة امرأة متحذلقمة متمزمتة قد دفعت بغيرتها إلى التعلق بأوهاام كاذبة، فراحت تكيل التهم لزوجها المسكين؛ وساعدها في هذا الاتهام الآثم لداتها من بنات جنسها اللاتي وجدن الفرصة سانحة للانتقام الرهيب من هذا الذي احتقرهن وأمعن في هذا الاحتقار كلما ازددن تعلقاً به. وما أعنف شهوة الانتقام في المرأة حين تحتقر! فكان لبيرن عن هذه التجارب الأليمة خيبة أمل هائلة في الحب، فقنط من الظفر به في هذا العالم الدنيء: "أيها الحب! لست من سكان هذه الأرض؛ أنت ملك خفي نؤمن به؛ وأنت دين شهداؤه القلوب المحطمة؛ ولكن العين المجردة لم ترك ولن تراك كما يجب أن تكون. إن روح الإنسان هي التي أبدعتك، كما أبدعت عليين، بواسطة أحلام تخيلاتها وأهوائها" (٤:١٢).

فإذا كان الحب هو الآخر على هذا النحو، فماذا بقي له بعد؟ لم تبق إلا الطبيعة، ثم نفسه: "أيتها السماء والجبال والنهر والرياح والبحيرة، إن لي روحاً قادرة على أن تفهمكم؛ وفي وسع الليل والسحاب وبروق الصواعق على أن تفهمكم؛ وفي وسع الليل والسحاب وبروق الصواعق أن يلهمني؛ وإن أنغام أصواتك الراحلة لهي كالصليل لكل ما في نفسي من قلق" (٣:٩٦).

إن الطبيعة هي الأم الحنون التي يستطيع أن يرقد على صدرها ويقتات من حليب ثديها؛ وهي المعبد الذي يقدم فيه صلواته؛ وهو لن يحيى بعد في نفسه بقدر ما يصير جزءاً مما حوالبه.

غير أن هذه الطبيعة ليست الطبيعة الخارجية بقدر ما هي صورتها الخيالية عنده.

فهو لا يريد أن يفنى بها، بقدر ما يريد هو منها أن تفنى فيه. لأن العامل الفعّال في كل أفكاره هو ذاته الخاصة. والنزعة الذاتية المغالية هي ما يميز حبه للطبيعة من حب غيره لها، خصوصاً الأقدمين من اليونان والرومان. ذلك أن بيرن يريد أن يمتد بنفسه إلى ما وراء كل حد ونهاية، حتى تنتظم الوجود بأسره، فلا يكون له قانون غير قانونه هو. وهذا الامتداد غازٍ معتدٍ يدفع بجيوشه الحرارة من عواطف ملتتهبة ووجدانات مشبوبة وانفعالات حادة إلى اكتساح كل العالم بروحه وخياله. ومن هنا يمتاز هذا العلاء بالنفس عند بيرن منه عند غيره بأنه عند الآخرين، وبخاصة المتصوفة والفلاسفة، مُسالِمٌ وهميٌ يجري كله في قمة العقل الباردة، ولذا يتسم بالهدوء؛ أما عند بيرن فهو عنيف أهوج صاخب، فيه حرارة وفيه اضطراب، تحدوه قوة زخارة هدامة شيطانية تحاول أن تنال كل شيءٍ بالتحطيم لا بالتسليم، وبالهدم لا بالسلم. لذا تشاهد على جبينه ندوباً وأثراً حارة لعواصف عاتية تضطرم في داخل مملكة خياله. وهذا من شأنه أن يعطي للشعور بالوحدة عنده طابعاً من القسوة والتعالي يرغم الآخرين ويهبط كاهلهم.

كل تلك خصائص نفسية لها نظائرها الفنية. فصفة الازدراء والفردية عنده قد جعلتنا يرغم الطبيعة والموضوعات الخارجية على الدخول في قوالبه الخاصة، بدلاً من أن يتكيف هو وإياها ويستخلص روحها؛ فكان يفرض عليها نفسه وروحه، ويطبّعها بمزاجه الخاص. وما في طبيعته من اضطراب عاصف قد جعل آثاره الفنية مضطربة النظم، لم يسيطر على تكوينها عقل هادئ ينميها خطوة فخطوة، ويحاول أن يوفق بين أجزائها، ويبنيها حجراً حجراً، حتى يتكون عن هذا بناء متلاحم متماسك الأجزاء. إنما كان محموراً في كتابته، غير منتظم في تأليفه، سريعاً في الانجاز لأنه لا يصبر على الترميق والتوفيق وإحكام الربط بين الأجزاء. ومن هنا لم يبرع في الموضوعات التي تحتاج تسلسلاً ولا تقوده فكرة تنظيمية موجهة لبناء كليّ. فلا تجده يسرد الأفكار بطريقة متصلة، إنما يقذف بها على هيئة خواطر مستقلة، كأنها لمحات ولوائح ولوامع تهجم على عقله فترتد بؤادةً شاردةً كأنها البروق. ومن هنا جاء ميله إلى اتخاذ أسلوب الفقرات المنفصلة، كما يشاهد خصوصاً في أروع آثاره: "أتشيلد هارولد"، و"دون جوان": فالأول مكون من الفقرة المعروفة باسم فقرة اسبنسر، وتتكون من تسعة أبياتٍ كلها ذوات طول واحد (5 أقدام) ما عدا البيت الأخير الذي يزيد عنها بقدم سادس،

ويسمى باسم الاسكندري. والثاني مكون من فقرات كل منها ذات أبيات ثمانية. فأسلوب الفقرات هذا قد يسر له أن يعبر عن خواطره المتناثرة غير متقيد بتسلسل أو اتساق؛ وإن كان قد خرج عن هذا الاستقلال بين الفقرات في بعض الأحيان، خصوصاً في النشيد الأخير "تشيلد هارولد". ولهذا أيضاً لم يبرع إلا في النواحي الغنائية. فعلى الرغم من أنه طرق كل أنواع الشعر: من قصيدة غنائية ورواية مسرحية وملحمة وشعر قصصي، فإنها كلها تمتاز بهذا الطابع الغنائي، لأنها دائماً تعبيرات عن خوالج نفسية متناثرة لا تلتئم لتكوين وحدة كاملة متسقة كما تقتضيه طبيعة المسرحية والملحمة على وجه التخصيص. ذلك أن الفردية المطلقة تستلزم الغنائية في الشعر، وتحول إذن بين الفنان وبين السرد المتصل. لذا لا نستطيع أن نعد مسرحياته وملاحمه وقصصه الشعرية قصصاً وملاحم ومسرحيات بالمعنى الصحيح. ففارق هائل بين مسرحية لشكسبير أو موليير أو راسين أو جيته أو شلر، وبين مسرحية لبيرون. في الأولى وحدة واتساق بين الأجزاء وإفشاء من البداية إلى النهاية وإحكام لوضع الأجزاء ونمو مستمر؛ بينما لا نشاهد في هذه الأنواع من الشعر عند بيرون غير الانفصال والتمزق والارتجال والاستطرادات التي تجور بالسرد عن غايته. وهذا راجع أيضاً إلى كون هذه الأبنية الأدبية لا يُحكم بناءها إلا صاحب العقل المسيطر على العواطف والانفعالات؛ أما الذي ينساق وراء أي انفعال طارئ وتتجاذبه الوجدانات المتضاربة، فلا يقدر على البناء والتركيب وإحكام النسيج.

وعرامة الوجدان عند بيرون هي التي تضي على أوصافه ألوناً زاهية براقه وتشيع فيها روحاً عنيفة قوية. فأكثر أوصافه عادي لا يرتفع إلى ما فوق مستوى المتوسطين من الشعراء؛ وصوره كثيراً ما تخلو من الطرافة؛ والخواطر التي يعبر عنها نادراً ما تجد فهياً جديداً أو عميقاً؛ وإحساسه بالطبيعة لا يبلغ من العمق مبلغ إحساس رجل كشلر أو وردزورث في الشعراء الإنجليز، أوتيك ونوفالس في الشعراء الألمان؛ ولكنه يمتاز من هؤلاء جميعاً بأنه يشيع في كل أوصافه وصوره وخواطره وإحساسه اضطراباً وعنفاً يهز النفس ويملأ القلب رعدة وقشعريرة، لا تجد منها شيئاً عند هؤلاء. والغالبية العظمى من أفكاره مبتذلة مشاعة لا جديد فيها ولا طريف؛ غير أنها ذات طابع خاص، لا تستطيع أن تسمية إلا باسم الطابع البيروني، لأنه نسيج وحده، وإن لم تقدر على وصفه بوضوح.

واللحن السائد في كل أشعاره هو لحن الحزن. وهنا لا يكاد يضارعه شاعر آخر، إن قصدنا بالحزن هنا الحزن الإيجابي الوثاب، لا ذلك الحزن المستسلم المريض الذي نجده عند بقية الرومنتيك، وبخاصة في المدرسة الرومنتيكية الفرنسية. لذا مهر في وصف هذه الشخصيات الأسيانة التي تناضل في الحياة مع أعظم القوى الشريرة. فمن النادر أن تجد شاعراً آخر قد رسم هذا القدر من الشخصيات مثل أتشيلد هارولد ولارا ومنفردة وكونراد (بطل قصة "القرصان") وقابيل. وهذه المهارة إنما ترجع إلى أن هذه الشخصيات المختلفة إنما تمثل الجوانب المتعددة لشخصيته هو: ففيها أكبر توكيد لذاتيته: فهارولد هو بيرن نفسه، بكل حياته وآماله وأسفاره وتجاربه في الحياة. وعبثاً حاول بيرن أن يتصل في مقدمة النشيد الأول والثاني من هذه الهوية بين كليهما. إذ سرعان ما وجد القراء في هارولد شخصية بيرن بأكملها، حتى عدّوهما شخصاً واحداً منذ البداية، وحتى اضطر بيرن نفسه إلى الاعتراف بهذا في النهاية، إذ ما لبث في النشيد الثالث والرابع أن هتك قناعه نهائياً وتبدى سافراً؛ ولم يعد اسم اتشيلد هارولد غير ذكرى لاسم استعاره لنفسه. ولارا وكونراد يعبران عن جانب الطموح والنزوع إلى الأعمال والميل إلى المخاطرة في طبيعة بيرن، على الأقل كما حلم بها أن تكون.

وَمَنْفَرْدٌ يُمَثِّلُ جَانِبَ السُّمُوِّ وَالتَّعَالِيِ إِلَى مَرْتَبَةِ الإِلَهِ وَالحَنِينِ إِلَى اللاتِهائِي وَاللامحدود في شخصية بيرن؛ إذ كان يود أن يكون فإوست آخر يسعى إلى اكتناه أسرار الوجود والقبض على مفاتيح الحياة وحل لغز الكون. كما نشاهد طبيعة العنف المتحرر والثورة المجدفة والعصيان العرم في تصوير بيرن لقابيل: فهنا قد أراد أن يعبر عن تمرد على الخالق، نظراً لما يراه في الكون من شر وفساد، الإنسان المسكين منها بريء. وتراه يخيل إلى نفسه أنه إبليس آخر يود أن ينتقم للإنسان البائس من باربه الذي يعذبه ويهقه دون ما ذنب أتاها. وأخيراً نجد شخصية دون جوان تمثل الجانب الحسي الشهواني في بيرن؛ كما تمثل تهكمه القتاتل وسخريته الهدامة التي تهزأ بكل ما الوجود، بعد أن يئست من الظفر بشيء فيه. فإذا كان اتشيلد هارولد يصور بيرن الشاب المتوثب إلى تجارب جديدة، الظامئ إلى الانتهاال من ينبوع الحياة قدر المستطاع، فإن دون جوان يمثل بيرن اليائس الساخر غير المكتثر بشيء ولا بحيء من

الأحياء؛ فكأن الأول يمثله إذن قبل هجرته النهائية عن وطنه (سنة ١٨١٦)، ودون جوان يمثل بيرن في الدور الأخير من حياته بعد هذه الهجرة.

لكن أصدق الشخصيات تعبيراً عن نفسه بأكملها هي شخصية اتشيلد هارولد. فهي تصور بيرن الشاب العاكف على اللذات؛ لكن بدرجة أقل مما حدث لهارولد- الذي ورث اسماً ماجداً وقصراً عتيقاً كان مأوى للفضيلة من قبل، وصار على يديه ملاذاً للعريضة والفجور. فلما بلغ منه الملل، وخيبت آماله التجارب القاسية لأحوال الناس- من نفاق وخداع-، فارق قصر أبيه معتمراً التجوال في القارة الأوربية، غير آسف على شيء من الأشياء ولا على حي من الأحياء الذين خلفهم من ورائه. وركب سفينة أقلته إلى اسبانيا، حيث كانت الحرب الضروس قائمة بين نابليون من جانب، والاسبان والإنجليز من جانب آخر. فجلس خلال هذا الإقليم الرائع الجمال وتغنى ببطولة أبنائه وجمال بناته، وأنحى بأعنف اللوم على المستضعفين منهم الذين لم يحملوا السلاح لطردهم الغازي المغتصب، ووصف المعارك الطاحنة التي دارت بين كلا الفريقين، وعرج على الملاهي الوحشية لهذا الشعب الفطري مثل مصارعة الثيران. ثم لما انتهى من رحلته في شبه الجزيرة الإيبيرية غادرها إلى بلاد اليونان وألبانيا؛ فتلثت ملياً عند أثينا، واستلهم ماضيها المجيد تحت وحي آثارها الرائعة، وبكى على أطلالها الدارسة، واستعاد ذكرى مواطنها المقدسة للفن والجمال، وثار على استسلام الشعب اليوناني للأتراك. ثم ارتحل إلى ألبانيا. وهناك أعجب بشعبها الأبي الباسل، الفطري الغرائز، الوحشي الطباع، في حمية وأنفة ومروءة، وأشاد بحاكمها علي باشا يابنا. ثم عاد يبكي حظ هلاس وينعي على أبنائها الأذلاء، مستنفرأ إياهم إلى الحرب في سبيل الاستقلال والحرية. وبذا تنتهي هذه الرحلة الأولى.

وبالنشيد الثالث تبدأ الرحلة الثانية التي غادر فيها بلاده إلى غير رجعة؛ أولاً إلى بلجيكا حيث زار مسرح القتال الأخير، فوصف الأردن وساحة وتوتلو؛ وبكى على صديق له مات شهيداً في هذه المعركة. وهناك تلبث طويلاً كيما يمجد نابليون، فكرس لوصفه فقرات خالدة هي من أروع ما كتب عن هذا البطل الجبار. وغادر بلجيكا إلى بلاد الرين، حيث وصف مفاتن هذا النهر الجليل الذي يقع في بقعة من أجمل بقاع الدنيا؛ واستمر يتابع النهر في مجراه حتى منابه في سويسره إلى أن بلغ بحيرة ليتمان

(بحيرة جنيف) ذات الذكريات الغرامية الشعرية الخالدة، حيث استعاد نفسه ونصاعة روحه واتحد بالطبيعة الكلية في أبهى مجاليتها؛ وعطف على روسو يذكره بكلمات أقرب ما تكون إلى وصف نفسه. وأخيراً وصل إلى إيطاليا، فحياتها بكلمة أولى؛ ثم أخذ في زيادة بلادها، مبتدئاً بالبندقية، عرافة البحر التي انبعثت من أعماق المحيط، فتغنى بجندولها الخالد وبحرها الفاتن، وقصورها وكنائسها، وتاريخه المجيد في عالم البحار. ومضى منها يستعيد ذكرى بلادها التي كانت مأوى ناعماً لشعراء إيطاليا الممتازين. حتى وصل روما، فأقام بها طويلاً يشاهد آثارها التي تتحدث بأبلغ عبارة عن أعظم الأمجاد الحربية وأروع الظواهر الدينية. وفي خلال هذا كله، كان يُعنى بالبكاء على الديار الخالية والرسوم الدارسة التي تشهد بأن مجدداً أو جمالاً أو حقاً كان يقطن هنا، فكاد أن يستعرض أهم أحداث التاريخ: القديم منه والحديث، مستخلصاً منه في كل حين درساً وعبرة. وكان أهم ما لفت نظره إبان هذا كله، هو مجد الماضي وزواله، وفعل الزمان الجبار في كل شيء يخضع لسلطانه، وتفاهة كل جهودنا الإنسانية التي لا يلبث العدم أن يبتعلها في هاويته السحيقة؛ وعجز الإنسان أمام القدر العاتي الذي يحطم له كل ما أبدعه من آثار رائعة وتحف فاتنة. فأب من هذا كله بحزن دائم ونظرة أسبانية إلى الوجود، لا سبيل إلى الخلاص من ورائها. إذ هي لا تبصر من وراء الأفق شيئاً؛ وإذا كانت هذه حال العالم، وإذا كانت هذه هي الحياة، فلماذا نطلب حياة أخرى وراءها؟ ولكن ترمد بيرن لم يستمر إلى أبعد من هذا مما سيُشاهد بعد في ترمد "قابيل"؛ إنما مال إلى نوع من الاستسلام اليائس الحزين. وهذه الخواطر التي يلذ لبيرن أن يولجها في كل حين وبعد كل منظر، كان من شأنها أن تدفع به إلى كثير من الاستطرادات، مما زاد في تفكك النسج في هذه الملحمة.

وهي أفكار وخواطر ليس فيها من جديد إلا الإخلاص في التعبير عنها. والحق أن بيرن لم يكن عميقاً في أفكاره، إنما كان حاداً في انفعاله وإحساسه، لذا لم يكن مفكراً ممتازاً أو شبه ممتاز. فكان جيته إذن صادقاً كل الصدق حين قال عنه. "إنه حين يفكر، يصير طفلاً"، إذ أشعاره وكتاباتة كلها خالية من سعة الأفق في النظر ونفوذ الإدراك واكتناه الأسرار المستغلة، مما نجده عند شكسبير أو جيته أو شلر أو حتى عند شلي الذي فاقه في هذه الناحية من غير شك، كما فاقه أيضاً في القدرة على وصف

الطبيعة. ولكن ما يميز بيرن هو تعبيره عن طابع وجودي معين لا نستطيع أن نستخلصه عند غيره، بوضوح. فالطابع أو النموذج البيروني نموذج نسيج وحده، له مميزاته الخاصة، التي حاول أن يتأثر بها شباب أوروبا في ذلك العصر.

هذا النموذج البيروني لن تجد فيه عمق فتر، ولا خيال سان بريه، ولا رقة رينيه، ولا هم أقرانه الذين قدموا أنفسهم نماذج عليا للشباب الأوربي في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ أوروبا التي شملت الثورة الفرنسية بما سبقها وما تلاها من سنوات كانت تمهيداً أو ذيولاً لها وختاماً. إنما ستجد فيه نوعاً من اليأس القوي الدافع إلى عدم الاكتراث، لا غفلة، بل ازدراء واحتقاراً. وستجد فيه نزوعاً عارماً إلى نشدان المخاطر، واكتساب التجارب الحية الجديدة باستمرار، وتحقيق الأفعال من وراء الخواطر والأحلام؛ وستغزو نفسك نزعة وحنين إلى الحياة المضطربة العاصفة الزاخرة بأعنف العواطف وأنبل الانفعالات؛ وستقف معه وقفات طويلة عند آثار الماضي وتقرأ في صفحات التاريخ، فتخلو إلى نفسك تسألها في كل حين: إلى أين؟ فإن استطاع أن ينبئك بشيء من أمرك هذا، فأنا موفق حقاً إلى ما كنت أريد.

مايو سنة ١٩٤٤

عبد الرحمن بدوي

أسفار تشيلد هارولد ٨

للورد بايرون

قصة و فروسية

"الكون سفر لم يقرأ منه غير الصفحة الأولى من لم ير إلا وطنه . وأنا قد تصفحت منه قدراً وافراً ، فوجدته رديناً تافهاً . ولكن هذا الامتحان لم يكن عقيماً . فقد كنت أبغضت وطني . ولكن ألوان العنت التي سامتني إياها مختلف الشعوب التي عشت بين ظهارانيها هدتني إلى محبة هذا الوطن . فإذا كنت لم أظفر من أسفاري إلا بهذه الفائدة وحدها ، فكفى هذا كي لا آسف على ما حملتني هذه الأسفار من متاعب ونفقات" .

الكوسمبوليت (١)

(١) كتاب نادر عنوانه الكامل هو : الكوسمبوليت ، أو المواطن العالمي ، وعليه هذه الشارة : "الوطن هو حيث يعيش المرء سعيداً ، وتاريخه سنة ١٧٥٠ ، ولكنه غفل من اسم المؤلف والناشر . وهو كتاب لاذع السخرية ، من وضع فوجريه دي مونبرون .

مقدمة^(١)

تكاد القصيدة التالية أن تكون أوزانها قد ألفت وسط المناظر التي تعرضها: فقد استُهلّت في ألبانيا وأنشئت الفِقرُ المتصلة منها بإسبانيا والبرتغال وفقاً لمذكرات كتبت إبان زيارة هذين الإقليمين.

تلك ملاحظات لا نسوقها هنا عبثاً، إنما هي ضمان لصدق ما بها من أوصاف: أوصاف تتصل الموجودة منها في النشيد الأول بإسبانيا والبرتغال وإيروس وأكرنانيا واليونان. وهنا تقف القصيدة مؤقتاً: فإن ظفرت من الجمهور بحسن القبول، فلعل المؤلف أن يجازف باقتيادِ قرانه حتى يبلغ بهم عاصمة الشرق، ماراً بأيونيا وأفريجيا. وسيعينه النشيدان اللذان ينشرهما الآن على سؤال الرأي العام.

ولم يكن بد من أن نُدخِلَ في القصيدة شخصية خيالية كيما تكون جميع أجزائها على اتصال واتساق؛ وعلى الرغم من هذا كله، فإنني لم أدع بهذا انني أضفت على كتابي هذا طابع الانتظام المميز للملاحم. وكان نفر من خلّائي الذين أكبر أحكامهم في عيني قد نبهوني إلى ما عساي أن أنزلق إليه من خطر اتهامي بأني شئت أن أرسم خلقاً واقعيّاً في شخص أتشيلد هارولد الخيالي. لهذا أنشد السماح لي بأن أقول بصراحة قولة نهائية وهي أن هارولد من بنات خيالي، وإنه شخص ابتدعته من أجل قصيدتي. أما فيما يتصل ببعض من التفاصيل المشتركة فيما بيننا، فلعل من الخير تذكرها؛ ولكنني أمل ألا يكون المرء في حاجة إلى هذا التذكر فيما يتصل بالقطع الرئيسية.

ومن نافلة القول أن نذكر أن اسم "أتشيلد" مثل "أتشيلد ووترز"، و"أتشيلد تشيلدرز" قد استعمل لأنه أكثر تلاؤماً مع الإيقاع أو الوزن الذي اتخذته لأبياتي. و"التوديعات" الواردة في مستهل النشيد الأول قد أوحى بها إليّ "عم مساء" للورد

(١) هذه المقدمة خاصة بالنشيد الأولين من الأناشيد الأربعة المكونة لقصيدة أتشيلد هارولد.

ماكسول، في الأشعار الاسكتلندية العتيقة (بوردر منستر لزي) التي نشرها اسكوت. ولعل القارئ أن يجد في النشيد الأول بضعاً من الفِقرِ التي تبدو كأنها ذكريات باقية عن قصائد مختلفة تدور حول اسبانيا؛ ولكن هذا إنما تم بمحض الاتفاق، لأنه، ما عدا قليلاً من الفقر الشعري، قد كتب الجزء الأكبر من "أتشيلد هارولد" في البحر المتوسط. والفقرة الشعرية عند استنسر تنطوي على عدد هائل من النغمات، كما حكم بهذا واحد من أشهر شعرائنا. فقد كتب الدكتور بياتي يقول: "لم يمض زمان طويل منذ أن ابتدأت أنشئ قصيدة على أسلوب اسبنتسر وأوزانه؛ وفيها لذ لي أن أدع السبيل مفتوحاً أمام ذوقي في الانتقال دوراً فدوراً من اللهجة الفكهة إلى اللهجة المشجية، ومن الوصف إلى العاطفة، ومما هو رقيق حنون إلى ما هو لاذع مقذع، وفقاً لما عسى أن يلهمني إياه مزاجي؛ لأن الوزن الذي التزمته يحتمل كل هذه الأنواع على السواء ("رسائل بياتي"). فلما تأيد رأيي برأي حجة كهذا، ورأي بعض من الشعراء الإيطاليين من الطراز الأول، لم تعد بي حاجة إلى تبرئة نفسي وتبرير مسلكي بإزاء ما وددت اصطناعه من اتخاذ لهجات مختلفة الشُّيات، عديدة الأنواع، ما دمت واثقاً من أنني إذا لم أنجح في تحقيق هذه الغاية، فهو أولى من أن يكون راجعاً إلى اتخاذ وزن زانه ورفع مناره أربوستو وتومسون وبياتي.

لندن، فبراير سنة ١٨١٢

فضل تقديم

أعود اليوم فأمسك القلم بعد أن شاركت كل صحفنا الدورية بنصيبها في نقد كتابي. وليس لدي ما أقوله ضد عدالة ملاحظاتهم بوجه عام. وسأكون متجانفاً إلى الندامة لو أنني صرخت في وجه انتقاداتهم الخفيفة كل الخفة؛ فلعلهم كانوا سيكونون أوفر حظاً من الصدق في القول، لو أنهم، على العكس من هذا، لم يظهروا نحوي كل هذا العطف. فليتقبلوا جميعاً، فرداً فرداً، مني إذن كل دلائل الشكر على هذا الكرم. غير أن ثمة نقطة واحدة أود التجاسر على سوق ملاحظة بإزائها. فمن بين الانتقادات العادلة التي وجهت إلى خُلُقِ رحالتي (الذي أقرر دائماً أنه شخص خيالي، على الرغم من كل ما يقال بخلاف هذا)، الغريب الأطوار، قيل إنه إلى جانب الخطأ التاريخي، فإن اتشيلد هارولد لم يكن فارساً مطلقاً، لأن عصر الفروسية كان عصر غرام وشرف إلخ إلخ. غير أننا نعلم اليوم أن هذه العهود التي ازدهر فيها "الحب المنتسب إلى العهد العتيق السعيد"، "الحب العتيق"، كانت عصور الفساد الأكبر. وليس على من يشك في هذا إلا أن يتصفح بضع صفحات من سان ياليه، وأن يتلَبَّثَ ملياً عند ص ٦٩ من المجلد الثاني. فالأيمان التي كان يأخذها الفرسان على أنفسهم لم تكن تراعي أكثر مما كانت تراعي الأيمان الأخرى؛ وأغانى التروبادور لم تكن أكثر عفافاً وعذرية من أغاني أوفيد؛ ولم تكن أخف وقعاً منها أو أكثر تهذباً. و"قصور الغرام، ومجالس الحب، أو الرقة والتهذب" كان فيها من الغرام أكثر مما كان بها من التهذب. وما عليك إلا تنظر في هذا الصدد رولان وسان ياليه. وأياماً كان الاعتراض الذي تسوقه ضد شخص اتشيد هارولد غير المحبوب، فإنك لن تستطيع أن تنكر عليه أنه كان يتحلى بصفات الفروسية- "لم يكن خائلاً، بل كان من الداوية" ("الصعاليك، أو الاتفاق المزدوج"). وإني لأخشى ألا يكون ترستان ولا نصلو خيراً مما كان يجب أن يكونه، وإن كانا مع

ذلك شخصين ذوي نزعة شعرية سامية، وفارسين مغوارين "لا يهيبهما شيء"، دون أن "يخلوا من النقائص". وإذا كانت قصة نشأة نظام "رباط الجورب" حقيقة وليست بأسطورة، فإن فرسان هذه الطريقة قد حملوا طوال عدة قرون شرط كونتيسة من كونتيسات سالزبرى، لا تعني الناس ذكراها: فما أشرف الفروسية بهذا! وما كان لبيرك أن يندب هذا النظام، على الرغم من أن الملكة ماري أنطوانيت التي كان يدافع عن قضيتها كانت في منزلة من الفضيلة تعدل منزلة غالبية السيدات اللاتي تكسرت من أجلهن الرماح وجندلت بسببهن الفرسان.

وقبل أيام يابار إلى أيام سير جوزف بانكس (وهي أكثر الأيام القديمة والحديثة طهراً وعفافاً)، قليلة هي الشواذ التي تخالف ما قلناه؛ ويساورني الخوف من أن قليلاً من البحث سيكفي كي يعلمنا ألا نأسف على هذه المومياءات الشنيعة التي تعزى إلى العصور الوسطى.

وها أنذا أدع "أتشيلد هارولد" تحيا ما وسعتها الحياة. وقد كان من الأيسر والألذ إلى نفسي أن أصور خلقاً محبوباً؛ وكان في الوسع اسبال القناع على معاييه من غير ما مشقة، وجعله أكثر أفعالاً وأقل مقالاً. ولكنني لم أقصد من تقديمه أن يكون نموذجاً يحتذى؛ بل كل ما قصدت إليه هو أن أبين كيف أن الفساد المبكر للروح والأخلاق يجرُّ إلى السامة من اللذات الماضية واليأس من اللذات المقبلة؛ وأن جمال الطبيعة ومباهجها نفسها والبواعث على العمل (اللهم إلا الطموح، فإنه أقوى المستثيرات) مفقودة التأثير في مثل هذه النفس الضالة الشاردة. ولو أنني استمررت بقصيدتي مع أتشيلد هارولد، إذأ لازداد عمق هذا الخلق كلما أوفى على النهاية؛ لأن الصورة الإجمالية التي كان في عزمي أن أحققها يوماً ما، كانت في مجملها، مع اختلاف قليل، صورة لتيمون جديد، أو زاليتوس مصوغاً في قلب الشعر.

لندن، سنة ١٨١٣

الإهداء

إلى إيافته (١)

في الأجواء التي همتُ فيها منذ قليل، على الرغم مما يقال من أن الجمال كان يعتبر هناك من غير منافس ولا شريك؛ وفي هذه الرؤى الخيالية التي تسوق إلى القلب ألواناً من الجمال يأسى عليها متنهداً زافراً لأنه لم يرها إلا في الأحلام؛ في هذا كله لم تَبْدُ لي من تُدانيك إن في الواقع أو في الخيال. لهذا لن أحاول، بعد أن رأيتك، أن أصور هذه الألوان من السحر والفتنة التي تعددت وازدهرت. إن كلماتي ستكون إذن عاجزة عن أن تصف من جمالك شيئاً لمن يعرفك بعد! وبأي لسان يستطيع أن يتحدث من أوك؟

آه! لبيتك بقيت دائماً كما أنت الآن؛ فلا تخيبي الآمال التي تشع من ربيعك! وليتك بقيت هكذا رائعة الجمال، فيك حرارة ومع ذلك فليس في قلبك إلا الطهر، تقدمين إلينا صورة "الحب" العاري من الجناح على هذه الأرض، وتخليين ألبابنا بما فيك من براءة عذبة! أجل إن تلك التي ترعى سنينك في شبابك برقة وحنان، لترى فيك الآن، وعليك سنا الفتنة، قوس قزح سنيها المقبلة، فتنجاب أحزانها أمام هذه الألوان السماوية والأطياف الملائكية.

أنت يا حورية الغرب الفتاة! إن عمري قد تقضى منه ضعف عمرك من السنين؛ إن عيوني لتستطيع أن ترنو إليك دون أن تحترق بلهيب الغرام؛ وتتأمل في غير ما خطر بهاء جمالك الناضج الفتان. وما أسعدني ألا أراه يوماً يذبل أو يحول؛ وما أكثر سعادتي حين أرى أنه بينما تدمى سائر القلوب الشابة من كلومها القاسية، فإن قلبي

(١) إيافته هذه هي الفتاة الصغيرة، الليدي شارولت هارلي (التي صارت فيما بعد ليدي شارولت بيكون)؛ وكانت سنها حين تقدم هذا الإهداء إليها الحادية عشرة تقريباً.

سينجو من المصير المقدر لهؤلاء الذين تقضي عينوك عليهم بالإعجاب بك، مع ما يجره هذا من عذاب هائل حتى في أعز ساعات الحب.

أوه! دعي تلك العين، الوحشية كعين الغزال، المضيئة في روعة وجسارة؛ دعيها تلك العين التي تأسرنا في شرودها، وترحالها، وتملؤنا بالذهول في حلها وثوائها؛ دعيها إذن تلقي نظرة إلى هذه الصفحات، ولا تجعلها تحرم شعري من هذه البسمة التي يزفر صدري تحرقاً إليها، لو أنني كنت لك شيئاً أكثر من صديق. نشدتك الله، يا غادتي العزيزة، إلا فعلت ما رجوت؛ ولا تسأليني لماذا أتوجه بأناشيدي هذه إلى جمال فتى كجمالك؛ بل دعيني أستوكف عطفك كي تسمح لي أن أضم زنبقة ناصعة البياض إلى أزهار إكليلي.

إيانتته! هكذا سأمزجُ اسمك في غدائر أشعاري؛ وفي كل مرة تُلقي عين حنون نظرة إلى رحلات هارولد، سيكون اسم إيانتته أول ما يتبدى أمام ناظره، كما سيكون آخر ما ينساه. آه! حينما ينقضي عمري وتعدُّ سني، أود لو أن هذه التحية القديمة تجتذب بنانك الرخص إلى القيثارة، قيثارة من تغنى بك وبما لك من فتنة وإغراء؛ فهذا أقصى ما تتمناه ذكراي. ولكن إذا كان هذا فوق الرجاء، فهل للصداقة أن تتطلب أقل منه؟

النشيد الأول

-١-

أنتِ أيتها الموسا^(١)، يا من تمثلت هِلاسُ من أصلاب الآلهة! أنتِ يا من أبدعت خيال الشعراء، لطالما أخرجتلك قيائير شعرائنا المُحدثين حتى لم تعد قيئارتي تجسر على الإهابة بك من فوق رابيتك المقدسة: غير أنني تجولت هنالك على ضفاف ينبوعك^(٢) الذائع الصيت. أجل! لقد أرسلتُ أفواج الزفرات نوحاً على مذابح دلف المهجور من بعيد الزمان، في هذا المكان الذي لا يقطع من صمته الأسيان غيرُ همسات ينبوعك العزيز. ولكنني لن أوقظ الأخوات التسع من أجل أن يباركن قصة بسيطة متواضعة وأغنية ساذجة كأغنيتي هاتيك.

-٢-

فتى عاش في جزيرة ألبون^(٣)، لم تستهوه سُبُل الفضيلة أدنى استهواء. فأمضي أيامه في عريدة فاجرة فادحة؛ وعكرت عليه اللذات الصخرة صفو الوسن الهادئ في الليل الساجي، حتى استكت منها مسامع الليل الغافية. يا الله! لقد انطلق بلا أدنى تأثم ينتهب ألوان الفجور وينتشي بأفحش اللذات الحسية الشهوانية؛ ولم يكن بأسر

(١) الموسا هي آلهات الشعر والموسيقى والرقص وكل الفنون الحرة . وكل بنات زيوس وميثوزنيه . وعدهن تسع : كليو ، وتشرف على التاريخ ؛ ويوتريا ، وتشرف على الموسيقى ؛ وطاليا ، وتشرف على الملاهي ؛ وملبومنيه ، وتشرف على المآسي ؛ وتريسكورا وتشرف على الرقص ، واراتو ، وتشرف على الشعر الغنائي الرقيق الغزل ؛ ويوليهمنيا ، وتشرف على الفناء والخطابة ؛ وكليوبا ، وتشرف على سمر البطولة والملاحم ؛ وأخيراً أورانيا ، وتشرف على الفلك . وكن جميعاً تحت قيادة أبولو ، ولذا سمي بقائد الموسا (موساجيتس) ؛ وإن سمي هرقل بهذا الاسم . وكان التخيل والغار وكل يتابع بندوس وهليكون برناسوس مقدسة لهن . ويمثلن عادة على صورة عذراوات يعلوهن الحياء ويتسمن بالشباب والجمال . ولم تكن تُقدَّم لهن ضحايا ، وكل ما هنالك أعياد تقام باسمهن في أنحاء مختلفة من بلاد اليونان (هيلاس) ، خصوصاً في تسبيا ، القرية القائمة عند سفح جبل هليكون ، كل خمس سنوات .

(٢) الينبوع الذي يشير إليه بيرون هناو كستاليا . أحد يتابع جبل البرناس . وقد امتدت رحلة انتشيلد هارولد حتى دلف المذكورة بعد .

(٣) جزيرة البيون هي بريطانيا ؛ والمعنى الاشتقاقي لهذا الاسم يدل على البياض ، فسميت به لبياض صخور دوفر المواجهة للقارة الأوروبية .

قلبه من شئون الدنيا غير القيان الفواجر وخلان السوء الداعرين، وأبناء الحظ المتباهين،
من أي طبقة كانوا.

-٣-

اتشيلد هارولد، هكذا كان اسمه. أما أصله ومن أين جاء اسمه، فهذا ما لا يخلق
بي ذكره. بل يكفيني أن أقول إنهم كانوا من ذوي الصيت، وكانوا في زمانهم مبدلين
ماجدين. ولكن ابناً حقيراً فاسداً يكفي وحده لكي يدنس إلى الأبد اسماً لامعاً بارزاً،
مهماً يكن من شدة برقانه في الماضي، ومهما تكن جلالته آنذاك. ولن يستطيع
النسابون بكل ما في وسعهم استخراجهم من الطين المقبور، ولا النثر المبرقش أو أكاذيب
الشعر المعسولة، لن يستطيع شيء من هذا كله أن يسمِّم بالنُّبُل أفعالاً شريرة، أو أن
يضيفي المجد على جريمة.

-٤-

لقد استضحى اتشيلد هارولد في شمس الظهيرة لنهار اللذات، متملياً منها بما
يهوى كالفراشة الهائمة، ولم يحسب حساباً لما عسى أن يأتي به الليل القارس من شقاء
وإرهاق بعد هذا النهار القصير من حياته. ولكنه لم يكذب يقضي من عمره ثلثه حتى
حلَّتْ به الكوارث. فقد أحس بتمام الملل والنفور: فَكَّرَهُ الثواء بوطنه، إذ تبدى له أكثر
إحاشاً وقرراً من صومعة الراهب الكنيية.

-٥-

فقد جاس خلال أتاويه الشر الطويلة؛ ولم يشأ التفكير عما اقتترف من إثم. وبعث
بأحر الزفرات إلى الكثيرات، مع أنه لم يحب منهن غير واحدة^(١)؛ وهذه التي عشقها
وهام غراماً بها، لم يستطع، ويا للتعاسة، أن يظفر بها. آه! ما أسعدها أن تنجو من فم
هذا الذي كانت قبلاته ستدنس ثغرها الطاهر! هذا الذي كان سرعان ما يهجر جمالها

(١) هي مس ماريا اتشوروث، وكانت حينئذ متزوجة.

الإلهي الرائع، جرياً وراء شهوات مبتذلة وضيعة، ويبدد أموالها وعقارها كي يجهز على سوار مالها في الحياة؛ هذا الذي لم يشأ يوماً أن ينعم بسلام البيت وهدوء المنزل.

-٦-

ولكن ها هو ذا اتشيلد هارولد الآن، وقد برحت بقلبه العلل والآلام، يريد أن يغادر رفاق العريضة، وينأى عنهم بعيداً. أجل لقد كانت الغبرات أحياناً على بتات أن تنهمر من عينه، ولكن سرعان ما كانت تجمدها الكبرياء في مكانها ويخلو وحده إلى أشباحه الحاملة. ثم قر رأيه على مغادرة بلاده وزيارة الأجواء المحرقة عبر البحر. فلما بلغ منه المرح واللذات، اشتاق أو كاد إلى الحزن والشقاء، حتى لم يكن ليجد حرجاً في النزول إلى مأوى الظلال (القبر)، لو كان في ذلك السبيل الوحيد إلى تغيير الجو الذي يحيا فيه.

-٧-

فارق اتشيلد قصر أبيه^(١)؛ وكان بناء شامخاً يعلوه الجلال؛ قد بلغ منه القدم مبلغاً جعله يبدو على وشك السقوط. ولكن أجنحته كانت لا تزال تسري فيها المتانة والأسر. لقد كان من قبل مأوى مقدساً، فصار اليوم محلاً للندس والفجور؛ في هذا المكان الذي أوى إليه من قبل الإيمان الساذج، أصبحت بنات يافوس^(٢) تغني وتدير البسمات المغرية. لقد كان مقدساً إلى حد جعل في وسع الرهبان أن يتخيلوا فيه عدد الأيام السعيدة الخالية؛ إذا كانت القصص القديمة صادقة فيما تروي ولم يكن هؤلاء الأولياء الأبرار صادقين.

(١) هو قصر نيوستد أبي .

(٢) بنات بافوس ؛ بافوس مدينة شهيرة في جزيرة قبرص أنشئت فيما يقال حوالي سنة ١١٨٤ ق م . وكانت تعبد فيها فينوس ، ربة الجمال ، فتضحى لها على مذابحها كل ذكور الحيوانات ، فكان ينبعث عنه عيبير فاغم كبير المر وأعواد البخور . وكان أهلها مختلين داعرين إلى أقصى حد . حتى كانت القوانين المحلية فيها تسمح للمذراوات بأن يحصلن على بانثتهن عن طريق الدعارة .

-٨-

ولكن جبين اتشيلد هارولد كان كثيراً ما تجلله الغيوم الحزينة، وسط عواصف المرح المفرط الصخب، وكأن ذكرى حادث رهيب أو عاصفة بائسة قد رقدت في أعماقه ثم استتيقت فجأة في تلك اللحظات. ولكن هذا لم يعرفه أحد، أو لم يحفل أحد من رفاقه بالتقصي عنه؛ لأن طبيعته لم تكن تلك الطبيعة المفتحة الخالية من الصنعة، التي تجد السلوى في إطلاق تيار الأشجان؛ ولم يكن يبحث عن رفيق يعزيه أو يواسيه، مهما يكن من أمر هذا الحزن المستولي على نفسه.

-٩-

ولم يكن أحد يحبه، على الرغم من أنه كان يدعو إلى قصره الشباب العرييد من كل الأنحاء؛ إنما كان هؤلاء يتملقونه إبان المآدب والحفلات وحدها، لأنهم كانوا طفيليين لا يدعوهم إليه إلا المرح الحاضر. أواه! لم يحبه منهم أحد، ولم تشعر واحدة من القيان بعاطفة الحب نحوه؛ غير أن النسوة لا يعنيهن إلا الفخفخة والجاه، فهذان هما وحدهما معبود النساء. إنهن كالفراش لا يجتذبهن إلا البريق واللمعان؛ وإن مامون (إله الثروة والغنى) ينتصر حيث تُخفق الملائكة.

-١٠-

وكانت لا تشيلد هارولد أمماً، لم ينسها قلبه؛ ولكنه لم يشأ أن يودعها قبل الرحيل. وكانت له أخت يعزها، ولكنه لم يرها قبل بدء سفره. وإذا كان له أصدقاء، فإنه لم يقبل منهم أحداً قبلة التوديع. ومع هذا فلا تحسبن من هذا المسلك أنه كان ذا قلب من الصخر الصلد: أي هؤلاء الذين تعرفون ما معنى الحب؛ إنكم تشعرون تماماً بما يجره على قلبكم من عذاب هذا التوديع الأليم؛ إنه ليحطم القلب الذي تود هذه النفوس الحبيبة أن تأسو جراحه.

-١١-

قصره وممتلكاته، وإرثه، والغواني الباسمات اللاتي أنس عندهن السرور، واللواتي تستطيع عيونهن الزرق النجل، وغدائهن الجفال الناعمة، وأكفهن الناصعات البياض

كالثلج، أن تززع قداسة الراهب القانت؛ هؤلاء اللاتي غدين شهوته الواسعة الفتية. ثم كؤوسه المترعة الصهباء وأرق التسنيم؛ ثم كل هذه الأشياء الداعية إياه إلى انتهاب اللذات؛ كل هذا قد فارقه دون أن يزفر زفرة أسف على فراقه؛ ولم يعد يفكر إلا في اجتياز البحار، واجتياح بلاد الوثنيين (الشرق)، والعبور بخط الاستواء، متلظياً بشمس المحرقة.

-١٢-

انبسط الشراع، وهبّت ريح رقيقة وكأنها سرت بحمله من بلاده عبر البحار. وسرعان ما اختفت الصخور البيض أمام ناظره، وفنيت في زيد أثاره الموج في عرض الأفق. ولعله تحسّر هنالك على أنه ودّ الرحيل، ولكن هذا الخاطر ظل صامتاً مطوياً في أعماق صدره، فلم تنبس شفتاه بأية شكاة، بينما ذرف باقي الراكبين الدموع، شاكين إسراع وفد الريح في هياج مفرط صحاب.

-١٣-

وما أوفت الشمس على الانحدار إلى أعماق الماء، حتى اجتذب ظنهوره الذي كان يحسن عليه العزف، وضرب عليه نغمات غير متقنة، حين خيل إليه أنه ليس ثمة أذن غريبة تصغي إليه: وها هي ذي أنامله تعبت بأوتارها، مرددة وداعه في وقت الأصيل الشاحب الكئيب. وكانت السفينة تطير على الجودي بجناحها الناصع كالثلج، وتراءت لناظره الشيطان وهي تتراجع بسرعة. فأرسل اتشيلد هارولد لحن "وداعه" الأخير:

-أ-

وداعاً وداعاً بلاد الحـمى

على الماء تخـفين تحت الزبد

رياح المساء لها زفرة

وللموج قرع طويل الأمد

ويصرخ طيـر؛ وشمس بدت

تهـرول نحو مـغـيب وعـد :

سلاماً إليك وأرض الحمى
سلاماً يردّدُ حتى الأبد!

-ب-

وعمما قليل يعنود السنا
سنا الصبح يعلو الذرى والوهاد
أحيي الميَاه ، أحيي السمما
ولست أحيي الحمى والبلاذ!
وقصري الجميل ، لقد أقفرت
مقاصيره وخبا الإققاد
وعشبٌ غريب علا وجهه
وكلبي ينبح عند الوصاد

-ج-

هلمّ ، هلمّ ، رفيعتي الأمين (١) !
لماذا البكاء ، علام الأنين ؟
أتخشى من الموج طوفانه ؟
أم الريح تخشى لدهها المنون ؟
دع الدمع ينضب في نبعه
فإن السفين رشيق متين
يكاد ينافس في سيره
من الطير كل سريع مبين

-د-

"- دع الريح تهزم في موجهها!
فلا الموج أخشى ولا ذى الرياح :

(١) أخذ بيرون معه أحد أبناء مزارعيه ؛ ولكنه رده إلى وطنه ثانية في طارق ، بعد أن مرض شوقاً على وطنه كما مرض من دوار البحر .

ولكن ، رثيــــــــــــي ، لا تــــــــــــجبن
إذا كنت أبـدو مــــــــــــــــهــــــــــــــــيـض الجناح
فإنني تركت أباً حــــــــــــــــانئياً
وأماً لها كل حــــــــــــــــبي متاح
وما من صــــــــــــــــديق لدي ســــــــــــــــوا
هما غــــــــــــــــيركم وإله الصــــــــــــــــباح

"حــــــــــــــــباني أبي خــــــــــــــــالصاً عطفه
وبارك حــــــــــــــــولي بصــــــــــــــــبر عــــــــــــــــتيد
ولكن أــــــــــــــــمي ، يا ويلهــــــــــــــــها !
ستشكو وتنحب حتى أــــــــــــــــعود"
"ــــــــــــــــ كفى يا غــــــــــــــــلام ، كفى كل ذا
خليقٌ بــــــــــــــــعينيك دمغٌ يجــــــــــــــــود
إذا كان قلبي بريئاً كــــــــــــــــقلبك
البرّ ما جف دمــــــــــــــــعي الصــــــــــــــــديد

"هــــــــــــــــلم ، هــــــــــــــــلم ، وليّ المــــــــــــــــطيع!
لماذا أراك شــــــــــــــــديد الشــــــــــــــــحوب؟
أتخشى الفــــــــــــــــرنسيــــــــــــــــس (١) أعداءنا ؛
أتفزع من هول ربح هــــــــــــــــبــــــــــــــــوب؟"
"أتمسب أني يا ســــــــــــــــيــــــــــــــــدي
من الموت أجزع؟ لست الهــــــــــــــــيــــــــــــــــوب
ولكن زوجاً على عــــــــــــــــرســــــــــــــــه
يظل حــــــــــــــــزيناً إذا ما تــــــــــــــــغيب

(١) كانت إنجلترا آنذاك (سنة ١٨٠٩) في حرب مع فرنسا أيام نابليون .

-ز-

ألا إن زوجي وأبنائنا
لدى قصركم ، سيدي ، يقطنون
بقرب البحيرة ؛ إن يسألوا
عن الأب ، أي جواب يكون؟"
- كفافاك ، كفافاك ولي مطيع
فمن ذا يلوم على ذي الشججون؟
ولكنني مرح هازل
أسر لهذا الفرار المبين

-ح-

فمن ذا ، بأنه محبوب
زوج ، تكون لديه الثقة؟
فعمما قليل يجفف من
دموعها لذة مشرقة
وليس أساي على ما مضى
من اللهو أو لرؤى مقلقة
ولكن همي أن لا أرى
ورائي شيءنا يحق المقه

-ط-

وهأنذا في الدنى مفرد
أجوب البحار بريح علي
لماذا أساي على آخر
ولا فردد في الكون يحنو علي
لعل كلابي تعوي ، إلى
مجيء ، غريب بخبز شهية

فإن غابت عنها طويلاً نزلت
عليّ كـأني لست الوفيّ

نفرَ سرّيعاً عليّ -ي- مزيد
من الموج . . يا مركبي المسرعاً
هلمي إلى أيما موطن
تشائينه ما عدا المخدعاً
إليك سلامي يا مـوجـتي !
وإن غابت يا موطني البلقـعاً
إليك وداعي ! يا قـفـرتي
كهوفي وقصري ، وداعاً معاً

-١٤-

غابت الأرض. وطار المركب تتقاذفه الرياح الهوج في خليج بسكاي العاصف.
وهاهي ذي أيام أربعة قد انقضت؛ وما أطل الخامس، حتى تبدى شاطئ جديد أشاع
النشوة في كل القلوب.
فها هي قنة جبل استترا^(١) تحييهم وهم في طريقهم، بينما نهر التاج^(٢) يدفع
الجزية للبحر من مائه الذهبي المتدافع إلى الأعماق؛ وسرعان ما وثب ملاح برتغالي على
ظهر السفينة كما يقودها خلال شواطئ تنزى بها قوى الخصب والنماء، ويقوم فيها
نفر من الفلاحين بالحصاد.

-١٥-

بأي سحر تتأمل العين كل ما أبدعته السماء من أجل هذا الجو الجميل؛ وأي فاكهة
شهية تتراقص عليها الألوان فوق كل الأشجار؛ أي مناظر غنية تتراعى من فوق أعالي

(١) سنترا مدينة بالبرتغال على مسافة ١٥ ميلاً شمال غربي لشبونة .

(٢) نهر التاج يصب في المحيط الأطلسي ويخترق البرتغال وإسبانيا . ويوجد قليل من الذهب في رماله ؛ ولكن بنسبة قليلة . وتلك حقيقة
كان يعرفها الأقدمون من الرومان ، إذ ذكرها بلييني وكاتلوس وأوفيد ؛ لذا نرى الشعراء الرومان والمحدثين يتغنون بذهبه .

الروابي! ما هذه الأيدي الدنسة التي أتت كيما تخرب هذا الاقليم البديع؟ آه! حينما يضرب الله العليّ بيده الجبارة هؤلاء الذين يتحدون قوانينه، ويخرقون أوامره العليا، سيقتذف بسمانه النارية جحافل الغال^(١)، منتقماً منهم أشنع انتقام، ومطهراً الأرض من أعدائه القساة.

-١٦-

أي جمال تَكشَّفَ عن لشبونة من النظرة الأولى! إن صورتها لتسيح فوق هذا التيار النبيل الذي صورّه الشعراء مبسوطاً برمال من الذهب. ولكن أمواجه تحمل الآن آلاف السفن ذوات القوة الهائلة، منذ أن صارت ألبيون حليفة البرتغال، هذه الأمة المليئة بالكبرياء والجهل، والتي تُقبَلُ وتكره اليد التي تحمل المهند كيما تنقذها من براثن سيد بلاد الغال الذي لا يرحم.

-١٧-

ولكن الداخل هذه المدينة التي ترف من بعيد كأنها سماوية، يحس بالألم وخيبة الأمل وهو يجوس خلالها بين كثير من الأشياء التي تقتحمها عين الغريب، لأن القصر والكوخ كليهما يبدو كريهاً تقذى به العيون. وساكنوها البائسون يخوضون في الأقدار، فلا يحفل أحدهم، كبير مرتبة أو صغر، بنظافة قميصه أو سترته، وحتى لو أصابهم الطاعون، لظلوا في أقدارهم وا لغين غير مكترئين.

-١٨-

يا لهم من عبيد بانسين! وإن كانوا قد ولدوا وسط أجمل المناظر وأسمهاها- لماذا إذن، أيتها الطبيعة، تبدّدين نعمك على أمثال هؤلاء؟ إن جنة سنترال الرائعة لتبتدى أمامنا في مناظر من الروابي والأدواء باهرة الألوان. أوآه! أية يد تستطيع أن تقود

(١) يشير هنا إلى زحف الجيش الفرنسي بقيادة جينو على بلاد البرتغال ولكنه صد بفضل سير آرثر ولسلي قبل وصول بيرن إلى لشبونة ببضعة أشهر .

القلم أو الريشة كيما تصور ولو نصف ما يتراءى للعين من مناظر أشد إثارة للدهشة والفتنة من تلك التي وصفها الشاعر^(١) الذي فتح للناس مبهورين أبواب عليين.

-١٩-

ههنا صخرة وعرة يتوجها دير قوطي؛ وهنا أشجار الفلين تظلل بأغصانها هاوية تحف بها الشجيرات؛ وعلى الجبل بساط من طحلب سوتة سماء قانظة؛ وصغار الشجر يزين وادياً عميقاً لم تنفذ إليه يوماً أشعة الشمس، وزرقة المحيط المستوية، وقلائد العقيان وهي تتدلى من أوراق أشجار البرتقال الخضراء، والسيول الهابطة في توثب من الصخور إلى الأوداء، والكرم الزاحف على منحدرات الروابي، والسرو المترجج على شاطئ النايبيغ، كل هذا يساهم في تحميل هذا المنظر الساحر وتنويعه^(٢).

-٢٠-

ثم أصدد الشعب المتلوي بأناة، وأدر طرقتك مراراً كيما تتأمل ما تراه، ومن الصخور العالية انفضت مناظر رائعة جديدة، ثم استتره عند معبد "سيدة الآلام"^(٣)، حيث يعرض عليك الرهبان الزهاد بقايا الصالحين المقدسة، ويروون للغريب مختلف الأساطير: هنا عوقب الفساق، وفي تلك المغارة عاش هونوريوس سنين طوالاً، آملاً أن يستحق الجنة بجعله الأرض جحيماً.

-٢١-

وهنا وهناك وأنت تصعد الشعاب تشاهد صلباناً خشنة النحت، ولكن لا تحسبن أنك بهذا ترى قرابين للتقوى، إنما هي آثار واهية لغضب سفاك. فحيث نرف دم الفريسة

(١) كتب بيرون إلى أمه يصف منطقة سترا قانلا: "إنها أبهى منطقة في كل أوروبا؛ ففيها جمال من كل وصف، طبيعي وصناعي. فالقصور والمدائن تقوم وسط الصخور والشلالات والهوى؛ والأديار تشرف على المرتفعات الشامخة؛ ومن بعيد يتراءى البحر ونهر التاج".

(٢) يرى معظم الشرائع أن الإشارة هنا إلى دانتة في الردوس (القسم الثالث من "الملمة الإلهية")؛ وقد تكون الإشارة أيضاً إلى ملتن في الفردوس المفقود (نشيد ٢٤ أبيات ١٣٦-٩٦٥) كما يلاحظ. مورس (في نشرة مكمل، لندن سنة ١٩٠٥، ص ٧٧ من الجزء الأول).

(٣) يقوم دير "سيدة الآلام" (أو العقاب) على قمة صخرة؛ وعلى مقربة من هذه الصخرة وعند أسفلها يوجد دير كورك، حيث احتضر القديس هونوريوس مغارة قضى بها السنين الطوال من عمره. والقديس هونوريوس هذا راهب مشهور في هذه المنطقة، توفي سنة ١٥٩٦ وهو في سن التسعين، وليس هو القديس هونوريوس المشهور أحد كبار آباء الكنيسة.

ولكن بيرن قد أخطأ في فهم الاسم الإسباني لهذا الدير إذ معناه "سيدة الصخرة" لا "سيدة العقاب"؛ وتدرك هذا الخطأ في تعليقه على الطبعة الثانية، ولكنه لم يشأ أن يغير النص.

البائسة تحت سكين السفاك، نصبت أيد صليباً من الأغصان الجافة. والأوداء والخمائل مليئة بهذه الذكريات الحزينة، في هذا البلد المضرج بالدم، حيث لا قانون يحمي الحياة^(١).

-٢٢-

وعند منحدر الروابي أو أعطاف الوادي ترى قصوراً كانت من قبل مساكن للملوك، ولكنها اليوم خاوية لا تزهر من حولها إلا النباتات الوحشية البرية، ولم يعد يتحدث عن مجدها القديم إلا بقايا من الأطلال. هناك يقوم قصر أمير البرتغال الجميل. وأنت، يا ابن البيون الثري، فاتك^(٢)!، هنا أيضاً قد أعقمت جنتك، ناسياً أننا، حين يغدق علينا الحظ والثراء الأهوجان كنوزهما، لا نستطيع أن ننعم بالسلام السعيد الوديع إلا إذا تجنبنا مغريات الشهوة الغدرة.

-٢٣-

وهنا أنشأت تضع تصميمات اللهو، تحت ريد هذا الجبل المتشع دوماً بالجمال. ولكن قصرك اليوم قد عاد خالياً وحيداً مثلك، وكأنه مناخ غير مبارك فيه للإنسان: فالأشواك الكثيفة لا تكاد تسمح ببلوغ مخادعك المهجورة، أو أبوابك المفتوحة دائماً. وفي هذا عبرة جديدة لقلب متعظ: ما أشد بطلان اللذات على الأرض، ما دام الزمان الذي لا يرحم يغوص بها في سيله الجارف!

(١) "من المعروف أنه في خريف سنة ١٨٠٩ حدثت اغتياالات في شوارع لشبونة وما حولها؛ ولم يكن الضحايا من الوطنيين وحدهم، بل إن بعضاً من الإنجليز قد اغتيلوا أيضاً. وبدلاً من القضاء على هذه الجرائم نصح لنا بعدم الاشتراك في المنازعات التي نشهدها، حتى لو رأينا أحداً من أبناء وطننا يهاجم. وقد حدث ذات مرة وأنا ذاهب إلى المسرح أنني أوقفت في الساعة الثانية مساءً. وهي ساعة تغص فيها الشوارع بالناس، وكنا أمام دكان مفتوح، وكنا اثنين في العربة. ولحسن الحظ كان معنا سلاحنا؛ وإلا كنا نحن موضوعاً لقصة، بدلاً من أن نكون رواية لها. وليس أمر الاغتياال قاصراً على البرتغال؛ بل في صقلية ومالطة يُحْتَقُّ الإنجليز إبان الليل، ولا يُعاقب أحد من الصقليين أو المالطيين" (تعلية بيرن)

(٢) يشير هنا إلى قصة "فاتك" لوليم بكنفورد التي كتبها في الأصل بالفرنسية ثم ترجمت إلى الإنجليزية. وهي قصة شرقية قصيرة، يصفها بيرن في تعليقه الأخيرة على "جياور" فيقول: "إنها تفوق كل تقليداتها في أوروبا، بما فيها من دقة في الأسلوب وجمال في الوصف، وقوة في الخيال".

-٢٤-

تأمل البهو الذي اجتمع فيه الزعماء منذ حين! أواه! إنه قبة تقذى بها عين كل بريطاني^(١)! فمن هذا العدو القزم السافر باستمرار، الذي يحمل تاج الحماقه؟ إنه يجلس هناك متدثراً بثوب من البرشمان وإلى جواره قد علق خاتم وسجل أسود كتب عليه أسماء فرسان معروفين، وتوقيعات عديدة يشير إليها هذا القزم الماكر ضاحكاً ساخراً منها بكل قواه.

-٢٥-

"العهد" هو الجنى القزم الذي سخر من الفرسان المحتمين في قصر مريلفا: فقد استطاع أن يسلبهم عقولهم (لو كانت لهم حقاً عقول)، وأن يحيل السرور الطافح للأمة إلى حزن وحداد. فجدلت الحماقه تاج الظافر، وكسبت السياسة ما خسر السلاح. فليت الغار يزكو عبثاً لرؤسائنا هؤلاء! وويل للظافرين لا للمقهورين، ما دام النصر قد أهين على سواحل البرتغال.

-٢٦-

ومنذ اجتماع هذا المؤتمر العسكري، تفزع بريطانيا من اسمك، أي سنتر! والذي بيدهم مقاليد الأمور صاروا يقشعرون فزعاً وتشرق ألوانهم، لو كان في نفوسهم موضع الحياة. ماذا سيسمي أبناءنا هذا العمل الشائن لمحملٍ بالعار؟ أو لن ينظروا هم وأبناء أحفاننا إلى هؤلاء القواد المحرومين من كل أمجادهم نظرة احتقار وازدراء؟ إن الأعداء المهزومين في المعركة قد صاروا منتصرين في هذا القصر، الذي أصبحنا فيه هدفاً لسخرية الأمم في مستقبل الزمان.

-٢٧-

تلك كانت خواطر اتشيلد هارولد، وهو يسير خلال الجبال متأملاً في وحدة. وإن جمال هذه البقاع ليبعث فيه نشوة السحر؛ ولكن ها هو ذا يفكر في الفرار منها، فإنه قلب في قلقه من السنونو المحلق في الهواء. وها هو ذا فريسة لخواطر حزينة فإن (١) وقمت اتفاقية سنتر في قصر مركز مريلفا. فبعد أن هزم جينو قائد الفرنسيين في فميرا على يد ولسلي، حاول الفرنسيون أن يحصلوا على شروط معتدلة من خلفه سير هيو الرميل، فوقعوا معه اتفاقية سنتر هذه التي أثارت ثائرة الانجليز، لأن فيها تساهلاً مع الفرنسيين.

هارولد لم يفرض الصمت على التأمل البارد: بل لآمه صوت باطن على تبديد شبابه في حماقات شائنة. ولكنه حينما أراد تأمل الحقيقة، غشّت على مقلتيه المخضلتين بالدمع سحابة سوداء.

-٢٨-

إلى الجواد! إلى الجواد! وما هو ذا يفارق إلى الأبد بقعة سلام^(١)، مع أنها بلسم لروحه: فقد استيقظ من أحلامه، ولكن هذا ليس من أجل أن ينشد الشهوة أو الكأس. إنه يفر، غير عالم بعد أي مأوى سيلجأ إليه كيما يستريح من أسفاره. ولا بد له من المرور بآلاف المناظر قبل أن يشبع نهمه للترحال، أو قبل أن يسود الهدوء في صدره، أو قبل أن تحنّكه التجارب.

-٢٩-

ولكن مفرأً^(٢) تستحق منه أن يتوقف قليلاً، هنا حيث أقامت قديماً ملكاً البرتغال البائسة^(٣)، وحيث اختلقت الكنيسة بالبلاط، وتبدول القداس والرقص المعريد، والتحم جمع شاذ من الرهبان والأعيان. ولكن فاجرة بابل^(٤) قد أقامت هنا قصراً بلغ من الفخامة حداً جعل الناس ينسون الدم الذي أهدرتة، ويركعون أمامها، أمام تلك التي عرفت كيف تُضفي على جرائمها طلاء من الذهب.

-٣٠-

سرح انشيلد هارولد طرّفه المجذوب في أكناف هذه الأودية الخصبة والروابي الحاملة. أه! لماذا هذه البقاع الفاتنة لا تؤوي إلا شعباً من العبيد! للجبناء الغارقين في البطالة

(١) بعد أن أقام بيرن عشرة أيام في لشبونة، أرسل أمتعه إلى جبل طارق عن طريق البحر هي وبعض الخدم؛ وركب هو ورفاقه خيولهم متحين ناحية اشبيلية.

(٢) مقر مدينة على مسافة ٣٠ ميلاً شمال غربي لشبونة؛ وتحتوي على قصر ودير وكنيسة فخمة. "والأرغناط الستة التي رأيتها في هذه الكنيسة هي أجمل ما رأيت. ولكن لم يكن في استطاعتنا سماعها؛ إنما أكدنا أن أصواتها جديرة بجمالها وفخامتها. ومفرأً تدعى اسكورريال البرتغال (من عليقة بيرن).

(٣) كانت قد أصيبت حينئذ بالجنون.

(٤) الإشارة هنا إلى "نبوءة يوحنا"، أصحاح ١٧: ٥ "على جبينها كتب اسم سره؛ بابل العظيمة، أم الزانيات وينبوع الفسق في الأرض". والكلام هنا عن روما الوثنية.

والرخاوة أن ينعتوا الرحلات بأنها حماقة، ولهم أن يدهشوا من أن ثمة نفراً جسوراً يغادر الحشايا الناعمة كيما يجابه المتاعب ويواجه مشاق الأسفار الطوال! إن في هواء الجبال لعذوية ورقة وجمالاً لن يعرفها مطلقاً الكسلُ الوسنان.

-٣١-

ذرى الجبال يعلوها البياض وتفنى في الأفق البعيد. والأدواء الأقل خصوبة، ولكنها أشد بهجة، تتراعى أمام اتشيلد هارولد: إن هذه السهول الشاسعة لا يحيطُ بها إلا الأتق وعلى مدى الأبصار، تدرك العين مملكة الأسباب حيث يقود الرعاة هذه القطعان المشهورة بصوفها الفاخر. لكن يجب على الراعي اليوم أن يتسلح كيما يستطيع حماية حملاته. إن عدواً مخيفاً قد اجتاح اسبانيا: فعلى جميع سكانها أن يناضلوا، أو يتحملوا أهوال الاستبداد.

-٣٢-

في المنطقة التي تلتقي فيها البرتغال بأختها (اسبانيا)، أتعرف أي حدود تفصل بين المملكتين المتنافستين؟ وهل فصل التاج بتيابه الجارف الهائل قبل أن تنفصل هاتان المملكتان الغيوران؟ أو هل هي سلسلة جبال سيرا مورينا المتكبرة التي تشمخ بصخورها العاتية؟ أم هو حد أقامته الصناعة، كسور الصين العظيم؟ كلا! إنه ليس سوراً أقامه الناس، ولا نهراً واسعاً عميقاً، ولا صخوراً مريعة، ولا جبلاً شامخة كتلك التي تفصل شبه الجزيرة عن بلاد الغال.

-٣٣-

كلا؛ إنه نهر صغير ذو موج فضي يكاد أن لا يحمل اسماً، وشطئانه الزاهرة تنتسب إلى كلتا المملكتين. هنا ينحني الراعي على عصاه متأملاً في فراغه الأمواج الهادئة وهي تجري بين الشعبين المتعادين. وأقل الفلاحين الاسبان له من العزة والكبرياء ما لأنبيل الدوقات، فيعرف الفارق بينه وبين العبد من أهل البرتغال، هؤلاء الذين هم أشد العبيد وضاعة ومسكنة^(١).

(١) في سنة ١٨١٢ أضاف بيرن هذه الحاقية = لقد وصفتُ البرتغاليين كما رأيتهم آنذاك . ولكنهم تقدموا منذ ذلك الحين ، على الأقل من ناحية الشجاعة . فالأعمال الأخيرة التي قام بها لورد ولنجت قد محت مخازي سنترا . أجل لقد فعل المعجزات ، فلعله قد غير من أخلاق هذه الأمة ، وواءم بين الحرفات المتنايزة ، وقهر عدواً لم ينسحب مطلقاً أمام آخرين .

-٣٤-

وغير بعيد عن هذا الحد الواهي، يدير نهر جواديانا الصاحب قوته في أمواج داكنة مزمزماً واسعاً، كما تغنت به من قبل أناشيد الأقدمين. وعلى شاطئيه احتشدت جيوش المغاربة والفرسان وعليهم دروعهم اللامعة. وهنا توقف أسرع الغزاة^(١) وسقط الأبطال، وانحدرت عمامة المسلم وخوذة النصراني في النهر المدمى الطافح بالجثث الطافية.

-٣٥-

إيه اسبانيا العزيزة ! أيها البلد الحالم المشهور! أين اللواء الذي حمله بيلاجيو، حينما دعا والد كافا^(٢) الخائن عصبة المحاربين الذين ضرجوا بدماء القوط جداول جبالك؟ أين هذه البنود الدامية التي نشرت فوق رؤوس أبنائك، والتي توجهها النصر فطردوا المهاجمين المعتدين حتى سواحلهم السود؟ لقد أحاطت بالصليب هالة من الأرجوان؛ وعلا الهلال شحوب، حينما رددت أصداً أفريقيا صرخات الأمهات الأليمة في مراکش.

-٣٦-

إن الملاحم الشعبية لتروي بعدُ هذه الأعمال المجيدة. وهذا، وبيا للأسف! أجمل مصير يلقاه المحارب: فحين يتهدم المرمر، وتفقد سجلات التاريخ، تخذل أناشيد الرعاة ذكرى على وشك أن تموت. أيها الرجل المتكبر التياء، تجاسر على تأمل نفسك: انظر كيف يبلغ الأبطال مسامع الخلف في أغنية. أو تأمل أن تخذل الكتب والأعمدة

(١) هو نابليون .

(٢) كافا "هي ابنة الكونت جوليان ، هيلانة اسبانيا . لقد حافظ بيلاجيو على استقلاله معتمداً بجيل استوريا ، وبعد بضعة قرون رأت ذرية رفاقه مجهوداته وقد تكلفت بغزو غرناطة" (تعليق برن) .

والإشارة هنا إلى كيفية فتح العرب لإسبانيا ، بأن استنجد الكونت جوليان بالعرب لكي ينصروه على رودريك الذي هتك عرض ابنته فلورنده ؛ إذ ما كاد يسمع جوليان بالعار الذي لحق ابنته بينما كان يدافع عن سبته ضد العرب ، حتى تحالف مع موسى بن نصير وعاونوه على غزو العرب لشبه الجزيرة الإسبانية .

والتماثيل ذكراك وأمجادك؟ وهل تحسب أنك لا بد واثق بلسان الرواية البسيط، حينما يرقد معك في قبرك متملقوك، ولا يفيك التاريخ مالك من حقوق؟

-٣٧-

هبوا إذن يا أبناء أسبانيا! ألا فلتهبوا! إلى الأمام! أصبحوا إلى الفروسية، إلهتكم القديمة، وهي تستنفركم. إنها لم تعد تحرك بعد، كما كانت تفعل من قبل، رمحها العطشان، وإن نبضتها لم تعد مزينة بريشها القرمزي في الهواء: إنها اليوم تطير في دخان صواعقكم الملتهبة، وتحدث بلغة الرعد في زئير هذه الآلة. وهي تصيح في كل زمجرة قائلة: "هبوا! هبوا!". فهل صوتها أشد ضعفاً منه حينما كانت أناشيدها الحربية تتردد على سواحل الأندلس؟

-٣٨-

أصغ! أولاً تسمع صوت هذه السنابك بنغمتها المخيفة وقعقة السلاح على المروج؟ أولاً ترى هؤلاء الذين يردبهم حد الظبابة الدامية؟ ألا تنفر كيما تنقذ إخوانك قبل أن يسقطوا صرعى للطغاة عبيداً لهم؟ إن نيران الموت والقنابل الملتهبة تتطاير من كل مكان. وإن كل طلقة لتتردد من صخرة إلى صخرة منبثة بأن آفاً قد فارقوا الحياة. أه! إن الموت ليركب متن الريح الشرقية المحملة بالكبريت، وإن "المعركة" الحمراء لتطبع قدميها، والأمم تنتابها هذه الصدمة العاتية.

-٣٩-

انظر إلى هذا المارد الجبار (إله الحرب) قائماً فوق الجبل؛ إن ذوائبه مضرجة بالدم القاني في الشمس المتوهجة؛ وفي يديه سهمان الموت ترف في قوة واختيال؛ وعينه تذيب كل ما تقع عليه، وتدور في غير انقطاع، حيناً ثابتة، وحيناً ترمي بالشرر. وعند رجليه قد جلس "الخراب" كيما يسجل ما يحدث من ويلات: فإن ثلاث دول قوية ستلتاقى هذا الصباح^(١) كيما تصب على مذبحه الدم الذي يتبينه ويراه أعذب ما يريد.

(١) في معركة تلفيرا التي التقت فيها جيوش ولسلي الإنجليزية بالجيوش الفرنسية. فقد قامت الجيوش الفرنسية بهجوم هائل على مواقع الإنجليز في ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٩، ولكنه صد. وكانت معركة مخيفة قتل فيها سبعة آلاف من الإنجليز. ولم يشهد بيرون المعركة، مع أن رحلته من لشبونة إلى اشبيلية تقع في نفس الشهر، ولكنه لم يكن قريباً كل القرب من ميدانها.

-٤٠-

يا للسماء! ما أجمل هذا المنظر عند من ليس لهم فيهم أخ ولا صديق، وكم يلذ له أن يتأمل ألويتهم المختلفة الألوان، وأسلحتهم البراقة في نور النهار! يا لهم من كلاب حرب هبت من مغارتها وأحدت أنيابها، وهي تصيح من أجل فريستها! كلهم يشارك في الصيد، وقليلون من يظفرون بحظهم من الانتصار؛ وسيضم القبر خيرتهم، ولا يكاد إله المذابح أن يستطيع إحصاء قتلاهم من فرط سروره.

-٤١-

ثلاثة جحافل تحتشد لتقديم هذه الضحايا الدامية؛ ثلاثة ألسنة ترسل أغرب الصيحات إلى أعلى السماء؛ وثلاثة ألوية زاهية ترفرف تحت قبة السماء الشاحبة؛ وتتعالى صيحات فرنسا وأسبانيا وأنجلترا هاتفة كل بالانتصار!

لقد اجتمع العدو والفريسة، والحليفة العزيزة التي تحارب من أجل الكل، ولكن عبثاً- كل هؤلاء قد احتشد جمعهم في سهل تلفيرا، وكأن الموت لم يكن ليأخذهم في مساكنهم- كيما يكونوا غذاءً لجوارح الطير، وكيما يخصبوا الحقول التي يصطرون من أجل الاستيلاء عليها.

-٤٢-

فرائس الطمع هؤلاء - إنهم هنا سيصيرون فرائس للدود! أجل... إن الشرف سيجلل المرج المشتتل على رفاتهم! يا له من دَجَلٍ عجيب! إنني لا أرى في هؤلاء غير آلات بائسة حقيرة يضحي الطغاة^(١) بالآلاف منها، حينما يتجاسرون على أن يعبدوا بالقلوب الإنسانية طريقهم - إلى ماذا؟ - إلى حلم فحسب. هل يستطيع الطغاة أن يحيطوا بما يدين لهم بالولاء؟ أو هل يستطيعون أن يدعوا حقاً أن بقعة من الأرض لهم، غير تلك التي أفعموها بالعظام فوق العظام؟

(١) يشير هنا إلى نابليون؛ ولعله يشير أيضاً إلى وليم بت، ورئيس وزراء إنجلترا حينئذ.

-٤٣-

إيه يا ألبويرا^(١) ! أي ميدان الأحزان المشهور ! حينما دفع الرحالة (اتشيلد هارولد) بجواد ، فوق سهلك المنبسط ، من كان يظن أو يتنبأ أنك ستصير عما قليل مسرحاً يتلاقى فيه المتعادون كيما يتفاخروا ويسفحوا دماءهم؟ سلام على أرواح المقتولين! ألا ليت الدموع المذروفة على هؤلاء المحاربين تخلد ذكرى أمجادهم! إن اسمك يا ألبويرا سيظل تردده الجموع المشدوهة، وسيظل يرفُّ في أغانٍ زائلة، حتى تقع ضحايا أخرى في ميادين أخرى.

-٤٤-

كفى هذا عن عبيد الحروب! دعهم يقامرون بحياتهم، ويزهقون أرواحهم في سبيل الشهرة: الشهرة التي لا تكاد تقدر على إحياء بقاياهم في التراب، ولو أن الآلاف يسقطون في حومة الوغى كيما يرفعوا اسم واحد فحسب. ولكن من القسوة أن نزرع هؤلاء الذين سقطوا من أجل خير وطنهم، وأن نلومهم على غايتهم النبيلة، وهم يموتون لأن الحياة كانت ستصبح عاراً بالنسبة إليهم، لو أنهم قتلوا في ثورة داخلية، أو سلكوا سبيل النهب الوحشي الضيق.

-٤٥-

ثم تابع هارولد طريقه المتوحدة مهرولاً بشدة نحو البقاع إلى أنفتَ فيها أشبيلية الخضوع للغزاة^(٢). إنها لا تزال حرة، هذه المدينة التي رام هؤلاء أن يجعلوا منها فريسة لهم طيبة. ولكن الغزو سرعان ما سيشق طريقه إليها، وسرعان ما سيجلج قصورها الناصعة بآثاره الجارفة الهدامة. ساعة لا مفر منها ! عيثاً يحاول المرء الكفاح ضد القدر، حينما يأتي الخراب فيحل هو وأبناءؤه الجائعون مكاناً آمناً. ولو كان في الوسع تجنب أحكامه، لما حل الدمار باليون^(٣) وصور، ولانتصرت الفضيلة على كل العقبات، ولدالت دولة الاغتيال.

(١) وقعت هذه المعركة في مايو سنة ١٨١١ ؛ ولهذا فإن هذه الفقرة لا تنتسب إلى الصيغة الأولى لهذه القصيدة ، إنما أضيفت إليها بعد عودة بيرن إلى إنجلترا .

(٢) لم يدخل الفرنسيون أشبيلية إلا بعد زيارة بيرن لها بستة أشهر ، فتحققت حينئذ نبوءته .

(٣) اليون ، قلعة في طروادة بناها إlios ، أحد ملوك طروادة ، ومن هنا سميت بهذا الاسم ؛ ولكنها تستعمل غالباً للدلالة على طروادة نفسها ، كما هنا . ويظن بعض المؤرخين أن المدينة كانت تسمى إليون ، وأن المنطقة المجاورة هي التي كانت تسمى طروادة .

أما صور فمدينة قديمة من مدن الفينيقيين ، بناها أهل صيدا ؛ وقد حافظت على استقلالها حتى زمن الاسكندر الأكبر الذي استولى عليها عتوة بعد حصار دام سبعة أشهر في ٢٠ أغسطس سنة ٣٣٢ ق م .

-٤٦-

ولكن أهلها غير شاعرين بهذا المصير، فتراهم في الأعياد والأغاني والملاهي غارقين. و الساعات تمضي وسط ألوان من العريضة غريبة. إنهم لا تدمى قلوبهم لجراح وطنهم. فلا يسمع صوت نغير الحرب، بل لحن قيثارة الأحبة. هنا المجون قد استعيد مريديه؛ والدعارة ذات العينين الفتيتين تتجول جولاتها الليلة؛ والشهوة تسود وتبسطن سلطانها حتى نهاية أسوار أشيلية المتداعية، وفي رفقتها جرائم العواصم السرية.

-٤٧-

على خلاف هذا، الحال في الريف؛ فرجل القرية يختفي في حمى أمين هو وحبيبته، ويخشى أن يمد طرفه الباكي إلى بعيد، خوفاً من أن يرى كرومه وقد خربت أو دمرت من فعل نيران الأعادي. آه! لم يعد الوقت وقت رقص في ضوء نجمة المساء، رقص "الفندنجو" ^(١) بمسيرة الصنح المرح. آه، أيها السلاطين، لو أنكم تستطيعون تذوق اللهو الذي تفسدونه، إذن لما ذهبتم وراء المجد تكدون في تحصيله، وإذن لما عكر صوت الطبل الأصحل القبيح صفو النوم، ولنعم الإنسان بالسعادة والسلام.

-٤٨-

بماذا يتغنى المكارى الشديدة الأسر؟ أيتغنى بالحب والمغامرات أو العبادة، كيما يرفه عن نفسه في طريقه الشاق الطويل، على صوت الجلجل المعلقة في رقبة بغلة؟ كلا، إنه لا يتغنى بعد إلا بهذه الصيحة "يحيا الملك" ^(٢)، ثم يتوقف عن الصياح كيما يلعن جودواي، والملك القديم شارل، واليوم الذي رأت فيه ملكة أسبانيا الفتى ذا العيون السود، ونشأت الخيانة الملتخعة الوجه بالدم من غرامها الفاجر.

(١) رقصة أسبانية بطينة الخطوات من ٦ إلى ٨، تُرقص بمسيرة صنجات؛ ويظهر أنها من أصل مغربي عربي.
(٢) "يحيا الملك فرناندو"! هذا هو القرار الذي يتكرر في معظم الأغاني الوطنية في أسبانيا؛ وهي أناشيد تكاد كلها أن تكون موجّهة ضد الملك القديم شارل، والملكة زوجته وأمير السلام. وأنا قد سمعت منها كثيراً، وكانت عذبة الألحان. أما جودواي، أمير السلام، فقد ولد في باداخوث على حدود البرتغال؛ وكان في البدء في الحرس، فلقت نظر الملكة، صار دوق القوديا، الخ. والإسبان يعززون خراب وطنهم إلى جودواي هذا" (بيرن).

-٤٩-

في هذا السهل المنبسط الفسيح الذي تتوج الصخور مشارفه، هنا حيث أقام المسلمون أبراجهم، شَقَّقَتْ سُنَابِك الخيل الأرض الدامية؛ والمرج الكابي من فعل النار يشهد بأن العدو قد حل إقليم الأندلس: فهذا هنا قد نصب معسكره، وأذكى نيران الحراسة، وأقام الجحافل والطلائع، وها هنا عصف الفلاح الشجاع بغار المراقب الكامن في مَرَبَاتِه؛ وهو لا يزال ينظر إلى هذا المكان بأنفة وشموخ، ويشير إلى هذه الصخور التي كثيراً ما فقدت واستردت.

-٥٠-

كل من تلقى خلال الطرقات يحمل في قبعته شارة^(١) قرمزية اللون، تنبئك إذا كان صاحبها عدواً أو صديقاً. وويل لمن يجرؤ على الظهور أمام الناس دون هذا الرمز الصادق على الخلاص؛ إذن سرعان ما يشحذ الخنجر، وتنهال عليه الطعنات. ولو أن الخناجر المخفاة تحت المعاطف استطاعت أن تفل السيوف أو تبدد دخان المدافع، إذن لكان العدو الغالي (فرنسا) قد طُرِدَ شر طردة.

-٥١-

وعلى مدى النظر ترى كل صخرة من صخور مورينا تحمل ثلة من المدافع؛ وإلى أقصى مدى يبلغه البصر، تشاهد القنابل والطرقات المقطوعة، والحواجز الشائكة، والشقوق المغمورة بالمياه، والكتائب المدججة السلاح، والحراسة الساهرة باستمرار ومستودعات السلاح والدخيرة وقد شقت في الصخر، والجواد المسرج تحت ظل تعريشة، والقذائف المتراكمة على هيئة أهرام^(٢)؛ والنيران الموقدة على الدوام تنبئ أنهم في انتظار الأعداء.

-٥٢-

و هذا الذي نظرة منه كافية كيما تهوي بالملوك عن عروشها؛ قد تلبث لحظة قبل أن يرفع صولجانه؛ وعمّا قليل ستستطيع فيآلقه أن تشق لنفسها طريقاً خلال هذه

(١) الشارة الحمراء التي كتب عليها اسم الملك فرنندو .

(٢) "كل من رأوا ثلة مدافع (بطارية) يذكرون أن القنابل تنظم على هيئة هرم . وقد كانت سيرامورينا مغطاة باستحكامات في كل المضائق والشعاب التي مررت بها في طريقي إلى أشيلية ." (تعليقة بيرن) .

العقيات الواهية؛ وسيضطر الغرب إلى المثول أمام داهية العالم. أه! أي أسبانيا! كم سيكون كئيباً ذلك اليوم المخيف الذي سترين فيه أبناءك يساقطون جماعات في هاوية الفناء، بينما تبسط حدأة الغال أجنحتها المربعة.

-٥٣-

أو يجب أن يسقطوا صرعى، هؤلاء الشبان الجسورون الباهرون والجلال من أجل أن يشبعوا نهمة طاغية منتفخ بشهوة السيادة والسلطان؟ أليس ثمة طريق بين العبودية والقبر؟ بين قيام السلب والنهب وبين سقوط أسبانيا؟ وهل "القوة" التي يعبدها الناس تأمر بإفناءهم، ولا ترعى توسل المستغيث؟ وهل كان ما تفعله القيمة العليا والشجاعة العنيدة يذهب أدراج الرياح؟ وهل تذهب عبثاً حكمة الحكماء، والغيرة الوطنية ومهارة الكبار، وحماسة الصغار، وقلب الرجولة الفولاذي؟

-٥٤-

أمن أجل هذا علقت الفتاة الأسبانية، بعد أن استيقظت، قيثارها المرتخية الأوتار على شجرة الصفصاف؛ ونسيت جنسها، فحملت خنجراً وأنشدت أنشودة عالية، وقذفت بنفسها في أتون الحرب؟ وهذه التي كانت تمتلئ رعباً من مجرد رؤية جرح، وتستشعر الروح من نعيب اليوم، أصبحت اليوم لا تكاد تتأثر من رؤية لمعان السيوف واصطراع حراب البنادق، وصارت تطأ بقدميها الجنود المحتضرين، وتسير بخطا مينرفا حيث يرتاع إله الحرب نفسه من المسير.

-٥٥-

وأنتم يا من ستعجبون حينما تستمعون إلى قصتها^(١)، لو عرفتموها في ساعاتها العذبة، ولاحظتم سواد عينها الذي يفوق سواد نقابها الفاحم، ولو سمعتم أنغامها العذبة الحية تتجاوب بها خمائل الغرام، ورأيتم غدائرها الطوال التي تتحدى

(١) الإشارة هنا إلى فتاة سرقسطه؛ وهي فتاة جميلة في الحادية والعشرين؛ لما رأت جيشها سقط في حومة القتال، أخذت مكانه عند المدفع، وكان ذلك في الحصار الذي أقيم سنة ١٨٠٨، ثم رفع؛ ولكن الفرنسيين أعادوا الكرة بقوة أكبر، حتى استولوا على سرقسطه في سنة ١٨٠٩. ويبرن يقول في التعليق: "فتاة سرقسطه التي رفعتها شجاعتها إلى أعلى مراتب البطولة. وحينما كان المؤلف في أشبيلية، كانت تمشي يوماً على شاطئ البرادو، مزينة بالأوسمة والميداليات التي أهدتها الحوتتا إليها".

قوة الفنان، وقوامها السحري وجاذبيتها التي تفوق كل أنوثة، لو عرفتموها في كل تلك الأحوال، هل كنتم تظنون أن أبراج سرقسطة سترها يوماً تبسم عند اقتراب الخطر وفي وجهه الرهيب، وتتأمر على صفوف المحاربين، وتقود قنص المجد المرعب؟

-٥٦-

حبيبها يسقط صريعاً- فلا تذرف دمعة ليس هذا أوانها؛ رئيسها يقتل- فتشغل مكانه المليء بالأخطار؛ رفاقها يولون الأدبار- فتعترض سبيل فرارهم الحائر الرعديد؛ العدو ينسحب- فتندفع على رأس الظافرين. فمن يستطيع خيراً منها أن يهدئ نائفة شبح الحبيب؟ من ذا يستطيع مثلها أن ينتقم لسقوط القائد؟ من يقدر مثلها أن يبعث الأمل في نفوس البائسين؟ من ذا الذي طارد العدو الهارب (فرنسا) الذي صرعه يد امرأة، وأجأه إلى سور، وانهاه عليه عنده بأعنف الضربات؟

-٥٧-

ولكن فتيات أسبانيا لسن جنساً من الأمزونات^(١) ولكنهن خلقن لكل أنواع الحب الساحرة: فعلى الرغم من أنهن ينافسن أبناء أسبانيا في حمل السلاح وخوض غمار الوغى، ويتخذن مكانهن وسط صفوف الكتائب المسلحة، فإن حماستهن الحربية ليست إلا عنف الحمامة الحنون التي تنقر اليد التي تمتد إلى رفيقها. إنهن أسمى من فتيات بقية البلدان بما فيهن من رقة وشجاعة معاً. بينما الأخريات لسن مشهورات إلا بشررتهن الجالبة للأوصاب. إن عقول فتيات أسبانيا أعظم نبلاً، وسحرهن أعظم قدراً ونفوذاً

-٥٨-

إن النونة التي طبعها بنان الحب^(٢) على خدها الأسيل لتكشف عن نعومة الذقن

(١) الأمزونات جنس من النسوة المشهورات، كن يسكنن قرب نهر ثرمودون في كابودوكيا، وكن يقضين حياتهن كلها في حروب وقمرينات رياضية عسكرية؛ وكن لا يتصلن بالرجال؛ ولكنهن كن، من أجل الذرية وحدها، يزرن سكان المناطق المجاورة لبضعة أيام قلائل، وما يلدن من ذكور كن يبعثن بهم إلى آباتهم، وبعضهم يقول إنهم كانوا يقتلون بمجرد الميلاد؛ أما الإناث فسكن يريرين في المنزل خير تربية. ولهن منامرات حربية عظيمة في آسيا الصغرى مع اليونان وبقية الشعوب حتى كانت لهن امبراطورية ضخمة. وبين مدناً عظيمة منها أزمير ومغنسيا وأفسوس.

(٢) كتب إلى أمه يقول: "إن الشمع السود الطوال، والعيون السود الفاترة اللعظ، ولونا زيتونيا ناصعاً، وأشكالاً كلها رشاقة في الحركات لا يستطيع ادراكها الإنجليز الذين تعودوا المظهر الناعم الفاتر لبيئات وطنهم، ثم كل هذه الهيات الطبيعية التي زاد من جمالها أروع الزينة وأعظمها مآء. كل هذا يجعل جمال الفتاة الإسبانية فيه إغراء لا يقاوم".

التي تحمل شفاها تشتاق قبلاتها لمغادرة عشها ، وتأمر الحبيب أن يكون شجاعاً مقداماً حتى يكون جديراً بها . يا لوحشية جمال نظراتها! عبثاً حاولت الشمس أن تسلب بشرتها بضاضتها ، وخدها حرارته وهو يتوهج بلطف من مسها الغرامي . فمن ذا ينشد بعد هذا غادات الشمال الشاحبات؟ كم تتبدى صورهن شاحبة إلى جوارهن ! وكم يتراءين واهنات ناحلات ذابلات!

-٥٩-

وأنت أيتها الأجواء التي لذ للشعراء التغني بها! أنت، يا حريم البلاد! أنت يا من فيك أضرب الآن على قيثارتي محيياً من بعيد هذا الجمال الذي لا يستطيع انكاره جاحد غير مكتوث . وهذه الحوريات، اللاتي لا تكادون تسمحون لهن بتنسم الهواء الحر الطليق مخافة أن يطير إليهن الحب على أجنحة الرياح، هل يمكن أن يقارن بفتيات أسبانيا ذوات العيون السود؟ ألا فلتعترفوا بأن هناك (في أسبانيا) الجنة التي وعد بها نبيكم الحكيم، ففيها الحوريات ذوات العيون السود اللاتي يشبهن الملائكة.

-٦٠-

وأنت يا جبل^(١) البرناس، يا من أراه مائلاً أمامي الآن، لا في أطراف الخيال ورؤيا الأحلام، ولا في المناظر الخلابة التي تزورها قصيدة شاعر، ولكنني أراك بكل جلالك محلقاً تجللك الثلوج في سماء وطنك، وعليك فخامة وحشية وروعة جبلية! فهل من عجب إذن في أن أحاول الآن الغناء؟ إن أشد حجاجك تواضعاً لا يستطيع أن يمر بك دون أن يهز أوتاره كيما يناغي أصداءك، على الرغم من أنه لم تعد ثمة موسٌ واحدة ترفرف بأجنحتها فوق أعاليك.

(١) هذه الفقرة التالية قد ألفت في كاستري (دلف) عند حضيض جبل البرناس الذي يحمل اليوم اسم لياكورا . "فبينما كنت أصدع البرناس لزيارة ينبوع دلف (كاستري) في سنة ١٨٠٩ ، رأيت سرباً من اثني عشر نسرأ (ويزعم هوبهوس أنها كانت حداة) فتفألت بها خيراً . وفي المساء أنشأت الأسمار الموجهة إلى البرناس في اتشيلد هارولد ، فرؤية الطير جعلتني أمل أن يتقبل أبولون صلواتي . ذلك أنني قد ذاع عني أنني شاعر ، في الفترة ما بين الثميرين والثلاثين من عمري ؛ فهل يستمر هذا ؟ تلك مسألة أخرى . ولكنني قمت بحجة إلى الإله (أبولون) وإلى مقامه ، ولاقاراي بما أسدى إلي من خير حتى اليوم ، أضع مستقبلي بين يديه كما وضعت ماضي" (بيرون ، "اليوميات" ، سنة ١٨٢١) .

كم ليلة طوّفتَ في أحلامي ! إن من يجهل اسمك الماجد، يجهل أسمى حكمة الإنسان. وهأنذا أراك الآن، ولكن، ويا أسفاه! لا أستطيع عبادتك و لا الصلاة لك إلا بنعمات ضعيفة عاجزة حتى امتلأت نفسي خجلاً. إنني حين أذكر عبادك الأقدمين، أقشعر وأرتعد، ولا أقوى على الركوع أمامك؛ فلا أقدر على رفع صوتي، ولا أتاسر عبثاً على التحليق، إنما أظل أهدق تحت أسجافك من السحاب، يغمرني سرور صامت لأنني أرى نفسي أخيراً ماثلاً بين يديك!

إنني في هذه اللحظة أعظم سعادة من كل هؤلاء الشعراء الممتازين الذين قيدهم القدر في أماكن بعيدة؛ فهل أرى هذه الأماكن المقدسة والمناظر الخالدة التي لم يستطع الآخرون أن يروها إلا في الأحلام والأمانى دون أن يبصروها عياناً- هل أراها دون أن تمتلئ نفسي تأثراً؟ فعلى الرغم من أن أبولون لم يعد يسكن بعد مغارته^(١)، وأنتك، يا من كنت من قبل مقام الموسا، لم تعد بعد غير قبرها،- فإن روحاً نورانية لطيفة لا تزال تشيع في هذا المقام، تزفر مع النسيم وتصمت في الكهوف وتنزلق بقدم زجاجي على^(٢) موجك الصادح.

سأعود إليك مرة أخرى. لقد قطعت نشيدي كيما أقدم إليك فروض عبادتي لك في هذا المقام. لقد نسيت أسبانيا بأرضها وأبنائها وفتياتها ومصيرها الحبيب إلى كل نفس حرة وقلب أبيض، وأرسلت إليك بالتحية أيها الرجل الرائع، مذرفاً عبيرة. فعوداً إلى موضوعي إذن؛ ولكن اسمح لي بأن أحمل معي من مقامك المقدس الطاهر ذكرى

(١) كان معبد أبولون في دلف يحتوي على مغارة . كانت تثبت منها أنجرة كبريتية منها كانت بينياً ، كاهنة أبولون في دلف ، تستمد وحيتها ؛ فقد كانت تجلس على كرسي ذي ثلاث أرجل فيه ثقب منه يأتي بخار تستنشقه الكاهنة ، فيصحبها الوحي ، وتلمع أعينها فجأة ، ويقف شعرها ، وتسري في كل بدنها قشعريرة هائلة ؛ وفي هذه الحالة تنطق عن وحي الإله أبولون .

(٢) يقصد به ينبوع كستاليا ، وهو ينبوع في جبل البرناس ، مقدس للموسا ؛ وكانت مياهه عذبة باردة ، لها القدرة على إلهام من يشربون منها وفيهم نار الشعر المقدسة . وقد نسبت الموسا إليها فلقبت باسم الكستاليات .

وتذكراً، فهبني ورقة من شجرة دَفْنِيهِ الخالدة^(١)، ولا تدع أمل من يدعوك يذهب
سدى.

-٦٤-

ولكنك أيها الجبل الرائع، لم تر في أجمل أيام اليونان جوقة تحف بقاعدتك الهائلة
لها مثل هذا الجمال؛ ولم تر دِلْفَ، أيام أن كانت كاهنتها تغني أغنيتها البيثاوية تحت
إلهام قدسي، زمرة من العذراوات أخلق بإلهام أنشودة الغرام من فتيات الأندلس اللاتي
نُشِّنَ في جو من اللذات العذبة الناعمة. آه! ألا ليتهن يسكن هذه الظلال الآمنة التي
لا تزال تحويها بلاد اليونان، على الرغم من أن المجد قد نفى منها.

-٦٥-

ما أبهج إشبيلة الباسلة ! دع وطنها يجد قوتها وثروتها وأصلها العتيق^(٢). غير
أن قادس، التي تقوم على الساحل البعيد، تستحق إطراء أعذب ولكنها أقل نبلاً. آه!
أيتها الرذيلة، يا لشدة إغراء سبلك الشهوانية...! من ذا يستطيع، حين يجري فيه دم
الشباب حاراً فائراً، أن يفر من فتنة نظراتك الساحرة؟ إنك تطاردينا على هيئة حية
ذات محيا كمحيا الملك، وتشكلين بأشكال عديدة وفقاً لأذواقنا معشر البشر.

-٦٦-

حينما سقطت بافوس صريعة للزمان- الزمان الملعون! الذي يجب أن تعنو له رقبة
الملكة التي يعنو لها العالم بأسره- فرت اللذات كيما تنشد جواً حاراً كهذا الجو؛
وفينوس التي لم تكن مخلصه يوماً لشيء، قد أخلصت للبحر الذي ولدت منه،
فتنازلت وسمحت بأن تختار قادس مقاماً لها، وأن تقيم عبادتها في المدينة ذات

(١) دَفْنِيهِ، هي ابنة النهر بنيوس أو النهر لادون (في أركاديا) من الإلهة ترا (الأرض) أحبها أبولون، وطارحها أحاديث الغرام، ففزعت
كل الفرع، وحاولت التخلص من مضايقاته بالفرار؛ فطاردها، فلما خشيت من أن يلحق بها، توسلت إلى الألهة سائلة مموتها،
فأحالوها إلى شجرة غار. فتوج أبولون هامته بأوراق شجرة الغار هذه، وأمر بأن تصبح هذه الشجرة مقدسة أبداً لعبادته.
(٢) أنشأ اشبيلية الغنيقيون؛ واستولى عليها قيصر؛ وكانت عاصمة القوط قبل طليطلة.

الأسوار البيض: إن أسرارها وطقوسها يُحتفل بها في كل المعابد، وتقدس لها المذابح التي يحرق لها فيها النار المقدسة على الدوام^(١).

-٦٧-

فمن مطلع الصباح حتى منتصف الليل، ومن الليل حتى اللحظة التي يضيء فيها الفجر الخجول المضرج الخد بالحمرة جماعات اللهب المرحة، تسمع المغامرات الغرامية الرقيقة، وتضفر أكاليل الورد، وتهيء الألعاب الجميلة الفراهات المتجددة. ألا فلتقولوا وداعاً لزمان طويل للذات الحكيم الهادئة، أنتم يا من أتيتم للإقامة بقادس. لا شيء يقطع جبل المسرات الصاخبة؛ وبدلاً من التقوى الحقيقية، يحرق البخور الديراني وحده، ويجتمع الحب والصلاة متناوبين السيادة في النهار.

-٦٨-

جاء يوم الراحة. فعلى أي نحو يُحتفل على هذا الساحل المسيحي باليوم المكرس للراحة التقيية؟ إنه مكرس لعيد جليل. أصغ! أولاً تسمع زئير ملك الغابة؛ إنه يحطم الرماح، ويجندل بقرونيه الإنسان والجواد، مستنشقاً نافجة الدم المنزوف، والجمع المحتشد يصفق مطالباً بالمزيد. إن هذه الجماعة المجنونة تصفق مسرورة برؤية الأشياء النابضة وقد تمزقت؛ والمرأة لا تشيح بوجهها ولا تغض طرفها عن هذا المنظر، بل ولا تتظاهر بالتألم له.

-٦٩-

هذا هو اليوم السابع، يوم العيد للإنسان. أي لندن! إنك تعرفين جيداً يوم الصلوات هذا! هنالك ينسى متاعب الأسبوع ساكنوك المزينون، وصناعك المتدثرون بأبهي ملابسهم هم ومعاونوهم؛ وعرباتك وشراكك من الوسكي؛ والعربات ذوات المقعد

(١) قادس، أي قادس العزيزة؛ إنها أبهج ما على الأرض. وإن جمال شوارعها ومنازلها لا يفوقه جمال ساكنيها. وإن حسناوات قادس، التي تشبه كوتيرا (وهي جزيرة على ساحل لاكونيا في البولوونيز، مقدسة خصوصاً للإلهة فينوس، فإن هذه قد انبثت من البحر بالقرب من شواطئها، فيما يزعم البعض؛ ولهذا أصبحت مشهورة باعتبارها مقام الجمال)، وتضم أجمل نساء أسبانيا، أقول إن حسناوات قادس من ساحرات لانكستر في وطنهن (تعليقة بيرن).

الواحد وجراراتك المتواضعة وهي تسير في المناطق المحيطة بك من مشارف وأرياض: إلى همستد وبرنتفورد وهرو^(١)، حتى يبلغ الإعياء بالجواد حداً لا تدور معه العجلات، فيبقى واقفاً في مكانه مثيراً سخرية من جانب المارة السائرين.

-٧٠-

ومراكب التامير تحمل حسناوات مزينات بالشرط الزاهية؛ وآخرون يفضلون السير في الطرقات؛ وفريق ثالث يصعد رابية رتشمند؛ وبعض يحلو له الذهاب إلى وير، وبعض آخر إلى منحدر هاجيت. فهل تسألين، يا ظلال بوئيتيا، عن العلة في هذا^(٢)؟ إنه من أجل عبادة القرن الجليل، المقبوض عليه بيد السر المقدسة، والذي يقسم باسمه المخيف الرجال والنساء على السواء، مسجلين أقسامهم بالشراب والرقص حتى الصباح^(٣).

-٧١-

لكل حماقاته؛ وحماقاتك لا تشبه حماقاتنا، أي قادس الجميلة، المنبثقة فوق البحر الأزرق القاتم؛ لا يكاد ناقوس الصباح يدق الساعة التاسعة، حتى يعد سكانك الأتقياء حبات سبحاتهم. إنهم يدعون العذراء (وأحسب أن العذراء الوحيدة إنما توجد هناك فحسب) كيما تخلصهم من ذنوب لا تقل في عددها عن المصلين لها. ومن هنا يهرعون إلى الملعب المزدهم، لا فرق في هذا بين الشباب والعجوز والكبير والحقير، كلهم يشارك في هذا اللهو الخطير.

-٧٢-

الملعب مفتوح والساحة الواسعة مهياة والآلاف المؤلفة جالسة أكواماً من حولها؛ وقبل أن يُسمع صوت النفير الأول، لا يبقى مكان خالياً لمن يأتي متأخراً. هنا قد

(١) ضاحية بالقرب من لندن؛ وقد أمضى بيرن في هرو - على - الجبل شرطاً من دراسته الأولية .

(٢) "كنت في طيبة حينما كتبت هذا؛ ولهذا كنت في خير مكان أستطيع فيه أن أضع هذا السؤال وأن أتلقي عنه الجواب؛ واني لا أعتبر طيبة هنا وطن بندار، ولكن أنظر إليها باعتبارها عاصمة بوئيتيا، التي اقترح فيها أول الغزو وفسر" (تعليقه بيرن) .

(٣) يوجد في حانات قرية هايجيت قرنان مقدسان، والغريب الذي يأتي هذه القرية لأول مرة يجبر على أن يحلف على هذه الشارة الرمزية هذا القسم؛ "أقسم ألا أعانق الخادمة إذا كنت أستطيع معانقة سيدتها؛ وبألا أضرب الجمعة الحفيرة إذا كنت أستطيع أن أضرب الجمعة الممتازة . . ." ويسبق هذا القسم براسم غريبة .

احتشد الدونات والكبراء، وخصوصاً السيدات البارعات في إرسال النظرات الغرامية الماكرة، وإن كن مع ذلك متأهبات لشفاء الجراح التي تحدثها نظراتهن: فلا يُقدَّرُ لامرئٍ أن يموت من هذا الاحتقار البارد الذي يشكوه غالباً الشعراء المجانين الذين يتغنون بقسوة سهام الغرام.

-٧٣-

أطرق الكل وصمتت الألسنة. وأربعة فرسان زينت هاماتهم بشريط ناصع البياض، وفي أرجلهم مهمازات ذهبية، وبأيديهم رماح خفيفة، ركبوا خيولاً وتهياًوا لهذه الأعمال الخطرة؛ وها هم يتقدمون في الساحة بانحناء رشيقة، وأوشحتهم الثمينة ترفرف في الرياح، وجيادهم تتواثب بلطف وبراءة. فإن برزوا اليوم في هذه اللعبة الخطرة، تهاوت عليهم صيحات الجمع الحاشدة ونظرات السيدات الفاتنة: فيالها من مكافأة جميلة على فعال ممتازة، مكافأة طالما تاق الملوك والمحاربون إلى الحصول عليها.

-٧٤-

ومصارعُ الثيران الزوُل يلبس فاخراً من الثياب ومعطفاً زاهياً، ولكنه واقف على قدميه دائماً في منتصف الساحة، يتحرق شوقاً إلى مهاجمة سيد القطعان الخائرة (الثور). ولكنه يبدأ بالتجوال في الساحة بقدم حذرة متفطنة، مخافة أن يعوق جريه السريع عائق غير متوقع: أما سلاحه فمزراق، ولا يصارع إلا من بعد، فإن الإنسان لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا بدون الجواد المخلص الذي يدعه الإنسان، ويا أسفاه! يتحمل وحده الجراح.

-٧٥-

ردد البوق ثلاثاً، وتبدت الإشارة، وفتح غار الثور، وتلفت التوقع الصاغت حول الساحة الخرساء بأسوارها الغاصة بالناس. وها هو ذا الحيوان المخيف يشب وثبة هائلة مفاجئة، وينظر حوالبه بنظرات وحشية، واطناً الساحة الرملية بظلف ساخر. إنه لا ينقض على خصمه بطريقة عمياء، بل يهدده أولاً بجبهته ذات القرون السامقة كيما

يحكم هجومه الأول، ويثبت الضربة التي سيصرعه بها، منزناً ذيله الغضوب ذات اليمين وذات الشمال، وفي عينيه نار تتأجج.

-٧٦-

وفجأة يقف، ويرامق خصمه بمؤخر عينه. الفرار، الفرار، أيها الفتى المتهور لذ بالفرار أو هيء مزارقك: هذه اللحظة للموت، أو لإظهار مهارة في وسعها بعد أن تنجيك من غضبه ! إن الفرسان الأزوال يجيدون تفادي ضرباته في اللحظة المناسبة. وها هو ذا الثور يزيد، ولكنه لا يتراجع أمام الضربات التي تنهال عليه؛ وفيض من السيل القاني (الدم) يسيل على جوانبه؛ وإنه ليفرّ، ويضطرب محموراً من آلام جراحه؛ فتتهاوى عليه المزاريق وتنوشه الرماح، الرماح؛ وينبعث منه خوار رجّاس يعبر عن آلامه الهائلة.

-٧٧-

و ها هو ذا يعود؛ فلا مزارق ولا رمح يفيد، ولا تخلصات الجواد المعذب. وعبثاً يهاجمه الرجال بقوتهم وسلاحهم، فسلاحهم لا يجدي وقوتهم ليس فيها غناء. وجواد من جيادهم قد خر صريعاً يفرش الأرض بجثته المجندلة؛ وجواد خر قد شقّ جانبه، ويا للمنظر المرعب؛ وكشفت أضلاعه المحطمة عن أحشائه وينبوع حياته؛ ولكنه على الرغم من هذا الجرح القاتل، يتحمل بدنه الواهن الخائر، حاملاً، وهو يتمرغ، سيفه وقد أنقذ من موت محقق.

-٧٨-

أما الثور فقد وقف في منتصف الساحة متأهباً للمصارعة من جديد، على الرغم من أنه يتصبب دماء، وهو مبهور الأنفاس؛ ولكنه متحدّم جيش بالغضب حتى النهاية، متلبياً مترصداً وسط الجراح والمزاريق الرنانة والرماح المحطمة، والأعداء العاجزين في هذه المعركة الوحشية. وهاهم مصارعو الثيران يدورون حوله الآن، محركين معاطفهم الحمر ومزاريقهم المتأهبة. وهاهو ذا يشق طريقه الرجّاسَ وسطهم جميعاً مرة أخرى.

ولكنها فورة غضب لا نفع فيها! فإن يداً خائنة قد أطلقت المعطف ونشرته فغطى عينيه المتأججتين. فكانت نهايته: وإذا به مجندل على الرمال.

-٧٩-

بقى حديد المزراق المسموم مغروزاً في مجتمع العنق الفلطاحة مع الرأس. إنه يتوقف، إنه يترنح، متأبياً أن يتقهقر؛ وها هو ذا يسقط وسط عاصفة من الصباح بالنصر، دون أن يرسل زفرة أخيرة، ويموت دون حشرجة. وإذا بعربة مزينة أفخم زينة تتقدم، فيوضع عليها جثمان الثور الثقيل. يا له من منظر رائع يروق في عيون الدهماء! وأربعة جياد لها من السرعة بقدر ما لها من الهلع تعض على لجمها، حاملة هذه الكتلة الثقيلة التي لا تكاد تُرى وسط هذا الزحام.

-٨٠-

تلك هي الرياضة الوحشية التي تجمع غالباً فتيات الأسبان، وتسرع الراعي الأسباني. هذا الراعي الذي ألف منذ بعيد رؤية الدم يسيل، لذا يهتز قلبه غبطة، فرحاً بالانتقام، ويرى، دون أن يتأثر، آلام الناس. كم من منازعات شخصية ضرجت بالدم منازلهم الهادئة! وعلى الرغم من أن جيشاً عرمرماً قد احتشد ضد الغاصب، فقد بقي كثير من الإسبان بعيدين عن معسكرات القتال، كيما يشحدوا في السر الخنجر الذي يعاقب بالقتل أهون إساءة.

-٨١-

ولكن سلطان الغيرة قد دال؛ فالشباك الحديدية والمتارس والحارسات العجائز والمشرفات المبجلات قد زالت. فكل هذه الأشياء التي تثير نائرة كل نفس نبيلة والتي كان يستخدمها الزوج الغيور الكالغ كيما يحبس فيها زوجته السجين، قد ذهبت في ظلام العصر الخالي. فأية امرأة كانت أكثر حرية من المرأة الأسبانية الجميلة التي رآها الناس، حين ثار بركان الحرب ثورته الهائلة، ممشطة الشعر مقصبة الذوائب، وهي تطأ المروج الخضراء، بينما كانت النجمة الصديقة للعشاق تنير رقصها بشعاعها الفضي؟

-٨٢-

آه! كم من مرة أحب فيها هارولد، أو على الأقل اعتقد أنه أحب، ما دامت نشوة الحب ليست إلا حُلماً! ولكن قلبه الحزين قد صار اليوم لا يتأثر، لأنه لم يشرب بعد من نهر النسيان^(١)؛ ولم يعرف إلا أخيراً أن الحب ليست له من هبة أثنى من أجنحته، فمهما كان من جمال المحبين وعذوبتهم ونضرة شبابهم، فإنه ينبعث دائماً من يتابع اللذة العذبة سم نافع يسيل بمرارته على الأزهار^(٢).

-٨٣-

وعلى هذا فلم تَعَمَّ عيناه عن فتون الجمال؛ لكنه أعجب بها كما يعجب العاقل الحكيم: لا لأن الفلسفة والحكمة قد تنازلت فتعطفت بنظراتها العفيفة الجديرة بالإجلال على عقل كعقله، ولكن لأن سَوْرَةَ الوجدان تنتهي بالسكون أو النسيان والفرار. والرذيلة، التي تحفر لنفسها قبرها الشهواني، قد دفنت منذ زمان آماله، وبدتها إلى غير رجعة. يا له من فريسة للذة يائسة! إن ظلمة الحياة المريعة قد كتبت على جبينه الشاحب تلك اللعنة التي أصابت قابيل ذا المصير البائس المضطرب.

-٨٤-

تأمل ما تأملَ غير متأثر بما شاهد ولا هو مشاركُ الدهماءَ فيما هم فيه؛ إنما نظر إلى هذا كله نظرة ليس فيها حقد الكاره للبشر. ولعله قد كان يتشوق إلى المشاركة في الرقص والغناء، لو كان القدر الجاثم فوقه قد سمح له بالابتسام. لم يكن ثمة شيء فيما رآه قادراً على أن يسكن من أحزانه. غير أنه كان عليه يوماً أن يكافح ضد شيطان اللذات. ارتجّل هذه الأبيات التي وجهها إلى مفاتن لا تقل روعة عن تلك التي خلبت لبه في سالف الأيام السعيدة:

(١) أو اللبيبي، أحد أنهار الجحيم، الذي تشرب منه أرواح الموتى بعد أن تظل محبوسة زمناً في الترتاروس (أحر مناطق الجحيم التي يعاقب فيها أشد الناس إتياناً للذنوب والكبائر)؛ وليأيه القدر على أن تجعلهم ينسون أي شيء فعلوه أو رأوه أو سمعوا به، ومن هنا جاءت الكلمة اليونانية "ليبي" أي النسيان.

(٢) "من أعماق ينبوع اللذات ينبثق صاب يخنق الأزهار" (لوكرتيوس).

إلى أينز

-١-

امسحني البسمة عن هذا الجبين
ليس في الوسع ابتسامي من جديد
وقساك الله من كل حزين
أو دموع جاريات لا تفيد

-ب-

تسأليني سر ما حُمّل قلبي
من هموم قوضت صرح الشباب؟
فلم التسأل عن جرحي وخطبي
أنت لا تدرين تخفيف عذابي

-ج-

ليس حبي ، ليس بغضي ، ليس فقدي
للذي أمّلت في دنيا المطامع
هو ما يجعلني أكره جدي
أو أفقر الآن مما كان رائغ

-د-

لا أرى حولي سوى داعي الملل ؛
عن حياتي ، عن زماني لست أرضى ؛
لم أعد أحظى بمعنى في الجمال ،
وفقدت السحر في عينيك أيضا

-ه-

قلق مثل اليه هـ ودي المعنى
في ضلال ، ليس ما يشفى جراحه
ف وراء القبر لا أبصر معنى ،
غير أن قبل لا أمل راحه

-و-

أي منفي ترى ينبذ نفسه؟
رغم تجوالي بأفواق بعيدة
ظل شيطاني يساقي القلب كأسه
كأسه المملوء أفكاراً شريفة

-ز-

إن غييري في حمى اللذات يرعى
مستسيغاً كل ما نفسي تعافه
آه! ليت الكل في الأحلام يسعى
دون أن يُوقظ ، مثلي ، من سلافه

-ح-

أرغمت نفسي على التجوال دوماً
وعليها لعنة الذكرى تحوى
وعزائي بعد هذا صار علماً :
أن ما ألقاه قد عانيت أسوا

-ط-

لا تسل عن ذلك الأسوء! كـ
يا حبيبي لا تسلم ، أنت رحيم

ابتسم دوماً ولا تسع على
كشفت قلبي ، كي ترى فيه الجحيم

-٨٥-

وداعاً ، قادم العزيمة؛ وداعاً لزمان طويل! من ذا يستطيع أن ينسى كيف قاومت
استحکاماتك بعزم وثبات؟ لقد بقيت أنت وحدك مخلصاً بينما خان سائر الاسبان
أيمانهم؛ وكنت أنت أول من تحرر وآخر من قهر؛ وإذا كان دم سكانك قد سال في حماك
في هذه الأيام المليئة بالجرائم والمخاطر، فإن خائننا واحداً^(١)
قد سقط صريح الخنجر. أما الكل فكانوا نبلاء، ما عدا النبلاء أنفسهم؛ ولم
يتعلق أحد من أهليك بعربة الغازي الفاتح، اللهم إلا فرساناً منحلين.

-٨٦-

هؤلاء أبناء أسبانيا. ما أعجب حظهم ويا أسفاه! إنهم يجاهدون في سبيل
الاستقلال، وهم لم يكونوا يوماً أحراراً^(٢)
إن شعباً حرم ملكه ليذود عن ملكية قد ذنست؛ وبينما يفر السادة، يموت الأتباع
مخلصين لجبناء وخونة، معززين وطناً لم يتمتعوا فيه إلا بمجرد البقاء؛ ولكن الأنفة
والحمية قد هديهم سبيل الحرية؛ فإن صدوا، واصلوا الهجوم؛ إنهم ليصبحون دائماً:
الحرب الحرب! الحرب على الدوام! سنخوض غمارها بالخنجر^(٣).

-٨٧- (١)

وأنتم يامن تريدون أن تعرفوا اسبانيا والاسبانيين، اذهبوا فاقروا تاريخ معاركهم
الدامي: إن كل ما يستطيع الانتقام الوحشي أن يوحى به ضد عدو أجنبي قد استعمل

(١) "الإشارة هنا إلى سلوك وموت سولانو ، حاكم قادم ، في مايو سنة ١٨٠٩" (بيرن) والواقع أن ذلك كان في سنة ١٨٠٨ لا في سنة ١٨٠٩ . وكان سولانو هذا قد رغب بدخول الفرنسيين أسبانيا ، ولكنه قتل من بعد في ثورة .

(٢) الإشارة هنا إلى استبداد الملكية في اسبانيا .

(٣) "قتلا بالخنجر" ، هذا كان رد بلقووكس على الجنرال الفرنسي في حصار سرقسطة (عن بيرن) .

(٤) يذكرت . مور أن لورد بيرن قد حذف هنا فقرة هجائية فيها إشارة مباشرة إلى أشخاص ، ولهجتها أكثر الفة وتبسلاً من وصف يوم الأحد في لندن ، الذي يتضمن كثيراً من التفاهة المشوّعة لجمال التصيدة . وكانت هذه الفقرة ، التي كانت مكان الفقرة رقم ٨٧ ، تحتوي تهكماً موجهاً ضد الرحالة المشهور سير جون كابر .

ضد جيوش فرنسا: فمن السيف البراق إلى السكين الخائنة، لم تدع الحرب سلاحاً لم تصنعه في أيدي الأسباني. ألا ليته يستطيع هكذا أن ينقذ أخته ورفيقتة! وأن يروي أرض بلاده بدماء الغاصبين! وألا ليت المعتدين الظالمين في كل مكان ينالون مثل هذا المصير!

-٨٨-

تسأل: هل ثمة دمعة رحمة على الموتى؟ ألا فلننظر إذن إلى السهل الذي حل به الدمار، وإلى أكف النسوة وهي مخضبة بالدم القاني؛ لقد تركت الجثث التي لم توارَ في التراب إلى الكلاب، وظلت نهياً للحدأة، وإن كانت غير جديرة حتى بالطيور الجارحة. دع العظام المبيضة وآثار الدم غير المبيضة تنشر على ميدان القتال ذكرى مريعة، حتى يكون في وسع أبنائنا أن يدركوا المناظر التي رأيناها.

-٨٩-

ولكن هذا العمل المخيف لم ينته بعد، ويا أسفاه! فثمة فيالق جديدة تنحدر من جبال البرانس؛ وإنها لتتوغل شيئاً فشيئاً، ولم تكد الحرب تبدأ؛ فليس في وسع إنسان أن يتنبأ:

أين ومتى تكون النهاية. إن الدول المقهورة لترنو بأبصارها إلى اسبانيا؛ فإن تحررت، حررت من النفوس أكثر مما قيد رجلها القاسي بيشارو^(١) وإخوته. جزاء عجيب! إن سعادة المناطق التي اكتشفها كولبس تصلح المصائب التي حلت بأبناء كوتيو، بينما الوطن الأصلي (اسبانيا) قد أصبح فريسة للخراب والقتل.

-٩٠-

ولكن، لا الدم المسفوك في تلفيرا، ولا معجزات النضال في باروسا، ولا الموتى الذين ملأوا ألبويرا، قد استطاعت أن ترد إلى أسبانيا حقوقها المهضومة المقدسة. متى

(١) فرنسيسكو بيشارو هو المخاطر الإسباني المشهور (١٤٧٥-١٥٤١) الذي استطاع بمساعدة أخويه جوثالسي (١٥٠٢-١٥٤٨) وهرندو (المتوفى سنة ١٥٦٧) غزو مملكة بيرو وتحطيم عرش الإنكا هناك، مما أدى إلى قيام الحكم الإسباني في أمريكا. أما كيتو فهي عاصمة بيرو القديمة؛ وقد ثارت على إسبانيا في سنة ١٨٠٩ حينما هاجم الفرنسيون إسبانيا.

يزدهر من جديد غصن الزيتون فيها؟ متى تنتفس بعد هذا النضال الشاقّ الباسل؟ وكم من الليالي ستمر وتنفى فيها الأيام المليئة بالمخاطر، قبل أن يعود الغاضب الفرنسي تاركاً فرسته؛ وقبل أن تُظَلِّدُ دوحه الحريرة الغريبة الدار، البلاد التي أنبتتها؟

-٩١-

وأنت أيها الصديق الرقيق^(١) ما دام حزني غير المجدي ينبثق من أعماق قلبي ويمتزج بأناشيدي؛ لو أن السيف قد جندلك في زمرة الأبطال الذين سقطوا في حومة الوغى، إذن لكانت الكبرياء قد حرّمت الشكوى على الصداقة؛ ولكنك تهوي إلى القبر وليس على جبينك إكليل من الغار، منسياً من الجميع، اللهم إلا من قلبي المتوحد الشاكي؛ إنك لا تستطيع أن تُحشر في زمرة هذه الظلال الشامخة للمحاربين بين المقتولين وأن تريهم جراحك. وبينما توج المجد كثيراً من الرعوس التي هي أقل من رأسك قدراً، ماذا فعلت أنت كيما تستحق موتاً هادئاً كهذا؟

-٩٢-

أي صيقتي العزيزة القديمة^(٢): أنت من بعثت السلوى في قلبي المحروم من كل ما أحببت، إن كنت فُقدت من أيامي اليانسة، فلا تحرميني من رؤيتك في الأحلام؛ إن عودة الصباح ستحملني على تذarf الدمع سراً، حين ينتبه الشعور إلى أحزانه. إن خيالي يعلق فوق نعشك غير المخضب بالدماء، حتى يعود جسمي الضاوي من حيث أتى، ويصير الباكي والمبكي عليه يبتغيان معاً راحة القبر الأبدية.

(١) هذا الصديق هو الأوتورايل جون ونجفيلد، في الحرس الملكي؛ وقد مات بالحمى في كويمبرا. وقد عرفته طوال عشر سنوات، كانت النصف الأجمل من حياته، والشطر الأسعد من حياتي أنا. أواه! لقد فقدت في مدى شهر تلك التي أنت بي إلى هذا الوجود، كما فقدت معظم الذين جعلوني أحتمل أعباء الحياة. وفي وسمي أن أطبق على نفسي بالدقة أبيات يوج هذه: "أيها الرامي الذي لا يشيع، ألا تكفيك فريسة واحدة؟ لقد أطلقت سهمك ثلاث مرات، وثلاث مرات". ولربما كان عليّ أن أكرس بضعة أبيات لذكرى شارلز كرددت مشيوس، خريج كلية دوننج فيكمبردج؛ ولكنه كان فوق كل مدانحي؛ إن سمؤ عقله لتشهد به الجوائز التي نالها في المسابقات مع أمهر مرشحي كمبردج. وعلامات التشريف هذه قد أقامت دعائم شهرته حيث حصلها، ولا زالت شمائله الجميلة تحيا في ذكريات أصدقائه الذين سما بهم له عن أن ينفض عليه سموه وامتيازه" (بيرن). وقد كان ونجفيلد من زملاء بيرن في هرو.

(٢) الخطاب هنا موجه إلى أمه.

تلك أنشودة من أناشيد أسفار اتشيلد هارولد! وأنتم يا من تريدون أن تزدادوا به معرفة، سترون بقية أنبائه في نشيد آخر إذا استطاع الشاعر أن يتابع إنشاده. أهذا القدر كاف؟ لا تقل هذا، أيها الناقد القاسي. ألا صبراً! فستسمع أنباء ما رآه في بلاد أخرى قُضي عليه بالرحيل إليها، بلاد تشتمل على آثار الأقدمين، قبل أن تسحق أيد همجية بلاد اليونان وفنون اليونانيين.

النشيد الثاني

-١-

تعالِيْ عذراء السماء ذات العيون الزرقاء ^(١)... ولكنك، ويا أسفاه! لم تلهمي أية أغنية من أغاني الفانية. إله الحكمة! هنا كان معبدك قبل؛ وهو لا يزال على الرغم من تخريبات الحرب وتدميرات النيران، وعلى الرغم من السنين التي عفت على عبادتك. ولكن النار والحديد والزمان نفسه لم تحدث من الدمار قدر ما أحدثه الشبح المخيف والسلطان الطاغي لهؤلاء الناس الذين لم يستشعروا مطلقاً الحماسة المقدسة التي تبعثها ذاكراك وذكري معبدك في قلوب الشعوب المهذبة.

-٢-

أيتها المدينة العتيقة! أي أثينا! أين ذهب مواطنوك الماجدون، وأشرافك ذوو النفوس العالية؟ لقد ذهبوا ومضوا- ولم نعد نراهم إلا في أحلام الماضي السحيق. لقد كانوا السباقين في مضمار المجد، فبلغوا الغاية وظفروا ثم مضوا- فهل هذا كل شيء؟ إن أعمالهم قد صارت قصصاً تروى لطلاب المدارس، وصرنا نعجب بها كل العجب قدر ساعة نمضيها في سماعها! ولكن عبثاً نُنشد سلاح محاريبيك وكراسي السفسطينيين الذين ينشئون أبناءك: فعلى أطلال أبراجك التي سوّدها ضباب الأيام، يحلق ظل صاحب لعظمتك الخالية.

(١) الإشارة هنا إلى أتينييه، إله الحكمة والحرب (مينرفا اللاتينية)؛ وتنتعت بأنها الإلهة ذات العيون الزرقاء، جرياً على الترجمة غير الدقيقة لوصف هوميروس لها بوصف، ومعناه الحقيقي ذات عين كمين البومة أو ذات العيون البراقة.

-٣-

ألا فلتهب، يا بن الصباح؛ اقترب إلى هنا. تعال- ولكن لا تعلن هذه الإجابة العزلاء. تأمل هذا المكان، إنه ضريح أمه! إنه مقام هؤلاء الآلهات التي صارت مذابحهم مهجورة. لقد اضطرت الآلهة أنفسهم إلى التسليم. وإن لكل دين دوره. فقد كان في البدء لجويتر، ثم صار لمحمد؛ وستولد معتقدات جديدة في قرون أخرى، حتى يعلم الإنسان أن بخوره يحرق عبثاً وأن دماء الضحايا والقرايين يسيل سدى. يا له من ابن للشك والموت! إن آماله معلقة بعيدان واهية.

-٤-

إن الإنسان مشدود إلى الأرض، ولكنه يرفع رأسه إلى السماء. أيها الكائن المسكين! ألا يكفيك أن تعرف أنك موجود؟ وهل الحياة هبة ثمينة إلى حد يجعلك تطمح إلى الحياة مرة أخرى، وأنت تذهب، لست تدري إلى أين، بل ولست تحفل به، وإلى أي مكان ليس على الأرض بل في السماء؟ ألا تقف أحلامك بسعادة مستقبلية أو شقاء سيكون؟ تأمل وزن هذا التراب قبل أن يذهب أدراج الرياح. إن هذه الإجابة الصغيرة تنبئك بأكثر مما تنبئك به آلاف الأناشيد الدينية.

-٥-

أو إن شئت فافتح، منقباً، هذه الأكمة التي رقد من تحتها بطل من الغابرين. إنه يرقد على الساحل المتوحش البعيد^(١). لقد خر صريعاً. فأتت الأمم التي أصيبت في عمود قوتها تنتحب حول ضريحه. أما اليوم فلم يعد يوجد واحد من سكان هذه البلاد البائسين بيكيه؛ ولم يعد يسهر هنا محاربٌ واحد، هنا حيث ظهر أنصاف الآلهة كما تروي الأقاصيص. انتشل هذه الجمجمة من هذه الأكوام المتناثرة: أهذا معبد يمكن أن يسكنه إله؟ إن الدودة نفسها قد هجرت أخيراً خليتها المحطمة.

(١) لم تكن العادة المتبعة دائماً في بلاد اليونان إحراق الجثث؛ فأجاس العظيم خصوصاً قد دفن بجسمه كله. ومعظم الأبطال قد صاروا آلهة بعد موتهم؛ والمحارب الوضع الشأن هو من لم يكن يحتفل سنوياً بالعباد عند قبره، أو من لم يقيم مواطنوه أعياداً لذكراه، مثل ما كان يفعل بالنسبة إلى أخيل وبراسيدس، بل وأيضاً بالنسبة إلى أنطونيوس هذا الذي كان في موته من البطولة بقدر ما كان في حياته من عار وشنار" (بيرن).

أرأيت إلى هذا الرواق المكسور، وهذا الجدار الدارس، وهذه الأبهاء المهجورة وتلك الأبواب المظلمة؟ أجل، لقد كانت، مع هذا المقام العالي للطموح، وقصر الفكر ومعبد الروح. تأمل هذه المحاجر التي نزعت منها عيونها، هذا المأوى الحي للحكمة والموعظة الحسنة، والوجدانات العالية التي لم تقبل الخضوع ولا الإذلال. فهل يستطيع كل ما كتبه القديسون والحكماء والسفسطائيون أن يسكن هذا البرج الخاوي أو يرمم هذا المأوى المهجور؟

-٧-

صدقت كل الصدق فيما قلت يا أكبر حكماء أثينا: كل ما نعرفه هو أننا لا نعرف شيئاً. فلماذا نرتاع محجمين عن كل ما لا نستطيع تجنبه؟ لكل ألامه؛ ولكن الرجل الضعيف الهيابة ينوح على آلام خيالية من نسج أوهام دماغه. فلنبحث عما يقول عنه الحظ أو القدر إنه الأحسن؛ إن السلام ينتظرنا على شاطئ الأشيروون^(١). هناك، لم تعد ثمة مادبة تقام يرغم فيها الضيف الشيع على الجلوس؛ ولكن الصمت يهيء هنا مرقداً لراحة تستهوي النفوس.

-٨-

أما إذا كان الأمر كما ظن بعض الحكماء الذين قالوا إن وراء الشاطئ المظلم (القبر) مأوى للأرواح، مناقضين بهذا رأى الصدوقيين والسفسطائيين المتباهين حمقاً بشكوكهم - فكم سيكون جميلاً أن نمجد إلهاً رحيماً مع هؤلاء الذين خففوا من محنتنا الإنسانية ! كم سيكون جميلاً أن نستمع إلى هذه الأصوات التي نخشى ألا نسمع بعد،

(١) الأشيروون نهر في تسبروتيا في ابيروس ، يصب في جون أميراكيا . ونظراً إلى مظهر مياهه الميت ، دعاه هوميروس أحد أنهار الجحيم ؛ وعلى هذا جرى الشعراء التالون ، قائلين إن إله هذا النهر ابن فيرس بال أب ، وأنه أخفى نفسه في الجحيم خوفاً من التيتان ، واستحال إلى نهر مر المياه ، تحمل عليه في البدء أرواح الموتى .

وأن نعجب بهذا الظلال الفخمة لحكيم بكتريان، وفيلسوف شامس وكل هؤلاء الذين
علموا الخير والفضيلة^(١)!

-٩-

هناك سأراك، أنت يا من فرحته وحياته مني معاً، وأنت يا من تركتني هنا وحيداً
أحب وأحيا في غير طائل! هل في وسعي أن أعدك ميتاً، إذا كانت ذكراك لا تزال تحيا
في قلبي؟ وتطوف لامعة برأسي؟ أجل! سأناغي النفس في الأحلام بلقياك من جديد،
وأهدد هذه الرؤيا على صدري الخلي. فإن بقي شيء من ذكريات الشباب، فلعله أن
يكون ضماناً للمستقبل. أواه!

ليكفيني سعداً أن أعلم أن روحك سعيدة! ^(٢)

-١٠-

هنا يلذ لي الجلوس على هذا الحجر الصلد^(٣)، هذه القاعدة العمود من المرمر لم
يُقم بعد. هنا كان عرشك المحبوب، يا ابن زحل: أي ملك الألومب الأقوى، إنني أنشد

(١) كان في المخطوطة بدلاً من هذه ، الفقرة التالية : "لا تحرق في ، مقطباً جبينك بقسوة ، أيها القس القدم ، لأنني لا أنشد حياة حيث لا
توجد حياة : إنني لم أت كيما أسخر من أوهامك . إنني أستحق في نظرك الرثاء! أولاً! إنك تثير في نفسي الحسد : أنت ، أيها المخاطر
الجسور المكتشف لبحر مجهول ، تكشف فيه عن جزر سعيدة ، وسكان من أسعد الناس . إنني لا أطلبك بأن تصير من الصدوقين : بل
استمر في حلمك بهذا الفردوس الذي لا تدري أنت أين مكانه ، ولكنك تحبه إلى حد أنك تدعو أحاك الضال إلى اقتسامه وإياك" .
ويتلوها بيرن بتعليق طويلة يقول فيها :

"في هذا القرن الذي يسوده التعصب الديني الأعمى ، والذي فيه بدل المتزمت المتطهر والقس موضعه ، وحمل الكاثوليكي المسكين عقاب
خطايا آبائه جيلاً جديلاً بابعده مما يحدثنا عنه الكتاب المقدس ، في هذا القرن ستستدعي الفكرة المعبر عنها في هذه الفقرات كثيراً من
اللعنات . ومع هذا فلا يذهبن عنك أن الروح التي أملتها روح شكلاً يانس لا شكلاً ساخر . إن من رأى الحرافات اليونانية والإسلامية
تتنازع مذاهب الوثنية القديمة ، وخلف في وطنه متناقضين يشكرون الله أنهم لا يشبهون أصحاب الخطايا ، ورأى في أسبانيا شعباً يفض
المبتدعة الذين يتلقى منهم المعونة . هذا الرجل لا يستطيع إلا أن يضطرب ويحار ويبدأ يعتقد أنه ما دام فريق واحد هو الذي يمكن أن
يكون على صواب ، فإن البقية على ضلال . أما عن الأخلاق وأثر الدين في النوع الإنساني ، فإنه يظهر من شهادة التاريخ الدائمة ،
أنه لم يحمل الناس على حب إخوانهم بقدر ما حملهم على استشارة أحقادهم المتيقة ، تلك التي رأيناها قائمة بجلاء بين الفرقة
المسيحية . أما الأثرak وفرقة المجذوبين (الكويكر) فأكثر تسامحاً : فإن غير المؤمن إذا أدى الجزية عند الأولين ، استطاع الصلاة كيف
وحيث شاء ، والإيمان إذا أدى الجزية عند الأولين ، استطاع الصلاة كيف وحيث شاء ، والإيمان المتسامح والسلوك الورع عند الآخرين
يجعل من حياتهم أكمل مثل على الإحسان المسيحي الذي دعا إليه المؤلف الإلهي للأناجيل" . أما حكيم بكتريانا فهو زارذشت :
وبكتريانا مقاطعة في آسيا كانت تكون جزءاً من امبراطورية فارس . أما حكيم شامس فهو فثاغورس ، الفيلسوف اليوناني المشهور .

(٢) كتب بيرن هذه الفقرة في نوستد (أكتوبر سنة ١٨١١) ، حينما علم بموت صديقه وزميله في كمبردج ، الشاب أولستون .

(٣) في بعض الطبعات : الحجر المنطى بالطحلب .

البقايا المستورة من معبدك. ولكن عبثاً؛ إن عين الخيال نفسه لا تقوى على رد ما أبلاه الزمان. ولكن هذه الأعمدة المزهوة لا تطالب بتنهد عابر: فالمسلم يجلس إليها غير مكترث بها، واليوناني الخفيف الطياش يمر وهو يغني، علامة عدم احتفال.

- ١١ -

ولكن، من- من بين الذين نهبوا ذلك المعبد المنشأ على قمة الأكروبول، الذي هجرته بلاس آسفة على مغادرة هذا الأثر الباقي الأخير من آثار سلطانها القديم- أقول: من بينهم كان آخرهم وأسوأهم وأشدهم تخريباً ونكراً؟ ازوري خجلاً وعاراً يا كاليدونيا، ^(١) لأنه أحد بنيك ! وأنت يا إنجلترا، يسرني أنه لم يكن من أبنائك، فإن مواطنيك الأحرار لا بد أن يحترموا بلداً كان بالأمس مهد الحرية. فكيف سولت لهم أنفسهم أن يندسوا معبد الآلهة الخرافي، وأن يحملوا مذابحهم على الأمواج التي رفضت ^(٢) طويلاً أن تساعد على فعلتهم الشائنة هاتيك؟

- ١٢ -

ولكن حفيد البكتيين المحدث يفخر بهذه الفعلة الشائنة التي لم يرتكبها القوط ولا الأتراك ولا الزمان الجبار: ^(٣) إنه يحمل قلباً من الصخر وعقلاً قفراً مثل صخور وطنه، هذا الذي استطاع أن يفكر وينفذ هذا المشوع البغيض، مشروع انتهاب اثينا البائسة. وسكانه، على الرغم من عجزهم عن الدفاع عن أطلالهم المقدسة، قد شاركوا في آلام وطنهم: فهم لم يشعروا كالיום بقسوة النير الذي يتنون تحته، نير العبودية والاستبداد.

(١) كاليدونيا هي إيفوسيا أو اسكلنده .

(٢) غرقت السفينة في الأرخيل .

(٣) البكتيون كانوا في الأصل قوماً في اشقوزيا . سمووا بهذا الاسم (ومعناه : المصبوغون) لأنهم كانوا يصبغون أجسامهم بمختلف الألوان ، كيما يبدو أشد خطراً وصولاً في عيون الأعداء . ويحدثنا سرفيوس ، شارح فرجيل ، أن فريقاً منهم هاجر إلى الأجزاء الشمالية من بريطانيا ، في مقاطعة اسكلنده . وهناك ظلوا على عاداتهم الفطرية الوحشية . وهم إذن أجداد الاسكلنديين الحاليين الذين منهم لورد إجن ، قنصل إنجلترا في أثينا ، وهو اسكلندي الأصل ، وقد نقل رواة الآثار اليونانية إلى إنجلترا ؛ وضده يوجه بيرن هذا الهجاء المقذع في كل هذه الفقرات . وقد وجه مثلها رينان في " صلوات على الأكروبول " بعد ذلك بزمان طويل . وقصة هذا النهب الفظيع لتلك الروائع اليونانية طويلة مؤثرة ذكرها بيرن في تعليقاته بالتفصيل .

-١٣-

ماذا! هل قال لسان بريطاني إن ألبينون سعيدة بدموع أثينا؟ وعلى الرغم من أن هؤلاء الأشرار قد مزقوا صدر أثينا باسمك أنت، فلا تعترف بهذه الجريمة لأسماع الأوريين الذين سירתاعون من هؤلاء. ملكة المحيط، بريطانيا الحرة، تحمل أشلاء بلاد دامية الجراح! أجل، إنها هي، تلك التي تقدم معونتها السخية للآخرين ممجدة بهذا اسمها، هي التي حطمت بيديها الوحشيتين هذه البقايا والأطلال اليونانية التي أبقى عليها الزمان العاتي والطغاة المستبدون.

-١٤-

بلاس! أين كان درعك الذي أوقف أرك القاسي وصد سيل الخراب^(١) العرم؟ أين كان ابن بيلبوس، الذي فر ظله من مملكة الموتى، وظهر في يوم الخطر هذا، مدججاً بسلاحه الرهيب؟

ماذا! ألم يكن في وسع بلوتون أن يطلق سراح هذا القائد العظيم مرة أخرى كيما يخيف هذا الناهب الآخر؟ إن أخيل الضال على سواح الاستيكس لم ينهض للدفاع عن الأسوار التي لذ له من قبل أن يحميها.

-١٥-

إيه يا بلاد اليونان! ما أقسى هذا القلب الذي يستطيع أن يراك دون أن يشعر بما يشعر به العاشق عند تراب معشوقته. من ذا يقوى على رؤية معابدك وقد دنستها أيد بريطانيا، هي والمذابح العتيقة، أيد كان الواجب عليها بالأحرى ان تنافع عن هذه الأطلال المقدسة- أقول: من ذا يقوى على رؤية هذا كله دون أن يذرف مر العبرات؟ هذه الأطلال، لقد ضاعت إلى غير رجعة! ألا لعنة الله على الساعة التي أبحروا فيها من جزيرتهم كيما مزقوا صدرك الدامي مرة أخرى، وينقلوا آلهتك البائسة إلى جو الشمال البغيض!

(١) يذكر زونديموس (وقد عاش في أيام حكم ثيودسيوس الأصغر، حوالي سنة ٤١٠ بعد الميلاد) الذي كتب تاريخ الأباطرة الرومان في بلاد اليونان أن "مينرفا وأخيل قد طردا أرك من الأكروبول، ولكن نغراً آخر يذكر أن ملك القوط (أرك) كان همجياً مثل زميله الأيقوسي المعاصر" (عن بيرن). وأرك هذا هو ملك القوط الذي خرب روما ونهبها في أيام حكم هونوريوس، وكان من أعظم القواد في التاريخ بسالة وهمجية. وقد توفي سنة ٤١٠ ميلادية، بعد حكم دام ثلاثة عشر عاماً.

-١٦-

ولكن أين هارولد؟ أأنسى إذن متابعة هذا الرحالة الحزين وهو يبحر فوق الأمواج؟ إنه لم يحفل بشيء مما يشير في نفوس الآخرين كل حسرة وأسف. فلا حبيبة قد أتته كيما تبهظه بألم مصطنع، ولا صديق أتى كيما يد يده توديعاً لهذا الأجنبي البارد الذي صار على بتات التجوال في أجواء أخرى. القلب المقدود من الصخر هو وحده الذي يمكن أن يظل غير مكترث ولا متأثر بمفاتن الجمال. ولكن هارولد لم يعد له بعد قلب الأمس. فغادر غير آسفٍ بلداً توزعت له الحرب والإجرام.

-١٧-

إن من أبحر على البحر الأزرق الداكن قد رأى، فيما أحسب، منظرًا كله فتنة وجمال، حينما يهب النسيم كأرق ما يكون الهبوب ناشراً الشراع الأبيض الرفاف، فوق الحراقة الرشيقة؛ فتراجع وراءنا أحشاد السواري والحبال والرمال، ويمتد البحر الشاسع إلى بعيد مرتقياً حتى حيزوم السفينة، وتنتشر القافلة كسرب من البلشون البري في طيرانه، ويبدو أسوأ البحارة شولاً مليئاً بالخفة والبراعة، لأن الأمواج المزبدة تتلاعب بلطف ومرح حول الجؤجؤ في كل سفينة.

-١٨-

ولكن آه للعالم الصغير الذي تشتمل عليه! فالبنادق وقد أحكم شدها، والشبكة المشدودة على سطح المركب، والأوامر تُلقي بصوت أصحل، والضجة التي يحدثها البحارة حين يصعدون دفعة واحدة إلى أعلى السيارات: استمع إلى نداء ضابط البحارة، وإلى صياحهم المرح، بينما تنزلق الحبال في أيديهم؛ وانظر إلى صبي البحار الذي يبعث بصوته الحاد مؤيداً أو مؤنباً؛ وهاهو ذا يستطع أن يقود، وهو الضابط التلميذ، جمع بحارته المطيعين.

-١٩-

إن سطح السفينة ليرن كالبلور المصقول لم يُسه أي تشويه، ومن فوقه تمشى الضابط المنوط به الحراسة. ثم انظر أيضاً هذا الجزء من السفينة المخصص للريان، الذي

يتقدم في مهابة وجلال. إنه صامت مرهوب من الجميع، فلا يتحدث إلى أتباعه إلا نادراً، كيما يحافظ على هذه الأبهة والصولة اللتين هما حارس الظفر والمجد. ولكن البريطانيين قليلاً ما ينحرفون عن القانون، مهما يكن من قسوته، ما دام يؤدي إلى تقوية نفوسهم.

-٢٠-

هبوباً! هبوباً! نسيم البحار، الدافع بالمركب في طريقها إلى أمام! سق السفينة حتى تسحب الشمس الواسعة أشعتها المتضائلة. هنالك يضطر حامل علم القيادة^(١) إلى طي الشراع، حتى تستطيع السفن الأكبر ثقلاً والتي تخلفت في الورا أن تلحق به.

آه! يا للشقاء، وما أقسى هذا التأخير القبيح! ما ألم أن يبدد النسيم الرقيق من أجل هذه المراكب الثقيلة الكسلى! كم من الساعات يضيع قبل مطلع الفجر في تأمل البحر بنظرات مفكرة حاملة، انتظاراً لهذه السفن البليدة، والشراع المرفرف قد أرخي رغماً عنه.

-٢١-

تبدى البدر في الأفق؛ ألا ما أروع الليل! فيوضُ النور في الموج، تراقص فيه أو تجري. فللعشاق في هذه الساعات أن يزفروا وهم على الشط زفرات الغرام، وآهات العشق، للمحبيبات أن تصدق هذه الآهات وتلك الزفرات. ولعل الله أن يجعل حظنا كهذا الحظ حين نعود إلى وطننا. ولكن أنامل أريون^(٢) غليظ تلعب على أوتار الآلة التي تلذ أنغامها البحارة كثيراً. وهاهم يحيطون به في مرح وغبطة؛ وإذا دعاهم دور

(١) هذا علم صغير ، علامة على ان الاميرال او الكومودور على سطح المركب .

(٢) أريون ، شاعر غنائي وموسيقار يوناني مشهور ، كان ابن كلكوس من متومنا في جزيرة لسبوس . وقد ارتحل إلى إيطاليا مع برياندر ، طاغية كورنثوس ، فأصاب من مهنته مالاً وقيراً . وفي أثناء عودته إلى بلاده حاول بحارة السفينة التي أبحر عليها ان يقتلوه كيما يستولوا على النفائس التي حملها معه إلى بلده لسبوس . فلما رآهم أريون مصممين على هذا الفعل ، سألهم أن يسمحوا له بعزف لحن جميل ؛ ولم يكذب ينتهي من العزف حتى قذف بنفسه في البحر وفي تلك الأثناء كان قطع من الدخس (الدلفين) قد جذبتة حول السفينة عذوبة هذه الموسيقى ، فيقال إن أحدها حمله على ظهره سالماً إلى تينارس ، ومنها أسرع بالذهاب إلى قصر برياندر الذي أمر بصلب كل البحارة عند عودتهم .

يعرفونه إلى الرقص، توثبوا ضاحكين وكأنه خيل إليهم أنهم لا زالوا بعد على الساحل.

-٢٢-

وخلال مضيق كاليه يرى هارولد صخور الشاطئ: هناك تتبادل أفريقيا وأروبا النظرات! التي تسكنها الغادة ذات العيون السود والمراكشي الأسود تبدو ظاهرة تحت مشعل هياكتوس الشاحب^(١). ما أجمل انعكاس نوره على الساحل الإسباني ! إنه يكشف عن صخوره الفتانة، ومنحدر روابيه، ونضرة غاباته الكثيفة الأوراق. ولكن جبال موريتانيا المظلمة الجبارة تُلقي بظلالها من قممها الشامخة التياهة حتى أوديتها المعتمة.

-٢٣-

ها نحن في الليل، حيث يأمرنا التأمل بالإحساس بأننا قد أحببنا مرة، على الرغم من أن الحب قد هجرنا منذ زمان: والقلب، هذا الشاكي المتوحد الباكي على حماسته المقهورة، ولو أنه عار من الصداقة الآن، فإنه سيحلم بأنه كان له يوماً صديق. من ذا يود أن يحني رأسه تحت عبء السنين، حينما يبقى الشباب نفسه بعد زوال الحب والسرور؟ أوأه! حينما تنسي نفوسُ من عشقوا رقتها ورحمتها، فلا يبقى للموت شيء يفنيه إلا التافه القليل ! آه! أيتها السنوات السعيدة ! من ذا الذي لا يود أن يصير طفلاً من جديد؟

-٢٤-

كنا هكذا منحنين على الجوانب المستديرة للسفينة متألّمين قرص ديانا (القمر) وهو ينعكس على مرآة المحيط؛ فنسينا آمالنا وكبرياءنا: وإن روحنا لتستعيد ذكرى الماضي

(١) كاليه اسم جبل عال في أقصى الجزء الجنوبي من أسبانيا ، تجاه جبل أبيله على الشاطئ الأفريقي المقابل ؛ وكان هذان الجبلان يسميان أعمدة هرقل ؛ وكاليه تسمى اليوم جبل طارق .

أما هيكاثة فاينة برسس وأستريا ؛ وتسمى أيضاً بروسرينه وديانا ؛ فهي تسمى في السماء لونا (القمر) ، وعلى الأرض ديانا ، وفي الجحيم هيكاثة أوبروسرينه ؛ وهي إلهة السحر والقتنة ، ولها سلطان على السماء والبحر والأرض والجحيم ؛ وتقدم إليها القرابين والحملان والغسل ، خصوصاً في الشعاب العالية وعند مفارق الطرق . وموريتانيا هو الاسم القديم لمراكش .

وهي لا تشعر. لم يبلغ البؤس بأحد من الناس حداً يجعله خالياً من كائن عزيز، أعز إليه من نفسه، يشغل أفكاره، ويسأله أن يهبه دمعة؛ إن هذا السهم حاد ينفذ بقسوة وألم في القلب المكلم الذي يحاول عبثاً أن يرد طعنته النجلاء.

-٢٥-

الجلوس على الصخر؛ والحلم عند الأمواج أو على حفافي الهاوية؛ والتجوال ببطء خلال ظلال الأشجار في الغابات؛ ونشدان الأماكن النائية عن سلطان الإنسان، والتي لم تطأ أو لم تكد تطؤها أقدام كائن فان؛ وصعود الجبال الخالية من الشعاب دون أن تبصر عيون، حيث تسرح وتمرح قطعان برية لا تحتاج إلى حظيرة؛ والبقاء وحيداً متكتناً على الهوى عند الشلالات المزبدة؛ كل هذا ليس وحدة، بل هو حديث عذب مع مفاتن الطبيعة، وإعجاب بكنوزها العجيبة.

-٢٦-

أما الدخول في حومة الدهماء والضوضاء وتصادم الناس، والسماع والرؤية والإحساس وامتلاك أثمان العقار، والتجوال خلال العالم النسيح كمواطن عالمي وكُلّ به الملل، دون ما أحد يبارك لنا ويحبنا، ودون امرئ نستطيع أن نحبه ونؤثره، ورؤية عباد الزهو المتملقين الذين يجفلون من البائسين؛ وفقدان صديق يجعله العطف عزيزاً لدينا، العطف العذب الملف بين قلبينا، والصديق الذي إن فارقنا الحياة، بدا حزيناً لا يجد الابتسام إلى جبينه سبيلاً؛ وأن لا يكون لنا صديق واحد من بين جميع هؤلاء الذين يتملقوننا ويتقلبون في نعمنا عليهم، هذا كله هو العزلة، وتلك هي الوحدة حقاً.

-٢٧-

وأكبر سعادة إذن هي حياة الراهب المتبتل، مثل هؤلاء الذين يرون فوق جبل آثوس^(١) المتوحد؛ وهم يسهرون في المساء فوق القمم العالية الجبارة التي تطل على

(١) آثوس، جبل في مقدونيا، بارز في بحر إيجه؛ ويسمى اليوم موته ساتو (الجبل المقدس). لأنه مشهور بالأديرة العديدة التي يقال إنها تحتوي على مخطوطات قديمة ثمينة.

أمواج بلغت حداً من الزرقة، وسماوات لها من السُجُو ما يحمل المار هناك في مثل هذه الساعة على قضاء سؤر العمر في هذا المكان الأقدس؛ وهو لا يستطيع مفارقة هذا المنظر الساحر، دون أن يمتلئ قلبه أسى وأسفاً؛ هنالك يأسى زافراً على أنه لم يحيي حياة هؤلاء النساك، ويزداد بغضاً لعالم كاد أن يكون هو قد نسيه.

-٢٨-

لنمرّ مسرعين بالطريق الرتيب الطويل الذي وطئته أقدام كثيرين دون أن يتركوا فيه أثراً وراءهم؛ ولنطرح الحديث عن الهدوء والرياح، والنسائم الملامة وتلك المقاومة، وما للرياح والموج من أهواء ونزوات؛ ولنضرب صفحاً عن ذكر ألوان السرور والأحزان التي يعانيتها النوتية وهم رابضون في قلعتهم العائمة التي تحف بها الأمواه العالية. إن نزاء الرياح والأمواج كثيراً ما يعوق أمانى الملاحين؛ ولكن لا بد يوماً أن تأتي تلك الساعة في صباح جدلان، تلك الساعة التي فيها يرون: الأرض، الأرض؛ فيتدفق السرور من كل الوجوه.

-٢٩-

ولكن ليس لنا أن نمر بجزر كالبسو^(١) صامتين، وهي قد تجمعت والتفت كالأخوات وسط المحيط العميق. وهناك لا يزال مرفأً يبسم للاغبين، ولو أن الإلهة الجميلة قد توقفت منذ زمان طويل عن سقي صخورها بالدموع، انتظار عود من فضل عليها زوجة من الآدميين. وهنا أيضاً حاول ابنه أن يثب الوثبة المريعة حينما دفع به منتور القاسي من الأعالي إلى الأمواج. فلما فقدت ملكة الحوريات الأب والابن، ظلت تنوح على مصابها المزدوج.

(١) كالبسو هي إحدى الأوقيانوسيات، حوريات البحر، بنات أوقيانوس (البحر أو المحيط)، وإن كان البعض يقول إنها بنت أطلس. كانت إلهة الصمت، ومقر سلطاتها في جزيرة أوجيجيا التي لا يُعرف مكانها بل ويُشكك في وجودها. ولما غرقت سفينة أوليس ولم ينج غيره، استقبلته الإلهة خير استقبال، وودعته الخلود إن بقي معها كزوج. غير أن أوليس رفض؛ وبعد إقامة دامت سبعة أعوام، سمح له بالرحيل من الجزيرة. وقد كان له منها أثناء إقامته ولدان: نوسيثوس، ونوسينوس. فلما ارتحل أوليس، حزنت كالبسو حزناً بالغاً لم يعزها عنه شيء. و"الأودسه" لا تذكر إلا أن أتيهيه قد اتخذت هيئة منتور؛ ولكن فلون في كتابه "مغامرات تلماك" يذكر أن منتور قد حمل تلماك على أن يثب وثبة مريعة كيما يفر من إغراء كالبسو. ويبرن يقول عن جزيرة كالبسو: "إن جوزو يقال عنها إنها جزيرة كالبسو".

-٣٠-

انتهى ملكها، وباد علاها؛ لكن لا تخلد إلى هذا بشقتك، أيها الفتى الغُرانق الطياش، بل خذ حذرك ! فإن سلطنة من بني البشر تحتل عرش الإلهة الخطرة، وقد تجدد فيها كالبسو جديدة. إيه يا فلورانس^(١) العزيرة العذبة ! لو استطاع الجمال أن يؤثر بعد في هذا القلب الذي كان قدماً ساذجاً، ثم عزف من بعد عن الحب، إذن لما كان هذا القلب إلا لك أنت؛ ولكني، أنا الذي أبهظني حزن فادح، لا أتجاسر على تقديم قربان غير لائق أمام مذبحك، ولا على أن أسأل صدرًا عزيزاً كصدرك أن يشعر بألم من أجلي.

-٣١-

هكذا فكر هارولد، حينما ألقى الطرف على عيون هذه السيدة، وتلقى شعاعها الصافي دون أن يجول في عقله خاطر آخر غير الإعجاب الناظر في براءة إليها: بقي الحب بعيداً عالياً، وإن لم يكن شاسع البعد، وقد عرف كيف كان هارولد يقدم له أعلى القربان، ولكنه اليوم صار لا يعده من بين عبيده، ورفض أن يلج قلبه مرة أخرى، ما دام قد حاول هذا الإله الطفل^(٢) أن يحمله عبثاً على الغرام، حتى أيقن أن سلطانه القديم قد دالت دولته.

-٣٢-

كم كانت دهشة فلورانس الجميلة حينما رأت فتى كان يقال عنه إنه لا يزال يتأوه حباً لكل ما يراه، يقف أمام بهاء جمالها غير متأثر ولا مدله، هذا الجمال الذي طالما حياه الآخرون بتنهيدات قد تكون حقاً وقد تكون مصطنعة، ووصفوا فيه أملهم ومصيرهم وجزاءهم، بل وقانونهم الذي يخضعون لسلطانه، ورددوا كل مغلظ من الأيمان يقتضيه الجمال من عبيده وأتباعه. فما أشد ما كانت دهشتها حينما رأت شاباً كهارولد لم يشعر، بل ولم يتظاهر بالشعور، بلهيب الغرام الذي تتلقاه المرأة أحياناً بشيء من عدم الاكتراث، ولكنها لا تتلقاه بغضب إلا نادراً.

(١) فلورانس، هي مسز اسينسر اسمث التي التقى بها بيرن في ملعه؛ وقد قال فيها كثيراً من القوائد.

(٢) كيوييد، إله الحب.

-٣٣-

هذا القلب الذي حسبته من المرمر، والذي اعتصم بالصمت أو نأى به الكبير، لم يكن جديداً في عالم الإغواء: فكم من حباله شهوة نصبها من قبل هنا وهناك في غير تحفظ ولا تأثم. وإذا كان قد عزف عن حيله الأثمة، فإن ذلك لم يكن إلا حين لم يجد بعد شيئاً يليقُ برغباته وأمانيه. إن هارولد لم يعد يركن إلى مثل هذه الحيل؛ وإذا كانت عيونها الزرق قد هيجت الحب في فؤاده، فإنه لم يدخل في زمرة عشاقها الهائمين.

-٣٤-

لا يعرف قلب المرأة جيداً من يظن أن حبها يكتسب بالتنهيدات والزفريات. فماذا يعنيها من أمر اكتواء القلوب، إذا ما امتلكها فؤاد إنسان آخر؟ لا تظهر كثيراً من الضراعة والذلة حينما تصف غرامك لمعشوقتك، بل اعتدل في صلواتك أمام عيون معبودتك، وإلا احتقرتك وازدردت غرامك، على الرغم من حرارة أوصافك وبلاغة تعبيرك عنه. وإذا كنت حكيماً، فاستر حتى رقتك وعطفك؛ والثقة السريعة تفيد جيداً في امتلاك المرأة. هيجها تارة، ولاطفها أخرى، يتوج غرامها سريعاً أحلامك وأمانيك.

-٣٥-

ذلك درس نافع قديم، أثبت الزمان صدقه، وأشد الناس إيماناً به وعلماً بمضمونه هم في الآن نفسه أشد من يقاسون منه. فإن المحب إن نال كل ما تمنى، وجد أن ثمن كل هذه الآلام والزفريات جزء تافه لا يتناسب وإياها: فضياع الشباب، وانحطاط العقول، وفقدان الشرف، تلك هي ثمارك، أيها الحب الظافر؛ أما إذا شاعت النعمة القاسية أن تخيب الأمل مبكراً، فإن الجرح يصاب بالسموم، ويصيراً داء لا دواء له، حينما ينسى الحب نفسه أن يسر.

-٣٦-

إليك عني أيتها الاستطرادات التي تقطع عليّ غنائي، لأنه لا يزال أمامنا كثير من الطرق الجبلية التي يجب أن نمر بها، وكثير من الشواطئ التي يجب علينا أن نساحلها، يقودنا الحزن المفكر لا القصص الخيالي. سنمر بأجواء لها من الجمال ما لكل

ما ابتدعه خيال الإنسان في أحلامه الساجية، بل فيها من الحسن ما في المدن الفاضلة التي تغنى بها المحدثون، كيما يتعلم الإنسان إلى أي غاية سامية يجب أن يصبو، لو قدر لهذا المخلوق الفاسد أن ينتفع بمثل هذه الدروس.

-٣٧-

إن الطبيعة العزيزة لا زالت خير أمّ، على الرغم من تنوع مظاهرها. فدعني أتلقي موضوع إلهامي من قلبها العاري، أنا الطفل البار بها، وإن لم أكن عندها أعز بنيتها. أوه ! إنها لأروع جمالاً في قسماتها الوحشية، حيث لا تتجاسر أية صناعة فنية أن تدنس سبلها. لقد تبسّمت لي دائماً ليل نهار، على رغم كوني قد حفلت بها حيث لا يحفل الآخرون، ونشدتها أكثر وأكثر، وازددت بها تعلقاً، متى؟ إبان غضبها وثورتها.

-٣٨-

يا بلاد الألبان ! يا وطن الإسكندر^(١)، معبود الشباب ومثل الشيوخ الحكماء؛ يا وطن سميه البطل الآخر الذي طالما انتصر على أعدائه بأعمال الفروسية الممتازة. يا بلاد الألبان ! دعيني أتأمل بعيوني أرضك، أنت أيتها الظئر الصخرية لأناس همجيين! لقد دالت دولة الصليب، وارتفعت المآذن العالية، وتلأل الهلال الشاحب في الوادي، خلال خمائل السرو المحيطة بمشارف كل مدينة.

-٣٩-

أبحر أتشيلد هارولد، وعبر البقعة القاحلة التي أطلت منها ينلويه^(٢) الحزينة على الأمواج الزرقاء؛ ورأى أمامه الجبل العابق بعد بالذكرى، ملاذ العاشق، وقبر إلهة

(١) الإسكندر الأكبر؛ أما البطل الآخر الذي يشير إليه بعد فهو اسکندربج (لورد اسکندر). ويبرن يقول: "لست أدري هل كنت مصيباً في أن أجعل اسکندربج من مواطني الإسكندر الذي ولد في بلاد مقدونيا؛ ولكنني اتبعتُ جيرن الذي أعطى نفس اللقب إلى بردس وهو يتحدث عن مغامراته" ويقول عن طباع الألبانيين: "إن الأرنأوط أو الألبانيين قد أثاروا انتباهي من حيث تشابههم مع ساكني الجبال في اسكتلده؛ فملابسهم وشكلهم وطرائق حياتهم واحدة؛ وإن جبال ألبانيا تشبه كل الشبه جبال كاليدونيا، لو كان الجو أقل لطفاً . . . وليس ثمة أمة يكرهها جيرانها ويخشونها مثل الأمة الألبانية".

(٢) بنلويه، أميرة يونانية مشهورة، ابنة ايكاريوس وزوجة أوليس، ملك ايثاكا. وقد احتفل بزفافها إلى أوليس في نفس الوقت الذي تزوج فيه منلاوس هيلانة. وقد انسلت منه تلماك. ولما اضطرت زوجها إلى الاشتراك في حرب طروادة، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات، حزنت حزناً شديداً؛ ولما لم يعد أوليس مع بقية أمراء اليونان عند انتهاء الحرب، ازدادت مخاوفها. ولها بعد هذا تاريخ طويل بل شائق لامجال لذكره هنا.

لبسوس الشاعرة، أي سافو البائسة! هلا يستطيع إله الشعر أن يحمي قلباً يشتعل بنار العبقرية المقدسة! كيف تخلى إذن عن تلك التي وهبت الخلود وتركها تفنى، إذا كان حقاً أن القيثارة تضمن لنا مجدداً خالداً، هذا الخلود الذي هو الفردوس الوحيد الذي يمكن لأبناء الأرض أن يصبوا إليه.

-٤٠-

كان ذلك في مساء رقيق من أماسي^(١) خريف اليونان، حين حياً اتشيلد هارولد رأس لويكاديا^(٢) من بعيد، هذا المكان الذي طالما اشتاق إلى رؤياه، وفارقه أسفاً عليه. لقد تجول مراراً في أماكن كانت شهوداً على معارك خالدة: أكتيوم، ليبانت^(٣)، وطرف الغار؛ ولكن قلبه لم يتأثر لما أثارته في نفسه من ذكريات، لأنه - وقد ولد تحت نجم بعيد غير ميال إلى الأمجاد - لا يسر بأحاديث المغامرات الدامية والمعارك الباسلة؛ إنما هو يبغض مهنة الشجعان، ولا يلقي منه نضال المحاربين غير ابتسام عريض ساخر.

-٤١-

ولكنه حينما رأى نجمة المساء فوق صخرة لويكاديا الناتئة الخزينة، وحينما حيا هذا الملاذ الأخير للعشق البائس، شعر أو خيل إليه أنه شعر بإحساس غير عادي: فلما كانت السفينة تنزلق في روعة وجلال تحت الظل الذي تلقيه هذه الصخرة القديمة بعيداً فوق البحر، تتبععت عينه الخزينة الولهي مجرى الأمواج الكاسفة. وعلى الرغم من أنه كان غارقاً في أحلامه المعتادة، فقد بدت عيناه أكثر سكوتاً وطمأنينة، تجلى جبينه الشاحب ناعماً مستوياً.

(١) لويكاديا جزيرة في البحر الأيوني، تسمى الآن سنت مورا، بالقرب من ساحل الإيبروس، وهي مشهورة برأس صخري يمتد في البحر اسمه لويكات أولويكاس، من فوّه كان العشاق البائسون يقذفون بأنفسهم في البحر. ومن بين هؤلاء سافو، الشاعرة اليونانية المعروفة التي وثبتت هذه الوثبة كيما تتخلص من وجدانها الغرامي العنيف الذي شعرت به نحو فاءون.

(٢) معركة أكتيوم هي التي وقعت بين أوكتافيوس من ناحية ومارك أنطونيوس وكليوباترة من ناحية أخرى، كما هو معروف؛ ومعركة طرف الغار هي التي جرت بين نابليون والإنجليز؛ أما معركة ليبانت فأقل شهرة وقد وقعت في خليج بتراس، وفيها فقد سرفنتس، مؤلف دون كيخوته، يده اليسرى.

-٤٢-

انبليج الفجر، وتبدت روايي ألبانيا الكالحة وصخور سولي الكابية، وقمة بندس النائية وقد تدرثر نصفها بالضباب، وتجللت بروافد من الثلج صبغتها أشعة الصباح الأولى بصبغة من الأرجوان الجميل؛ وتبددت أبخرة الصباح، فسمحت برؤية مساكن قاطني الجبال: هنالك تعوى الذئاب، ويحد النسر منقاراً قوياً، والطيور والحيوان الوحشي، والناس الأكثر وحشية، كل هؤلاء يبدون؛ وهناك أيضاً تتجمع هذه العواصف المحيطة التي تزلزل الفصل الأخير من العالم.

-٤٣-

هنا شعر هارولد بأنه قد أصبح الآن وحيداً، فودع الأمم المسيحية وداعاً طويلاً؛ فها هو ذا قد غامر بدخول بلد مجهول، يعجب به الكل، ولكن كثيرين يخشون من زيارته: إن قلبه قد تسلح ضد القدر؛ وحاجاته قد قل عددها؛ أجل؛ أنه لا يسعى إلى الخطر، ولكنه يتقهقر مرة أمامه. ألا إن لهذه الأماكن مظهراً موحشاً؛ ولكنه منظر جديد على كل حال؛ وهذه الفكرة تخفف عنده لذع نيران الصيف، وشدة رياح الشتاء، ومتاعب السفر المتتالية.

-٤٤-

هنا الصليب (أجل الصليب، فلا زال يوجد شيء منه، وإن كان ملطخاً بالعار قد فضحه المسلمون) ينسي تلك الكبرياء التي تصاحب في كل مكان خدمته الحريصين على تقديس حرمة؛ وهنا يحتقر القسيس والمسيحي العادي على السواء. أيتها الأسطورة العجيبة! على أي نحو كنت: صنماً، أو قديساً، أو عذراء، أو نبياً، أو هلالاً، أو صليباً، وأيا ما كان الرمز الذي يقدسك العالم من أجله - فإنك لست إلا لرجال الدين، وإنك لضياح لسائر الناس أجمعين؛ من ذا الذي يستطيع أن يستبعد الخبث من ذهب العبادة الصحيحة في خليطك المدنس؟

تأمل خليج أمبراشيا، حيث فقد عالم من أجل امرأة، امرأة ساحرة بريئة! في هذا الخليج المتجدد الموج تصارعت أساطيل القواد الرومانيين وأساطيل الملوك الآسيويين^(١) في معركة لا شك في أنها دامية هائلة، لكن لا يقين بالنصر فيها لأحد الفريقين. تأمل حيث ضفرت أكاليل النصر لقيصر الثاني^(٢) ! إنها لتذبل اليوم، كما ذبلت الأيدي التي أنبتتها؛ إن هؤلاء الفوضويين الأمبراطوريين ليزيدون في شقاء بني الإنسان أضعافاً مضاعفة. إلهي! هل قدر لأرضك أن تكسب هكذا وتفقد؟

من الصخور العاتية التي تحد هذا المناخ القاسي (ألبانيا) حتى وسط الأوداء الإليرية، تجول أتشيلد هارولد في جبال عديدة خلال أقاليم لم تكذ تذكرها أقاصيص التاريخ. ولكن أمثال هذه الأودية الجميلة لا تكاد ترى في أتكا المشهورة؛ بل وليس في تيميه مفاتن لا يراها المرء فيها؛ وجبل البرناس العزيز هو أيضاً لا يستطيع أن يدرك شأو بعض البقاع المستورة خلف هذي الصخور الساحلية، على الرغم مما له من شهرة عتيقة وقداسة عند أولى الفن.

لقد مرّ بالقرب من بندس ذي الذروة الناصعة البياض؛ واجتاز بحيرة أخيروزيا^(٣)؛ ثم مضى دون أن يعرج على عاصمة الإقليم، مغدًا في سيره كيما يحيى أمير ألبانيا^(٤)، الذي تحترم أوامره أكثر مما تحترم القوانين، لأنه يحكم بيد دامية أمة شمساً كأنها قدت من صلد الصفا. ومع هذا، فإن ثمة ههنا وهناك بعض العصابات الجبلية

(١) قال بيرن في خطاب إلى أمه سنة ١٨٠٩: "يقال إنه في عشية اليوم الذي وقعت فيه معركة أكتيوم، كان مع أنطونيوس ثلاثة عشر ملكاً عند الصباح. وقد رأيت اليوم (١٢ نوفمبر) أطلال مدينة أكتيوم التي فقد عندها أنطونيوس العالم، في خليج صغير، كانت حراقتان تقومان بإجراء مناورات فيه. وكل ما بقي منها سور على وشك السقوط. ومن الجانب الآخر من الخليج تقوم أطلال نيقوبوليس التي بناها أوغسطس. كذاكار لانتصاره".

(٢) مدينة نيقوبوليس التي لا تبعد عن أكتيوم إلا قليلاً. وقيصر الثاني هو أوكتافيوس.

(٣) يرى بوكيفيل أن هذه البحيرة هي اليوم بحيرة يانينا.

(٤) هو علي باشا المشهور.

الجبسورة التي تستهين بآسه، وتتحدى من قلعتها الصخرية سلطانه، دون أن تستسلم
لشيء إلا الذهب.

-٤٨-

زتزا، أيها الجبل الديراني، أيها المأوى المقدس السعيد، على الرغم من صغرك،
من أية ناحية نظرنا حولنا، فوقنا، وتحت جباهك، فما أجمل ألوان مناظرك التي تشبه
ألوان قوس قزح، وما أشد سحر مفاتنك؛ الصخر والنهر والغاب المتوج للجبال وكل ما
حولنا، وما فوقنا من سماوات شديدة الزرقة تشيع في الكل انسجاماً؛ وتحتنا، يحدث
صوت السيل البعيد الهدار عن المكان الذي يساقط فيه الشلال بين هذه الصخور المعلقة
التي، وإن صدمت الروح فإنها تشوقها وتسرها.

-٤٩-

وأسوار الدير البيض تقوم ظاهرة وسط الغابة المتوجة لتلك الرابية الأريضة التي
ترفع إلى جوارها في صفوف عالية جبال تسودها، والتي هي أيضاً بدونها رائعة لا
تخلو من جلال. هنا في داخل تلك الأسوار الرفافة جميلة فوق الأعالي يسكن الرهبان
اليونانيون، هؤلاء الرقاق الحاشية الذين لا يبخلون بحسن الضيافة والترحاب؛ فالمسافر
يلقى عندهم سعة النوال؛ ولا يفارق هذا المكان دون تأثر، إن كان ممن يلذ لهم تأمل
مفاتن الطبيعة.

-٥٠-

هنا في أشد ساعات القيظ دعه يستريح؛ فالعشب منعش تحت هذه الأشجار
العتيقة. هنا الأنسام ذوات الأجنحة البالغة الرقة تروح على صدره اللاغب، كيما
يستروح النسيم العليل من السماء نفسها: إن السهل بعيد في أسفل - أوه؛ دعه
يقتنص السرور الصافي قدر ما في وسعه؛ إن الأشعة المحرقة لا تنفذ إلى هنا محملة
بالأوبئة. فدع الرحالة المخذول النشاط، المتمهل في تجواله، دعه يتمطى هنا تعباً،
ويعجب حسبما شاء بالفجر، وبالشمس إبان مسيرها، وبجمال الليل الساجي.

-٥١-

إن جبال كيميرا الكابية الشامخة المتطاولة إلى أبعد مدى النظر، لتمتد بعيداً من الشمال إلى اليمين، وكأنها مسرح الطبيعة البركاني: تحتها يحتاج وادٍ تدب فيه سورة الحياة، ففيه قطعان مرحة وأشجار متماوجة وأنهار جارية وصنوبر الجبال وهو يهتز في أعاليه. ألا فلتنظر إلى أشيرون^(١) الأسود! الذي كان من قبل مقدساً للقبر. أي بلوتون! إذا كان ماأراه هو الجحيم، فأغلق جنتك إذن، فظلي لن ينشدها.

-٥٢-

هذا المنظر لا تشوهه فتنته أية أبراج لمدينة. ويانينا لا ترى وإن كانت غير بعيدة، فقد حجبتهما ستائر التلال: والناس هنا قليلون، والقرى النادرة، والأكوخ الضئيلة متوحدة. ولكن الماعز وقد تعلق على شفا الهاوية يرعى العشب والشجيرات في هدوء؛ والراعي الصغير المتدثر بمعطفه الأبيض، قد تمدد على صخور وعرة؛ وإنه لينظر إلى قطيعه الشارد بعين مفكرة حائرة، فإذا هبت العاصفة، لاذ من غضبها الهائل بكهف يحميه.

-٥٣-

إيه يا دودونا^(٢)! أين خميلتك العتيقة، ونبوعك النبوي ووحيك الإلهي؟ أي وادٍ ردد صدى جواب جويتير؟ وأي أثر تراه باقياً من معبد سيد الرعد؟ كل هذا قد صار نسياً منسياً- فهل يجسر الإنسان على الشكوى، إذا كانت الروابط الواهية التي تربطه بالحياة ستقطع؟ صه، أيها المخلوق الأحمق، دع الشكوى التي لا نفع منها، فلعل مصير الآلهة أن يكون مصيرك: أوتودُ أن تحيا وتبقى أكثر من المرمر أو البلوط، إذا كانت الأمم والعوامل خاضعة لضربة الفناء!

(١) أشيرون عند القدماء، واسمه اليوم كلماس؛ وهو نهر من أنهار تسبوتيا في مقاطعة إبيرس يصب في خليج امبراتشيا، كما ذكرنا آنفاً.
(٢) دودونا، مدينة في تسبوتيا بمقاطعة إبيرس، وفي ظن البعض أنها في تساليا، وعند مشارفها تل صغير يسمى طومارس عليه كان يوحى بوحى جويتير، وهو وحى مشهور يقال إنه أقدم وحى في بلاد اليونان كلها، وكان يتم بواسطة الحمام، فتأتي حمامتان سوداوان، فيما يحدثنا هيرودوتس نقلاً عن المصريين، من مدينة طيبة في مصر، تطير إحداهما إلى معبد جويتير آمون، والأخرى إلى دودونا. وكانت الحميلة الواسعة المحيطة بمعبد جويتير هنا ذات قدرة على إلقاء الوحي، وكان غالباً ما يلتقى بواسطة البلوط المقدس والحمام القاطن في التاحية. وفي داخل هذه الحميلة كان يوجد ينبوع ذو ماء قراح، له القدرة على إضاءة مشعل بمجرد لمسه؛ وكان هذا الينبع يحف جفافاً تاماً في الظهيرة، ثم يعود إلى الجريان الكامل في منتصف الليل، وما يبدأ في الضوب حتى ينضب تماماً في الظهيرة.

-٥٤-

خلف اتشيلد هارولد حدود أبيرس وراءه، واختفت الجبال عن ناظريه، إن العين التي يرهقها طول تصعيد الطرف إلى أعلى لتشعر بالسكينة والنعيم حينما تبصر وادياً كأنعم ما يمكن أن يأتي به الربيع من مرج معشب. إن للسهل أيضاً مفاتنه الكبرى، حينما يفيض نهر قوي بأواجه الرائعة، وتتماوج الأشجار والخمائل على شطآنه، وتراقص ظلالها فوق صفحة الماء الصقيلة، أو تغفو على ضوء القمر في هجوع منتصف الليل الرائع.

-٥٥-

غابت الشمس وراء طومارس الواسع، وتجاوب هدير لاؤس الزخار الجبال؛ والتأمت ظلال الليل قليلاً قليلاً فوق الأرض، حينما رأى أتشيد هارولد، وهو ينحدر من النهر بشطآنه الوعرة الملتوية، مآذن تيبالن تلمع كأنها شهب في السماء، وأسوارها تطل على مجرى النهر؛ فلما اقترب منها، سمع جيلة عساكر تزيد في صوت النسيم الزافر في الوادي الطويل.

-٥٦-

مرّ بالقرب من البرج السكوت، برج الحرم الأقدس؛ ودخل من الباب الكبير ذي القباب، ورأى قصر هذا الزعيم الرهيب الذي دل كل ما حوالبه على جيروته وصولته. لقد جلس هذا الطاغية محفوفاً بأبها مظاهر الفخامة، وقد وقف العبيد والخصيان والجنود والضيوف والمشايخ بين يديه. إن مقامه من الداخل قصر، ومن الخارج قلعة؛ وإنه ليبدو وكأنه مجمع للناس من كل فج وجو.

-٥٧-

وثلة من الجنود الراكبين فوق جياد مطهمة فاخرة الإسراج قد رضت في فناء القصر متأهبة لكل عراك. وفي داخل القصر فرق غريبة قماً الدهاليز. ومن حين إلى حين كان الصدى في القباب يردد كدقة جواد امتطى صهوته تترى ذو عمامة ضخمة. لقد

اختلط هنا التركي واليوناني والألباني والمراكشي في أزياء متنوعة مختلفة الألوان، بينما أعلن صوت بوق الحرب الرهيب مقدم الليل.

-٥٨-

ما أروع منظر الألباني الوحشي وهو متدثر حتى ركبته، وعلى رأسه قد عصب شال، وفي يده بندقية مزركشة، وثيابه قد وشاها تطريز من الذهب؛ وما أجمل المقدوني بوشاحه القرمزي؛ و"الدلى"، وعلى رأسه خوذته العسكرية، قد حمل سيفه المنحني؛ واليوناني الزول الماكر؛ والنوبي الأسود الخصي؛ والتركي الطويل اللحية الذي لا يتنازل لمخاطبتك إلا نادراً، وهو شاعر بأنه سيد الجميع، وله من الصولة ما لا يجعله وديعاً.

-٥٩-

لقد احتفل حشدهم: فمنهم من استلقى على ظهره، متملياً بالمنظر المتنوع المبتدئ أمام عينه؛ ومنهم من يلعب أو يشعل نارجيلته؛ وفريق من المسلمين الأتقياء يصلي لله؛ وهناك ألباني يتمشي بزهو وخيلاء؛ وهناك يوناني يهمس مشرثراً. صه ! ما هذه الأصوات الجلييلة الهاتفة من فوق المسجد في هدوء الليل؟ إنه صوت المؤذن وقد هز بأذانه المثذنة، ودوى هاتفاً: "لا إله إلا الله! حي على الصلاة! الله أكبر!".

-٦٠-

كنا حينئذ في شهر رمضان، شهر الصيام، الذي يمكس المرء فيه عن الطعام والشراب طوال النهار؛ حتى إذا ما تولت ساعة الغروب المتوانية، استعاد التمتع بأطياب المأكول والمشرب سلطانه. فإذا بالحركة تدب من جديد في كل مكان، والحدم يهيئون الموائد الفخمة؛ والرواق بدأ خالياً من كل إنسان، إنما جاءت الأصوات من الحجرات مختلطةً مبهمه، وكان العبيد يغدون ويروحون باستمرار.

-٦١-

ولكن صوت المرأة لا يسمع مطلقاً في هذا المكان. لقد أغلق عليها في مكان منفصل، ولا يسمع لها بأن تخطو خطوة دون أن تكون محجبة مخفورة، وقلبها

وشخصها إنما لإنسان واحد فحسب؛ حتى ألفت قفصها، فلم تعد تستشعر رغبة في الخروج منه. إنها سعيدة بحب سيدها وبمشاغل الأمومة العذبة: المشاغل المباركة التي تسمو فوق كل العواطف والأحاسيس إلى حد بعيد.

إنها تربي بنفسها الولد الذي حملته، ولا تبعده مطلقاً عن صدر لا يعكر سلامه وجدان وضيع.

-٦٢-

اضطجع علي^(١) (باشا) فوق حشايا شهوانية تعبق بالراحة في مقصورة مرصوفة بالمرمر، ينبثق في وسطها ينبوع من الماء الحي، تنتشر عن انبثاقاته طراوة منعشة سارة. إن علياً رجل حرب وشدة؛ ولكن الرقة تسود جبينه الوقور إلى درجة لا تستطيع أن تستشف من خلفه إلى أي حد يلذ لقلبه القاسي أن يفعل فعلات وحشية دامية.

-٦٣-

وليس هذا لأن اللحية الهلّوفَ البيضاء التي تزين وجهه لا تتفق وعواطف الشباب؛ فإن الحب يهزم السن، كما أثبت هذا حافظ الشيرازي؛ وبهذا تغنى شاعر تيروس^(٢)، فصدق القول. ولكن الجرائم التي تستهين بصوت الرحمة الرقيق، والتي تبدو فظيعة في أعين جميع الناس، وبخاصة المتقدمين في السن عنهم، هذه الجرائم قد وسمت علي باشا بميسم النمر المفترس. إن الدم يدعو للدم؛ والذين بدأوا حياتهم بالدم لا بد أن يختموها بالدم.

(١) هو علي باشا يانينا الملقب بالأسد . وقد ولد في سنة ١٧٤١ في تياليني التي كان أسلافه بكوات فيها ، ولكن أباه فقد هذا المنصب . فلما نشأ عزم على استرداده ، وبدأ بالفر عصابة من اللصوص وقطاع الطرق ، واستطاع بواسطتهم استرداده ؛ وثبتته الحكومة العثمانية في منصبه . ثم استولى على يانينا في سنة ١٧٧٨ وكان هو الحاكم الفعلي المستقل على ألبانيا لأكثر من ثلاثين سنة . ولما خشي السلطان بأسه . أمر بقتله ، فقتل في قصره سنة ١٨٢٢ . وبهذا تحققت نبوءة بيرن عن مصيره في ختام الفقرة التالية .

(٢) تيوس أوتايوس ، (وتسمى اليوم سجاجق) مدينة ساحلية على شاطئ أيوليا في آسيا الصغرى تجاه جزيرة شامس ؛ وقد ولد بها الشاعر أنكريون ، وهو شاعر غنائي يوناني مشهور ، عرف بالمجون والشهوة والعكوف على المسكر ، وكان مدلهماً بحب غلام اسمه بائليوس ؛ ومقطوعاته الغنائية (أود) لا تزال باقية ، وتمتاز بالمذونية والرقّة والأناقة . وقد ازدهر حوالي سنة ١٠ ق. م .

-٦٤-

هنا أراح الرحالة أقدامه المكدودة، متملياً بكثير من الأشياء التي كانت في الغالب جديدة عليه: على سمعه وعلى بصره. وتأمل حوالبه رفاهية المسلمين وترفهم، حتى إذا ما جهدته سريعاً هذه المناظر الفسيحة الفائضة بالثروة والشهوة، لم يرقه بعد هذا المقام لعظيم أثر تجنب ضوضاء المدينة. ولو كانت هذه الدار أقل ترفاً وبذخاً، لكانت أشد عذوبة حقاً. ولكن طمأنينة القلب تبغض المسرات الصناعية، واللذة إذا مزجت الأبهة والفخفة فقدت طعمها.

-٦٥-

قاسية قلوب أبناء ألبانيا؛ لكن لا تعوزهم الفضائل، على الرغم من أن هذه الفضائل لا تزال فجة غير ناضجة. فأين هو العدو الذي رأى ظهرهم مرة؟ وأين هم الجنود الذين يتحملون مثلهم متاعب الحرب؟ إن حياتهم ليست أقل قناعة في عهد السلم منها في أيام الكوارث والخطوب. إن انتقامهم قتال، ولكن صداقتهم مأمونة. وإذا دعاهم داعي المروءة أو عرفان الجميل، اندفعوا غير مباليين إلى حيث يقودهم رئيسهم.

-٦٦-

رآهم أتشيلد هارولد في برج رئيسهم (علي باشا)، وقد هبوا جماعات كيما يخوضوا غمار الحرب في سبيل المجد؛ ورآهم أيضاً من بعد حين وقع في أيديهم، سريعاً لمهنة عابرة: في هذه الساعات التي يزداد فيها الأشرار من الناس عتواً على البائسين، تلقاه الألبانيون بالتجلة والإكرام فأووه، بينما الناس الأقل منهم وحشية كانوا في مثل هذه الظروف يتلقونه بإكرام أقل، وبنو وطنه كانوا ينبذونه. آه! ما أقل الذين تثبت قلوبهم في مثل هذه المحن!

-٦٧-

وحدث أن ريحاً معاكسة قد دفعت بمركبه إلى شاطئ سولي الصخري، بينما كان الظلام يخيم حوالبه؛ وكان النزول إلى البر خطراً، وأخطر منه البقاء فوق الأمواج

الوحشية الهائجة، تردد النوتية قليلاً، موجسين خيفة أن يكون ههنا مدعاة غرر ومخاتلة. وأخيراً تجاسروا على النزول، جزعين من أن يقعوا فريسة دامية لهؤلاء الذين يبغضون المسلمين والفرنجية على السواء.

-٦٨-

جزع لا داعي له! لقد مد السوليون إليهم يداً مرحبة، وقادوهم خلال الصخور والمستنقعات الخطرة. إنهم أكبر رحمة من العبيد المتحضرين؛ وإن كانوا أقل منهم زخرفة للمقال؛ فقد أذكوا نار الموقد، وجففوا ثيابهم المبتلة، وملأوا الكأس، وأوقدوا المصباح الجذلان، وقدموا إليهم طعاماً، وإن يكن متواضعاً، فقد كان أعز ما تملكه أيديهم. إن هذا السلوك ليحمل طابع الرحمة الإنسانية: الترفيه عن المكودود وإراحة المتعب. أيُّ درس للسعداء، وأيُّ عار على الأشرار!

-٦٩-

لكن حدث، حينما اراد هارولد توديع هذه البلاد الصخرية المضيافة، أن كان ثمة عصابة من اللصوص وقطاع الطرق الذين أشاعوا الفرع والرعب والخطر في هذا الطريق، ونشروا في كل مكان خرائب الحديد والنار؛ فأخذ حامية مخصصة، بأسلة في الحرب، صلبة في القتال، قوية على المتاعب، واجتأب في رفقتها غابات أكرانيا الشاسعة، ولم ينفصل عنها إلا حينما أبصر أودية أيتوليا^(١)، وأمواج أخيلوس الفضية.

-٧٠-

وحيث يشق أتريكي المتوحد حوضاً مستديراً فيه ترقد الأمواج اللاغبة كيما تعكس في صمت أشعة القمر، تسمر أشجار الحميلة الخضراء المجللة للرابية؛ حينما يغشيها ستار الظلام، وتتراقص برشاقة ورقة على صدر الأمواج الصامتة، بينما أنسام الجنوب تلاطف الصفحة الزرقاء للخليج التي لا يشنى ريحها الرقيق شيثاً من صفحته.

(١) إيتوليا، مقاطعة تحدها الأبيرس وأكرانيا ولوكريس في منتصف بلاد اليونان، فيما يقال. وأهلها معروفون بالجشع وسوء الضيافة. أما أخيلوس فهو نهر في ابيروس، سمي باسم إله يقال إنه تحول إليه بعد انتصار هرقل؛ وهذا النهر ينبع في جبل بندس ويصب في بحر أيونيا؛ ويقول بعضهم إن هذا النهر قد انبثق من الأرض بعد الطوفان.

هنا استقبل هارولد بالترحاب، وقد ملكه التأثر وهو يتأمل هذه اللوحة الجميلة، لأن الليل عنده مصدر لوافر اللذائذ والمسرات.

-٧١-

على الشاطئ الأملس تلالأت نيران الليل؛ وكانت مأدبة المساء قد انتهت، ودارت كؤوس الخمر الأرجوانية؛ وهذا الذي أتى إليهم فجأة (أتشيلد هارولد) توقف يحدث فيهم بعيون الدهشة. وقبل منتصف الليل، هذه الساعة المليئة بالسكون، بدأت الملاهي الوطنية للجمع الحاشد: فألقى كل بليكار^(١) حسامه، ووضع يده في يد آخر، وتماسك الكل وتواثبوا في إيقاع بديع أغانيهم.

-٧٢-

وقف أتشيلد هارولد على مسافة قليلة، ورأى في غير امتعاض هذا العيد والمرح، ولم تعف نفسه هذا المرح البريء، وإن كان فطرياً خشناً: أجل، لم يكن منظرًا تافهاً خسيساً، منظر أفراحهم البربرية، الخالية مع هذا من الإفحاش. وحينما تلالأت أشعة النيران في وجوههم، ازدادت حركاتهم خفة ونشاطاً، ورفت عيونهم السود، وتهدلت غدائرهم حتى مناطقهم في فيض من الشعر الوحشي، وغنوا جميعاً هذه الأغنية التي كانوا يرتلون بعضها، ويصيحون ببعضها الآخر^(٢):

—أ—

يا صاحبَ الطبلِ رَدِّ صَوْتِكَ العَالِي
واملاً أسودَ الوغى من طيبِ مأمولِ
هبت على الصوتِ أبناءَ لأجبالِ
أبناء كيمار ، إليرا ، إلى سولي

(١) "بليكار" مأخوذة من اختصار الكلمة اليونانية وهو الاسم المشترك لكل الجنود الذين يتكلمون الرومية بين الألبانيين . ومعناها الأصلي : فتى "بيرن) . أباه فقد هذا المنصب . فلما نشأ عزم على استرداده ، وبدأ بالفر عصابة من اللصوص وقطاع الطرق ، واستطاع بواسطتهم استرداده ؛ وثبته الحكومة العثمانية في منصبه . ثم استولى على يانينا في سنة ١٧٧٨ . وكان هو الحاكم الفعلي للمستقل على ألبانيا لأكثر من ثلاثين سنة . ولما خشي السلطان بأسه ، أمر بقتله ، فقتل في قصره سنة ١٨٢٢ . وبذا تحققت نبوءة بيرن عن مصيره في ختام الفقرة التالية .

(٢) "هذه الفقرات مأخوذة من عدة أغان ألبانية ؛ وقد استعنت بتراجم رومية أو إيطالية" (بيرن) .

-ب-

من ذا الذي بدأ هذا الأسود السـولـي
في المعطف الأبيض المنسـوج بالوبر
إلى الذناب يرد الضـأن ، والغـول
وينزل السهل مثل السيل من صخر

-ج-

أبناء كيمار لا يسدون غفراناً
إلى الصديق ، فهل للخصم إغضاء
هل نترك السيف نحو الوتر ظمـاناً ؟
بأمر مرمي ، كصدر الخصم ، إغراء ؟

-د-

بالصيد ترسل مقدينا إلى الحرب ،
فيتركون زمان الكهف والصيد
ثيابهم من نجـيع الدم في سكب
قبل السلام ووضع السيف في الغمد

-ه-

وإن قرصان برجا (١) عند بحرهم
يعلمون النصارى قسوة الذل
ويحـملون الأسارى عند شطهم
على الزوارق في الأصـفـاد والغـل

-و-

لا أطلب اللهـو بالأموال يجتلب ؛
بالسيف أكسب ما لا يكسب الفشل

(١) برجا ، ميناء على البحر ، بالقرب من سولي .

إلا جمال ؛ وعرسي بعد أكتسب ؛
كم من فتاة أسرت بعد مقتتل!

-ز-

إني أحب محيا الخود ناضرة ،
دعها تناغي بموسيقى ترددها
دعها تهیی قيشاراً موتره ،
دعها تغني وترثي موت سيدها

-ح-

أذكر سقوط ابرفيزا (١) ونكبتها ،
وصيحة الظافر الغازي ، وشكواها ؛
كم من بيوت مضت للنار طعمتها ،
لم تبق شيئاً سوى غيد هونها

-ط-

لا يعرف الخوف ، من جند الوزير فتى ،
يوماً ، ولا رحمة منه لأعدانا
من عهد أن بذى الدنيا النبي أتى ،
لم يبصر الناس ليثاً مثل باشانا

-ي-

مختاراً (٢) الشهر للدانوب قد بعثا
ابنا قوياً على الأعداء جبباً
بالجيش يأتي ، لدم ليس مكتبراً ،
يحطم الروس ، أعداء وكفـاراً

(١) استولى عليها علي باشا في سنة ١٧٩٨ من الفرنسيين الذين كسبوا في السنة السابقة ، وفقاً لمعاهدة .

(٢) مختار باشا هو ابن علي باشا الذي أرسل ضد الروس الذين كانوا بسبيل غزو المقاطعات التركية .

-يا-

يا حامل السيف شهر سيف قاندا!
يا ضارب الطبل ، عد بالحرب تأتينا
ويا جـبـالاً ترانا عند شـاطـئنا
لن تبصرينا سوى بالنصر آتينا

-٧٣-

أي بلاد اليونان الجميلة ! أيها الظلل الحزين الباقي لمجد قدا! أنت خالدة، وإن كنت غير موجودة بعد؛ أنت عظيمة، على الرغم من سقوطك! من ذا الذي سيقود أبناءك المشتتين الآن كيما يحطم قيود الاستعباد التي ترسفين فيها منذ زمان طويل؟ وا أسفاه! لقد باد هؤلاء اليونانيون الصناديد الذين تقحموا الموت الأكيد ونشدوا قبرهم الماجد الناظر بالفخر في مضيق ثرموبيليه ! أوه! أين من يستلهم هذه الروح النبيلة الباسلة؟

أين من يقفز من شطآن ايروتاس^(١)، داعياً إياك من القبر الذي ترقدن به؟

-٧٤-

أي روح الحرية! حينما رافقت ترازيبيلوس^(٢) وصحبه فوق قمة فيليه، هل قدرت العار والكوارث التي تصيب اليوم نضارة جمال سهلك الأتيكي؟ إنهم لم يعودوا ثلاثين طاغية هؤلاء الذين يكبلون أحفاد ترازيبيلوس، بل في وسع كل مسلم أن يكون السيد فوق أرضك. إن أبناءك لا يستطيعون النهوض، بل يقنعون باللعنات الزائفة التي لا

(١) ايروتاس نهر بنيت إسبرطه على شاطئه ، والذين سقطوا في ثرموبيليه كانوا من الإسبرطيين .

(٢) ترازيبيلوس ، قائد أثيني مشهور ، حاول طرد الطغاة الثلاثين ، ونجح في هذه المحاولة سنة ٤٠١ ق م . وكان صحبه فيها ثلاثون من أصدقائه فحسب . وكان جزاؤه عن هذا العمل الوطني النبيل تاجاً مصنوعاً من غصنين من الزيتون . أما فيليه فقرية في أتكا على مقربة من أثينا ، كانت جيدة التحصين ، إذ تقوم على صخرة وعرة شديدة الانحدار في الطريق من طيبة إلى أثينا . وشهرتها أنت من أنها كانت أول بقعة استولى عليها ترازيبيلوس حينما بدأ تحرير أثينا من طغيان الطغاة (سنة ٤٠٤ ق م) . وعنها يقول بيرن : "من قلعة فيليه التي تبقت منها أطلال كبيرة ، يتبدى للعين مباشرة سهل أثينا وبتليكوس وهميتوس وإيجيه والأكروبول ؛ وعندي أن هذا المنظر أروع من سنترا ومن استامبول" .

تجدي فتيلاً، ترتعد فرائصهم تحت صولة يد الأتراك الحديدية. إنهم عبيد من الميلاد حتى القبر؛ عبيد في القول والفعل، حتى لم يعودوا جديرين باسم الإنسان.

-٧٥-

كل شيء قد حال فيهم، اللهم إلا قسماوات الوجه؛ ومن ذا الذي يبصر النار التي لا تزال متقدة في كل عين من عيونهم دون أن يميل إلى الاعتقاد أن قلبهم يحترق من جديد بلهيبك الخالد، أيتها الحرية المفقودة؟ كثير منهم لا يزال يحلم بأن الساعة التي سيستعيدون فيها تراث آبائهم قريبة؛ وإنهم ليصبون إلى نجدة من الخارج، مهيبين بأسلحة أوروبا، غير متجاسرين على ملاقات العدو وحدهم، كيما يحوا اسمهم من صفحة العبودية المؤلمة.

-٧٦-

وأنتم يا من تملكون ميراثاً غير العبودية، أفلا تعلمون أن من يريد أن يكون حراً يجب أن يحطم هو بنفسه أغلاله، وأن ساعده هو وحده الذي يستطيع أن يظفر له بحريته؟ أفتظنون أنكم تستطيعون الحصول عليها بواسطة الفرنسي أو الروسي؟ ألا فلتطرحوا كل هذه الأوهام! أجل، قد يكون في وسع هؤلاء أن يذلوا أعناق مستعبيكم العتاة، ولكن نار الحرية المقدسة لن تشتعل على مذبح الحرية من أجلكم. أي أشباح الهيلوتيين^(١)؛ انتصروا على عدوكم! أي بلاد اليونان! إن غيرت سادتكم، لن تتغير حالكم البائسة؛ إن أيام مجدك قد زالت، ولكن سنوات عارك لا تزال قائمة.

-٧٧-

إن البلد الذي فتح باسم الله وأخذ من أيدي الكفار (النصارى)، يستطيع هؤلاء الكفار أنفسهم أن يستردوه من بنى عثمان؛ ولعل أبراج السراي التي لا يمكن النفوذ إليها، أن تستقبل الفرنجة الذين دخلوا من قبل^(٢). إن أبناء عبد الوهاب الثائرين^(٣) الذين تجاسروا على انتزاع الهبات الثقية التي تبرع بها المسلمون لقبر الرسول،

(١) الهيلوتيون هم العبيد العموميون في إسبرطة، وكانوا يعاملون أسوأ معاملة، كما كانوا يميزون بملابس خاصة.

(٢) في العهد الذي غزاها فيه اللاتينيون، وصاروا فيه سادة لعدة قرون (بيرن، عن جون) أو لعل الإشارة إلى احتلال الصليبيين للقسنطينية.

(٣) سقطت مكة والمدينة منذ زمن قليل في أيدي الوهابيين - وهم قبيلة عربية تزداد قوة يوماً بعد يوم (بيرن).

يستطيعون أيضاً أن يشقوا لهم طريقاً دامياً خلال الشرق؛ ولكن الحرية لن تعود مطلقاً لتسكن هذا البلد المسكين، الذي فيه تتوالى أجيال من العبيد إثر أجيال خلال قرون من الآلام والأحزان.

-٧٨-

تأمل مع هذا مرحهم، عما قليل تبدأ أيام الكفارة المسيحية التي يتهاون فيها للاحتفال بأسرارهم المقدسة كيما يرفع عن الإنسان وزر خطيئته الكبرى، بالصوم والصلاة. ولكن قبل أن تلبس التوبة خرقة الزهد، يسمح لكل بأيام لذات فيها يشارك كل بنصيبه السري؛ فيرقصون في ثياب تنكرية عديدة الشيات والألوان، ويشاركون في موكب التقليد بالكرنفال الجذلان.

-٧٩-

وأية مدينة فيها من اللهو مثل ما فيك، يا استامبول؛^(١) في هذه العاصمة القديمة لأمبراطوريتهم الواسعة، ينسى اليونانيون أن العمائم تدنس معبد أباصوفيا ومذابح اليونان (واأسفاه إن كورثها لا تزال تردد في نشيدي!). لقد كان شعراؤها مرحين جذلاتاً، لأن الشعب كان حراً، فكان الكل يشعر حينئذ بسرورهم، اليوم مضطربون إلى التظاهر به. إن عيني لم تبصر يوماً مثل هذا المنظر، ولم تسمع أذني أغنية كهذه، أغنية تردد أصداؤها على ضفاف البسفور.

-٨٠-

ترددت الضوضاء على الشاطئ عالية جذلي، وتنوعت الموسيقى، ولكنها لم تنقطع عن التنغيم، والمجاديف تضرب البحر بإيقاع منتظم، والأمواج المتراقصة لها صيحة عذبة، وملك المد والجزر^(٢) يبسم من عرشه العالي لهذا المركب الجذلان؛ فإذا ما سرى نسيم عابر فوق صفحة الماء، خيل إلى المرء أن شعاعاً رفاقاً منعكساً على الموج يعبر عن رضا الإلهة، والأمواج المتلاثلة تنير الشاطئ الذي تغمره.

(١) قال بيرون متحدثاً عن استامبول: "لقد رأيت أطلال اثينا وافسوس ودلف؛ واجتزت شطراً كبيراً من بلاد الأتراك، وكثيراً من ممالك أوروبا، وبعضاً من أقاليم آسيا؛ ولكنني لم أرأثراً من آثار الطبيعة أو الفن قد أحدث في نفسي تأثيراً مثل هذا الذي أحدثته رؤية استامبول".
(٢) القمر.

وعلى طول الزيد انزلق عدد وافر من الكيكات^(١)؛ وفتيات البلد يتراقصن على الشاطئ؛ والراقصون ومراقصاتهم قد تناسين النوم والبيت؛ وعيونهم الفاترة تتبادل النظرات الفاتانات التي لا تقوى على مقاومتها إلا نوادر القلوب؛ وأكفهم المضطربة بقشعريرة عذبة تشعر بالضغط عليها بحرارة غرام، فستجيب لليد التي تضغط عليها. أيها الحب! في نضرة الشباب! إن العاشق وقد قيّد في أكاليلك من الورد، ليدع الساخر والحكيم يثرثران ماوسعتهما الثرثرة. هذه الساعات، وهي وحدها، هي التي تشفي من أدواء سنّي الحياة.

لكن، ألا يوجد، وسط هذه الجماعة المرححة في ثيابها التنكرية، قلوب تنبض بالألم المستور، يخون تخفيها وجه شاحب كليل؟ إن صوت الأمواج يبدو لهم ممزوجاً بأنين شاك ينضم إلى أشجانهم اليائسة. عندهم (هذه القلوب) أن سرور كل من حولهم ليس إلا مصدراً لإثارة الأفكار الحزينة والخواطر الأسيانية، فلا يشير في نفوسهم إلا الازدراء الكالـح. آه! ما أشد بغضهم لهذا الضحك العالي الصخب، وما أقربهم إلى أن يستبدلوا بثياب العيد والفرح أثواب الحزن والحداد!

بهذا يجب أن يشعر كل يوناني مخلص لوطنه، لو كان في وسع اليونان أن تفخر بعد بأن فيها ابنا وطنيا مخلصاً. إنهم غير جديرين بهذا الاسم، هؤلاء الذين يتحدثون عن الحرب والجهاد وهم مستسلمون لسلم الاستعباد، وينوحون على كل ما فقدوه؛ ومع هذا يلقون طغاتهم بابتسام رقيق، ويحملون في أيديهم الذليلة منجلاً بدلاً من الخنجر الظامئ للانتقام. آه! أي بلاد اليونان! إن أقل الناس حباً لك هم هؤلاء الذين يدينون لك بالأكثر: بالميلاد، ودم البطولة، وهذه السلسلة الطويلة من الأسلاف الماجدين الذين يفضحون شعبك المنحل الآن!

(١) الكيك ، كلمة تركية تعني نوعاً من المراكب الخفيفة المستخدمة في البسفور خصوصاً ، ويسمى بهذا الاسم أيضاً في مصر .

-٨٤-

حينما تستيقظ نخوة أبناء أسبرطة وقوتهم، وحينما تنشء طيبه أبامينونداس آخر، وحينما يحمل فتیان آثينا قلباً ملاً بالشجاعة، وحينما تلد الأمهات اليونانيات رجلاً حقاً - حينئذ، وحينئذ فحسب، يمكن أن تبعني وتستعيدي حريتك ومجديك. إن ألف سنة لا تكاد تكفي لتكون دولة؛ لكن ساعة واحدة كفيلة بأن تحطمها. كم من السنين لا بد أن يمضي قبل أن يستطيع شعب أن يستعيد مجده الدارس، وفضائله الذهبية، وينتصر على الزمان والقدر!

-٨٥-

ومع هذا، فما أروع جمالك حتى في سني الحداد والأحزان هذه، أي بلاد الآلهة المفقودة والأبطال أشباه الآلهة! إن أوداءك الدائمة النضرة، وجبالك المغطاة بالثلوج^(١) لتعلن أنك لا زلت ابنة الطبيعة المدللة. إن مذابحك المحطمة ومعابذك المهجورة، وأطلالها المختلطة برمام الأبطال، كل هذا قد قضي عليه حديد المرحات. وهكذا تدرس الآثار التي أقامتها أيد فانية؛ وهكذا يفنى كل شيء اللهم إلا القيم العليا التي مجدها الأجيال.

-٨٦-

اللهم إلا عموداً متوحداً ينوح على إخوته من المحجر^(٢) القريب؛ اللهم إلا حيث يزين معبد تريونيا صخرة كولونا^(٣)، ويرف فوق الأمواج؛ اللهم إلا قبوراً منسية نصف نسيان، قبور محارين أقوياء. إن أحجارها المسودة ومرجها الأخضر ليتحديان الزمان، لا النسيان. والرحالة الأجانب هم وحدهم الذين يتوقفون، مثلي، كيما يتأملوا، ثم يزفروا: "وا أسفاه!".

(١) هناك كثير من الجبال، خصوصاً تلك التي تحمل اسم لياكورا، لا يذوب عليها الثلج كله أبداً، على الرغم من شدة قيظ الصيف؛ ولكن الثلج يذوب في السهول وهو يتأقط (بيرن).

(٢) جبل بنتليكوس، الذي كان يستخرج منه المرمر الذي بنيت به كل المنشآت العامة في أثينا. وهذا الجبل يسمى اليوم منديلي؛ وفيه لا يزال يرى كهف ضخمة نشأ عن استقلال المحجر (بيرن).

(٣) كولونا، كانت تسمى قديماً سونيوم، وهي رأس تمتد في البحر في أتكا، على بعد ٤٥ ميلاً من بيره. وكان عليها ميناء جميل ومدينة؛ وكان لمينرفا فيها معبد رائع، لا زالت منه آثار باقية.

ومع هذا فسماؤك زرقاء، وصخورك عاتية^(١)؛ وخمائلك عذبة تشيع فيها النضرة؛ وحقولك ممرعة تكسوها الخضرة؛ ولا زالت أشجار الزيتون فيك يانعة كما كانت حين كانت مينرفا تسم لك، ولا يزال جبل هيميتوس ثرياً بعسله الذهبي، عليه تبني النحلة الطروب قلعتها العاطرة، هذه الرحلة الحرة المتجولة في جوك الجبلي؛ وأبولون لا يزال يموه بالذهب صيفك الطويل؛ ومرمر منيلي لم يفقد بعد شيئاً من نصاصته العتيقة. إن الفنون والمجد والحرية تمضي، ولكن الطبيعة تظل جميلة على الدوام.

وأى طريق سلكننا، ووطننا أرضاً مقدسة؛ فلم يمتهن من أرضك جزء من أجل آثار تافهة. إنا لنجتاز عالماً فسيحاً من العجائب المنتشرة حوالينا؛ وكل قصص الموسا (الشعراء) لتبدو صادقة حقاً؛ حتى يكلم لحظ العين من الإعجاب بهذه الأماكن التي حملتنا إليها مراراً أحلامنا في نضرة الشباب: الجبال والسهول، والروابي والأوداء كلها تتحدى القوة التي حطمت معابدك الدوارس: إن الزمان قد زلزل برج أتينييه^(٢)، ولكنه أبقى على سهول مارثون الغرباء.

لا الشمس تغيرت ولا الأرض في هذا المكان؛ إنما الذي تغير هو العبد؛ وكل شيء لم يعتره تبديل، اللهم إلا السيد الأجنبي الغاصب. إنه لا يزال كما هو بحدوده القديمة وشهرته الذائعة، هذا الميدان العسكري، الذي خضعت فيه رقاب الفرس تحت سيف هلاس البتار، في هذا اليوم العزيز عند المجد، الذي أصبحت فيه مارثون كلمة سحرية، لا يكاد يُنطق بها، حتى يتجلى أمام عين السامع المعسكر والأعداء والقتال ولواء الظافرين.

(١) "لا يوجد في كل أتكنا، فيما عدا أثينا ومارثون، منظر أكثر تشويقاً من رأس كولونا. وإن الستة عشر عموداً الباقية لا تزال في نظر صاحب الماديات والفنان ينبوعاً لملاحظات ودراسات لا تنتهي؛ والفيلسوف يستطيع أن يحيي فيه المرح المزعوم لبعض من محاورات أفلاطون مع تلاميذه؛ والسائح يمتلئ إعجاباً بالمنظر الرائع الذي تبديه أمام عينيه الجزر التي تتوج بحر ايجة" (بيرن).
وأشجار الزيتون مقدسة للآلهة مينرفا.
(٢) أتينييه هي مينرفا، ويرجها هو الباثون.

-٩٠-

الميدي الهارب، وقد ألقى بقوسه وسهمانه؛ واليوناني الباسل ومعه رمحه الأحمر يطارده؛ والجبال والسهول والمحيط والانتقام والموت، التي تحارب كلها من أجل اليونان - ذلك هو المنظر الذي تقدمه مارثون؛ فماذا بقي منه اليوم؟ وأي أثر مقدس يسم هذا السهل الفسيح، ويعيد ذكرى ابتسام الحرية وبكاء آسيا؟ إجانة مكسورة، وقبرٌ متهتك، وغبار يثيره حافر جواد يمتطي صهوته أجنبي قاس جاف.

-٩١-

ومع هذا فإن بقايا مجدك الماضي ستدعو إليها دائماً أفواجاً من الرحالة الحزاني، غير المتعبين أبداً. ولن يزال السائح الذي أتت به رياح أيونيا، يحيى جو القتال والغناء الرفاف؛ ولن تزال أخبارك ولسانك الخالد يملآن شباب كثير من البلدان بمآثرك وصيتك المدوي في الآفاق. إنهما فجر الشيوخ، ودرس الشباب. إن أناشيد مينرفا والموسا سيستمع إليها الحكماء بكل إجلال وإعجاب، وسيعبدها الشعراء، حينما تقيط اللثام عن حكمتها المقدسة.

-٩٢-

إن القلب النازح ليحن إلى الوطن المهجور، إذا كانت تنتظره فيه روابط رقيقة وصلات رحيمة، ويحيا سعيداً في دار أهله. أما المتوحد، فدعه يأتي لزيارة بلاد اليونان هنا، متأملاً هذه البلاد التي تلائم حاله وتنسجم مع نفسه. إن بلاد اليونان ليس بلد الصاخب في الحشد الحافل، إنما هي المأوى لهؤلاء الذين يستهويهم الحزن. ولن يأسف على أرض ميلاده، حينما يتجول حالماً متوانياً قرب المكان الذي أقيم به معبد دلف المقدس، ويتأمل السهول التي شاهدت مصارع الفرس واليونان.

-٩٣-^(١)

دعه إذن هو وأضرابه يأتون لحج هذا البلد المقدس، ويجتازون بسلام هذه القفار الساحرة. لكن ليدعوا بقاياها وآثارها، فلا تقترب أيد مخربة من هذه المناظر، كيما

(١) أضيف هذا الجزء بعد عودة بيرن إلى إنجلترا .

تدنسها، فكفاها ما هي فيه وما لاقته حتى الآن من تدنيس ! إن هذه المذابح لم تنشأ من أجل هذه الفعلات الشائنة! تجلوا الآثار الباقية التي تجلتها الأمم من قبلكم؛ فلعل اسم وطننا أن يذكر غير مدنس في الأجيال التالية؛ ولعلك تنعم من جديد بالوطن الذي كان مهد شبابك، وتلفي فيه كل سرور بريء للحب والحياة!

-٩٤-

وأنت يا من رفعت طويلاً عن بطالتك بأناشيد عارية عن المجد، سيفنى تغريدك وسط جمع شعراء يرتفع صوتهم فوق صوتك. تخل لهؤلاء عن أكليل غار يصوحه الزمان. عبثاً يحاول التنافس من أجل الظفر به، هذا الذي لا يحفل بالنقد المر ولا بالمدح المحابي، من يوم أن تجمد كل قلب حنون يستطيع الشناء عليه. ولن يسعى المرء للإرضاء والإبهاج إن فقد كل ما يستطيع أن يهبه حبه وقلبه.

-٩٥-

وأنت أيضاً قد مضيت، أيتها المحبوبة العزيزة^(١)؛ أنت التي ربطتني إليك رابطة الشباب وعواطف الشباب؛ يا من فعلت من أجلي ما لم يفعله أحد آخر غيرك، وأبيت أن تهجريني، وإن كنت غير جدير بك ! ما معنى وجودي؟ لقد ضاع وجودك! لم تعودني بعد ماثلة هناك كيما تستقبليني عند عودتي من أسفاري الطوال. لم يبق لدي إلا الأسف على سعادة فقدتها إلى الأبد، وأيام انقضت لن أراها مرة أخرى. ألا ليبتها لم تكن، أو ليبتها تعود من جديد! ألا ليثني ما عدت هنا كيما أجد أسباباً أخرى للتجوال والأسفار.

-٩٦-

أواه! أيتها الحبيبة المحبة المحبوبة^(٢)! إن الحزن الأثر ليفكر في الماضي، ويتعلق بأفكار تزداد إغراء كلما ازدادت عنا بعداً؛ لكن الزمان سيمزق شبحك عني أخيراً.

(١) هي تيرزا، هذه الفتاة المجهولة التي بكأها بيرن .

(٢) جناس مقصود كما في الأصل .

أيها الموت الرهيب! لقد سلبتني كل ما تستطيع أن تسلبني إياه: أم وصديق^(١) وثالثة تربطني بها صلة أعز من الصداقة. إن سهامك لم تصب أحداً كما أصابتنني: فكل يوم تتهاوى عليّ الأحزان تلو الأحزان، حتى قضت شيئاً فشيئاً على البقية الضئيلة الباقية من السرور التي سمحت لي بها الحياة.

-٩٧-

هل لي إذن أن أدخل من جديد غمار الناس، وأسعى على كل ما يترفع السلام عن نشدانه؟ هل أسعى إلى المآذب والمباهج والعريضة الصاخبة الزائفة الرنين في مسامع القلوب، المشوهة للحدود الجوفاء، التاركة في النفس المرهقة المكدودة ضعفاً على ضعف؟ هل لي أن أموه قسماتي بسرور معتصب أو ضيق مستور؟ إن البسمات ليست مجار غير لدموع آتية، أو ترفع شفاهاً ذابلة يعلوها ازدراء مكشوف رغم محاولة إخفائه.

-٩٨-

ما أعظم كارثة تنتظرنا في الشيخوخة؟ أي شيء يطبع على الجبين أعماق الغضون؟ إنه أن يرى المرء كل أحيائه قد محوا من صفحة الحياة، وأن يكون وحيداً على ظهر الأرض، مثلي أنا الآن. أمام إلهي أجثو خاشعاً ضارعاً، على قلوب تمزقت وآمال تحطمت. مرّياً سريعاً، أيتها الأيام الزائفة! امضي بكل قواك كما تشائين، فلم أعد أحفل بك، منذ أن سلبنى الدهر كل ما متع نفسي، وصبى على سنوات شبابي أحزان شيخوختي.

(١) صديقه في كمبردج المسمى مثيروس، الذي غرق في نهر كام. أما الثالثة فهي تيرزا.

النشيد الثالث

"كيما يكون في هذا العمل ما يضطرك إلى
التفكير في شيء آخر؛ فلا دواء لك في الحقيقة
غير هذا والزمان"

من رسالة من ملك بروسيا إلى دالنيير،
في ١٧٧٦/٩/٧ .

-١-

أثمة شبه بين محياك ومحيا أمك؛ أي بنيتي الجميلة! أدا^(١)؛ أيتها الابنة الوحيدة
لأسرتي ولقلبي؟ عيونك الزرق، حين رأيتها آخر مرة، كانت تبسم، ثم افترقنا- لا كما
نفترق الآن - لكن وعندنا أمل.
أواه! إنني لأستيقظ مرتعداً: الأمواج تختلج من حولي؛ والرياح ترفع صوتها حتى
السماء. هاأنذا راحل، إلى أين؟ لست أدري؛ لكن مضى العهد الذي كانت فيه
شواطئ ألبيون تشيع في نفسي الحزن أو السرور وهي تختفي بعيداً عن ناظري.

-٢-

لقد صرت مرة أخرى فوق ثيغ الموج، أجل مرة أخرى! والأمواج تتواهب تحتي
كجواد يعرف راكبه. ألا تحية إلى هديرها! فلتقدني بسرعة، إلى أي مكان شاعت!

(١) أدا: تزوج بيرن مس ملبانك في ٢ يناير سنة ١٨١٥؛ وولد له منها ابنة هي أدا في ١٠ ديسمبر في السنة عينها. وقد تزوجت أدا
إيرل لوفليس، وتوفيت سنة ١٨٥٢ .

فمهما اضطرت سارية السفينة المتوترة كما يهتز عود القصب، ومهما تطايرت الأشربة الممزقة قطعاً في الهواء، فسأتابع على أي حال طريقي قدماً. إن مثلي مثل عود من العشب البحري قد انتزع من الصخر وقذف به فوق زيد المحيط كيما يسبح إلى حيث تقوده تيارات الهاوية وأنفاس العاصفة.

-٣-

في ربيع شبابي تغنيت بأسفار من نفى نفسه باختياره وفر من روحه القاتمة: وها أنذا استأنف حديثاً لم أكد أبدأه، حاملاً إياه معي كما تحمل الريح الصرصر العاتية ساحبة. في هذه القصة أجد آثار أفكار العتيقة وينبوع دموعي الجاف، هذه الدموع التي لم تترك خلفها غير سبيل مقفرة عقيم. إن سنواتي الراحلة لتسير متناقلة هادجة على بقايا رمال حياتي حيث لا تنمو زهرة واحدة.

-٤-

من أيام شبابي العاصف الوجدان باللذات والأحزان فقد قلبي وقشارتي وترأ، فصار في غير انسجام؛ ولعلي أحاول اليوم عبثاً أن أغني كم كنت من قبل أغني. لكن على الرغم مما يبعث هذا من أسى، فإنني سأتعلق به، كيما ينتزعني من الحلم المرهق بحزن أثر أو سرور، فيحيطني بهالة من النسيان؛ فتبدو لي أنا أنشودة لا تخلو من متعة وإحسان، وإن لم تبد هكذا لغيري من الناس.

-٥-

من عاش طويلاً في عالم الأحزان، وتعمق الحياة في حتى القاع بالأفعال لا بالسنوات، حتى لم يعد يدعشه شيء، ولم تعد سهام الحب أو الألم أو الشهرة أو الطموح أو الكفاح تصيب قلبه بنصل الاحتمال الصامت الحاد- إن هذا ليستطيع أن يبنى لماذا يبحث الفكر عن ملجأ له في الكهوف المنعزلة، ولكنه يرى في هذه الكهوف تصاوير خيالية وأشكالاً تظل على حالها، برغم قدمها، في صومعة الروح المسحورة.

-٦-

إننا نهب خيالننا شكلاً وصورة من أجل الخلق، من أجل أن نحيا بواسطة الخلق حياة مليئة عميقة، محققين بهذا الحياة التي نتخيلها ونبتدعها، كما أفعل أنا الآن. من أنا؟ لست شيئاً، ولكنك لست كذلك، يا روح أفكاري! يا من أجتأب معها الدنيا، غير مرئي، وكان في وسعي أن أتأمل كل شيء، مشتتلاً بنيران روحك، ممزوجاً بميلادك وأصولك، مستشعراً بك قدرة على الإحساس جديدة، في الوقت الذي تبدت فيه حساسيتي وكأنها أوشكت على الزوال.

-٧-

لكن يخلق بي أن أفكر بطريقة أكثر وضوحاً: لقد أطلت التفكير وتركت نفسي فريسةً لأشد الأفكار ظلمة وحلوياً، حتى صار عقلي المحترق المنهوك دوامة من الخيال واللهيب: فإنني لم أتعلم في شبابي كيف أروض قلبي، لذا تسممت ينابيع حياتي. اليوم صار الأمر متاخراً كل التأخير. فقد تغيرت حقاً؛ لكن بقيت لدي فضلة من القدرة على احتمال ما لا يستطيع الزمان القضاء عليه، وعلى التغذي بفاكهة مرة دون اتهام الأقدار.

-٨-

وكفانا من هذا القدر- فقد صار الآن في غمرة الماضي، وختم عليه السحر بخاتم الصمت.

إن هارولد الغائب منذ زمان طويل قد ظهر أخيراً من جديد؛ وإن قلبه يود ألا يحس بشيء، لكنه جريح تمزقه كلوم إن لم تكن قاتلة، فهي لا تقبل الشفاء. والزمان الذي يغير من كل شيء قد أحال روحه وقسماته كما أحال عمره: لأن السنين تختلس الشعلة من الروح، كما تختلس من الأعضاء قواها؛ وكأس الحياة المسحور لا يتلألأ إلا عند الحافة.

-٩-

لقد أفرغ هارولد كأسه سريعاً، ووجد الشماله مرةً كالحنظل. ثم ذهب يملؤها مرةً أخرى من ينبوعٍ أصفى وأطهر، ينبثق في أرض مقدسة، وخال أنه ينبوع خالد، لكن

عبثاً ! فإن أغلالاً مستسرة قد أحاطت به وأرهقته وإن كانت غير مرئية، وحطمت قواه وإن كانت لا تصلصل. فلما مزقه الألم، الذي أضناه صامتاً، شعر بازدياد آلامه كلما خطا خطوة، وفي أي مكان اختار أن يقيم.

-١٠-

ولما تحصنَ بعدم الاكتراث، خيل إليه أنه يستطيع أن يعاشر الناس من جديد، وظن أن روحه قد صارت اليوم من المناعة والأمان بحيث لم تعد تخشى أن يصيبها ما يحزنها، وإن لم يأتها ما يسرها. وفي هذا الحشد الذي كان فيه وحيداً لا يحفل به إنسان، راح ينشد موضوعاً خليقاً بالتفكير، كهذه الأشياء التي رآها فيما أبدع الله والطبيعة صنعه في البلاد البعيدة التي زارها.

-١١-

لكن من ذا الذي يرى ا لورد متفتحاً ولا يود اقتطافه؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يعجب بنعومة الجمال وروائه دون أن يشعر بأن قلبه لا يمكن أن يهرم كله؟ ومن ذا يقدر على تأمل النجم الذي يجعله المجد مضيئاً فوقه هاوية الطموح دون أن يقذف بنفسه كيما يجتاز هذه الهاوية؟ إن هارولد، وقد دخل مرة أخرى في زحمة الناس، قد جُرُّ به مع الدهماء المبلسين، فصار يطارد الزمان، لكن من أجل غاية أنبل من تلك التي كانت من قبل لديه في ربيع حياته.

-١٢-

غير أنه سرعان ما تبين أنه أقل الناس قدرة على استبطان سواد الناس، ممن لا تجمع بينهم وبينه وشيجة ولا مشابهة. فإن روحه لم تعرف مطلقاً كيف تخضع أفكارها لأفكار الآخرين، ولم تكن تستطيع أن تخضع إلا لنفسها. إنما كانت ثائرة على كل إحاء أجنبي، فخوراً بقنوطها، قد حملتها الكبرياء على عدم الانقياد إلى أي مخلوق كائناً من كان. أجل، لقد كان هارولد قادراً على أن يجد الحياة في داخل نفسه، وأن يتنفس دون بني الإنسان.

-١٣-

فهناك حيث تقوم الجبال، يجد الأصدقاء؛ وحيث يتلاطم موج المحيط، ينشد لنفسه المأوى؛ وحيث تمتد السماء الصافية والجو الملتهب، كانت لديه النوازع إلى التجوال. والصحراء والغابة والكهف وزيد الموج الصاخب، كلها كانت له أصدقاء: فقد كانت تتحدث إليه بلغة متبادلة أوضح من لغته الوطنية، حتى رغب في أن يطرح ما كتب بلغته من أجل أن يفرغ لأسفار الطبيعة الرفافة على مرآة البحيرة تحت أشعة الشمس اللامعة.

-١٤-

إن مثله مثل الكلداني، يستطيع أن يتأمل النجوم، حتى يملأها بسُكَّانٍ يلمعون كما تلمع أشعتها؛ هنالك تنسى الأرض وما عليها من تفاهات ووضاعات إنسانية. ألا ليته قد استطاع أن يسمو بروحه إلى تلك الآفاق، إذن لكان سعيداً؛ ولكن الطين الذي منه صنع الإنسان يقضي على شعاعه الخالد، حاسداً إياه على هذا النور الذي يسبب إليه، كيما تنقطع الرابطة التي تحول بينه وبين تلك السماء التي تهيب بنا إليها في شوق وحنين.

-١٥-

أما في مساكن بني الإنسان، فإن هارولد قد صار قلقاً لاغياً، محزوناً ممزقاً، يترنح كالصقر الوحشي المهيبض الجناح، بعد أن كان مقامه في الهواء الطلق اللامحدود وحده: ثم ما لبث أن انتابته نوبة، حاول أن يقهرها ففعل كما يفعل الطائر السجين الذي يهاجم حديد القفص بصدرة ومنقاره، حتى يصبغ الدم ريشه بالحمرة، وتحرق حرارة روحه السجين صدره الممزق.

-١٦-

وها هو ذا الآن قد شرع من جديد، وهو النافي نفسه بنفسه، في التجوال؛ لم يدع من الأمل شيئاً وراءه، وإن كان حزنه قد تضاعف. وإن علمه بأنه قد عاش في طائل،

وأنه لن يكون ثمة شيء فيما وراء القبر، قد أضفى على بأسه بسمة كالحة، بسمة إن تكن وحشية- كتلك التي ترى على وجوه الملاحين حين ينظرون إلى بقايا سفنهم الغارقة ويتأهبون لملاقاة مصيرهم بجنون وتهور. فإنها مع هذا توحى بابتهاج لم يفكر في طرده عن نفسه.

-١٧-

قف! فإنك تطأ هنا تراب أمبراطورية^(١)! هنا انقبرت آثار زلزال! ألا يقوم في هذا المكان تمثال هائل، بل ولا عمود يخلد ذكرى انتصار؟ كلا، لا شيء. لكن الحقيقة السافرة فيها عظة أكبر. فلتبقي هذه الأرض كما كانت! انظر كيف أخضبت الأمطار الحمراء هذه التربة وأشاعت فيها النماء! فهل هذا كل ما كسبه العالم من هذه المعركة الأولى والأخيرة، أيها "الانتصار" الواهب العروش والتيجان؟

-١٨-

وهارولد واقف وسط هذا السهل المفروش بالعظام، قبر فرنسا، ووترلو الرهيبة! كيف تمحو القوة التي أعطت، كيف تمحو في ساعة ما وهبته من عطايا، ناقلة المجد والشهرة من يد إلى أخرى، هذا المجد الزائل العابر مثلها؟ ههنا خلق النسر تحليقته الأخيرة وانقض على أعدائه، ومزق الميدان بمخالبه الدامية، ولكن سهم الأمم المتحدة قد نفذ في صدره، فضاعت حياة المجد والطموح وذهبت أفعاله سدى، وصار يحمل الحلقات المتناثرة من أصفاد العالم المحطمة.

-١٩-

جزاء عادل! إن فرنسا تعض على لجمها وتزيد من قسوة أغلالها. لكن هل صارت الأرض بهذا أكثر حرية مما كانت؟ أحرارت الأمم من أجل إخضاع رجل "واحد"؟ أو قد اتحدت كلها من أجل أن تعلم الملوك جميعاً ما هي السيادة الحققة؟ ماذا! أستظل العبودية أيضاً من جديد وثناً تعبده عصور التنوير هاتيك؟ ونحن الذين جندلنا الأسود،

(١) أمبراطورية نابليون، وقد كان بيرن شديد الإعجاب بها.

هل سندن بالطاعة بعد للذنب؟ هل سنظل نحشو بخضوع وذلة أمام العروش؟ كلا؛
لننتظر قبل أن نمدح ونمجد.

-٢٠-

فإذا كان الملوك غير جديرين بهذا التمجيد، فلا نفخز بعد بسقوط طاغية! عبثاً
سالت إذن العبرات الحارة على الحدود الناعمة، بكاءً على أزهار أوربا التي استأصلها
طاغية داس كرومها. وعبثاً تحمل الناس سنوات طوياً من الموت والتخريب والاستعباد
والرعب، قضي عليها اتحاد الملايين من البشر الذين هبوا ونهضوا للإجهاز عليها؛ إن
المجد لا يكون عزيزاً عند الشعوب المحررة إلا إذا جَلَلَّ الأَسُّ سيفاً كهذا الذي جرده
هرموديوس على طاغية أثينا^(١).

-٢١-

ترددت ضوضاء عيد يحتفل به في الليل: فإن عاصمة البلجيكين قد حشدت نبلاءها
وحسناتها، وتلاأت المصابيح بأضوائها على وجوه الحسان والشجعان. آلاف القلوب
تنبض بالسرور، حتى إذا ما علت الموسيقى بتموجاتها الصوتية الشهوانية، تبادلت العيون
الناعمة نظرات الغرام وتحدث بعضها إلى بعض، وسرت النشوة في الجمع كصوت ناقوس
الزفاف. ولكن صه، اسمع! إن صوتاً عميقاً يتردد كأنه صوت النعي الحزين.

-٢٢-

ألم تسمع شيئاً؟. كلا إن هذا لم يكن غير صوت الريح أو جلبة العربة على الطريق
الصخري. ألا فلتواصلوا الرقص، ولا تدعوا السرور يقف عند حد! ولا نوم حتى
الصباح، حين يلتقي الشباب باللذة من أجل طرد الساعات الحمراء الخفيفة الأقدام. لكن

(١) الإشارة هنا إلى النشيد المشهور الخاص بهرموديسو وارستوجيتون، وهو: "سأضفر سيفي بنصن من الأس، هذا السيف الذي جندل
الطاغية، حينما أعطى الوطنيون المتحررون إلى الحرية والمساواة إلى أثينا. سلام لك، يا هرموديسو! أنت يامن أعوزك النفس، إنك
لن تشعر مطلقاً بضرية الموت؛ وإن جزر الأبطال السعيدة ستكون المقام الرائع المنوخ لك. سأضفر سيفي بنصن من الأس، هذا
السيف الذي جندل هبارخوس، حينما ركع أمام معبد أثينيه، ولم ينهض بعد. فإذا فهم معنى الحرية، سُرَّ الصالح والحكيم. لقد
استعلمت أن تحرر وطنك، وأن تنتشر فيها المساواة أمام القانون" وهيباس وهبارخوس كانا وُلدين لبيروستاتوس طاغية أثينا؛ وقد
خلفاه في الحكم. أما هبارخوس فقد قتل هورموديوس وارستوجيتون لأسباب شخصية؛ وكانا قد أخفيا سيفهما في أوراق آس.

أصغ! إن هذا الصوت الثقيل قد استأنف تردده، وكأن السحاب يردد أصداؤه. وإنه ليقترّب من هذه الأماكن قليلاً قليلاً، ويزداد وضوحاً ورهبة. السلاح، السلاح! إنه صوت المدفع الصاخب الهدار.

- ٢٣ -

إن أمير برنزفك البائس قد جلس في كوة نافذة من نوافذ بهوه العالي؛ وكان أول من سمع هذا الصوت وسط هذا الاحتفال، والتقط نغمته بأذن الموت المنتبهة. وحينما تبسموا لأنه ظن أن هذا الصوت قريب، أدرك قلبه حقاً تلك الطعنة القاتلة التي جعلت أباه ممدداً فوق نعش دام^(١)، والتي تهيب به أن يثأر ثاراً لا يشبعه إلا الدم. فانطلق إلى الميدان؛ وسقط صريعاً في الصفوف الأولى.

- ٢٤ -

آه! الناس يفدون مهطعين هنا وهناك؛ والعيون كلها تفيض بالدموع؛ والجمال الخجول يستشعر الرواع؛ وشحوب قاتل قد علا الخدود التي كانت منذ قليل تحمر خجلاً عند سماع إطراء جمالها. ثم كانت توديعات مفاجئة، وتنهدات أليمة لعلها أن لا تتكرر بعد يوماً ما. فمن ذا يستطيع أن يحدث إذا كانت هذه العيون العاشقة ستلتقي من جديد، ما دامت هذه الليلة العذبة قد تلاها صباح كهذا مريع؟

- ٢٥ -

وها هم الفرسان يبادرون امتطاء صهوات الجياد، والكتائب تحتشد، والعربات تزم، والكل يهرع إلى الميدان بسرعة هائلة وينتظم في صفوف القتال؛ والرعد العميق يهدر من فوهات المدافع من بعيد؛ وفي المدينة يقرع الطبل المنذر بإيقاظ الجنود قبل أن تلمع نجمة الصباح. لكن المواطنين قد احتشدوا وفي وجوههم رهبة الروع، وتهامسوا بشفاه شاحبة: "إنه العدو! ها هو ذا قادم!".

(١) جرح والد دوق برنزفك جرحاً قاتلاً في معركة بينا .

-٢٦-

وتردد نداء أبناء كمرون وحشياً عالياً! إنه نشيد حرب لوشيل^(١) الذي طالما سمعت له روائي ألين^(٢) كما سمع له أيضاً السكسون أعداؤه. أواه! وقع هذه الأنغام العسكرية في الظلام! غير أنه، كما أن النفخ يحيي الزمار ذا القرية، فإن هذه الموسيقى تملأ قلوب الجبليين بجسارة حربية هائلة، وتلقى على أسماعها أبناء مغامرات إيفان ودونلد^(٣).

-٢٧-

إن غابة الأردن تهدد في أعاليها أغصانها المخضرة؛ وأشجار البلوط المجللة بأنداء الصباح تتبدى وكأنها تبكي على الشجعان السائرين إلى القتال، إذا كان لأيي جماد أن يبكي. أواه! قبل أن يقبل المساء، سيداس على هؤلاء كالعشب الذي يطأونه هم الآن. أجل إن هذا العشب سيغطيهم هم بخضرتهم، حينما تصرع هذه الكتلة المليئة بالشجاعة الحية، وهي تنقض على عدوها يحدوها الأمل العالي.

-٢٨-

لقد رأهم آخر نهار مليئين بالحياة المتوثبة، وشاهدهم آخر مساء مغمورين بنشوة السرور وسط حلقة من الغادات الحسان. لكن منتصف الليل قد أتاهم بنذير الكفاح، وما أصبح الصباح حتى تجلجوا بال سلاح، وفي النهار تلالأت كتائبهم المسلحة المتحفزة. وتجمعت السحب المنذرة بالرعد من فوقهم، ثم انفجرت عن أشلاء امتلأت بها الأرض حتى تغطت بطين جديد قد تكدس: فالفارس والجواد، والصديق العدو - كلهم قد دفنوا في قبر أحمر واحد.

-٢٩-

إن مجدهم قد تغنى به شعراء، قيثارتهم أسمى من قيثارتي؛ لكن ثمة من بين هؤلاء الأبطال بطلاً أصطفيه لإنشادي، أولاً لأكفر عن ذنب أتيته نحو أبيه، وثانياً لما

(١) لوشيل أسم مقاطعة زعيم آل كمرون .

(٢) ألين . هي هنا استكلنده .

(٣) سيرايفان كمرون ، الذي حارب في كيليكركي في صفوف الملكيين ؛ وخفيده دونلد المشهور بلقب "لوشيل الرقيق" .

بيننا من وشائج الدم، وثالثاً لأن الأسماء اللامعة تمجد الغناء. إن اسمه ليرف من بين أعظم الأبطال الشجعان؛ وحينما أنارت صواعق الموت صفوف شجعاننا، حيث بلغ التذبيح والقتال أوجه، لم تصب هذه الصواعق قلباً أنبل من قلبك، أي هورد^(١) الشاب الشجاع!

-٣٠-

الآن وقد حطم مصابك كثيراً من القلوب، وأجربي ما أجربي من العبرات، ما عسى أن تكون عبراتي، لو كان في وسعي تذارف شيء؟ غير أنني حين صرت إلى جوار الشجرة ذات الغصون الخضر التي فقّدت الحياة إلى جوارها، وحين رأيت من حولي حقولاً مملأً بالثمار، والربيع قد أتى يعمل عمله الفائض بالخير والسرور، وأسراب الطير الجريئة تحلق على حفاقي موكبه، أشحتُ بصري عن كل ما أتى به، والتفت إلى ما لم يستطع الإتيان به.

-٣١-

لقد أهبت بروحك وبأرواح هذه الآلاف من الأبطال الذين حَلَفَ كل منهم فراغاً أليماً في قلب أهله وأحبائه. ما أسعد هؤلاء الذين يبكون عليهم، لو استطاعوا أن ينسوهم! إن بوق الملاك لن يوقظ إلاً عواطفهم. أجل، قد يكون في وسع صوت الشهرة أن يخفف لحظة حزن صديق يدعو بلا جدوى صديقاً قد فارق الحياة، لكنه لا يستطيع أن يهدئ ثائرة الشوق الملح غير المجدي، بل يزداد هذا الاسم المبجل إعزازاً، وملاً الحنين إليه النفس عذاباً ومرارة.

-٣٢-

إنهم ينوحون، ولكنهم في النهاية يبسمون، وهم في بسمااتهم يتوجعون: وستذبل الشجرة طويلاً قبل أن تسقط. إن المركب ليسير، على الرغم من أن الشراع قد تمزق

(١) هو الصاغ فردريك هورد، ابن العم الثاني لبيرون. وقد كان أبوه وصياً على بيرون؛ والذنب الذي آتاه بيرون في حق هذا الولد هو أنه هاجمه في "الشعراء الإنجليز والنقاد الاسكتلنديون".

والسارية قد تحطمت؛ وإن سقف القصر ليسقط، لكن أطلاله تستمر طويلاً تملأ الأبهاء
الخواوية؛ وإن السور المتداعي ليظل قائماً، حينما تعصف الزوابع بشرفاته؛ والأغلال
تبقى بعد المغلول بها؛ والنهار لا يزال يمضي على الرغم من السحب التي تحجب
الشمس: وهكذا يتحطم القلب بالألم دون أن ينضب ينبوع الحياة.

-٣٣-

إن القلب الذي مزقته الخطوب شبيهه بالمرأة المكسورة التي تتكرر في كل أجزاء
الزجاج، وتصنع آلاف الصور من صورة كانت واحدة، وستظل هكذا كلما ازداد
تكسرها: فإنه لا يزال يحمل طويلاً كل آلامه؛ ويظل هادئاً، بارداً، خالياً من الدم، لا
تأخذ آلامه سنة ولا نوم، ولكنه يستمر في الذبول حتى يشيخ كل ما حواليه، دون أن
يظهر أي شكوى، لأن هذه الأشياء فوق متناول كل تعبير.

-٣٤-

إن في ياسنا لحياة و أي حياة، ألا وهي حياة السم: إنه جذر حي يغذي هذه
الأغصان الذابلة. لأن اليأس لن يكون شيئاً ذا بال إن أماتنا؛ لكن الحياة تنضج ثمار
الألم المريعة، مثلها مثل التفاح النامي على شواطئ البحر الميت، هذا التفاح الذي لا
يعطي للمسافر العطشان إلا طعم الرماد^(١). لو حسب الإنسان عمره وفقاً لساعات
سروره، وقارن هذه الساعات بالباقي من حياته - فهل يُعدُّ عمره بعد ستين سنة؟

-٣٥-

إن صاحب المزامير^(٢) قد حسب عمر الإنسان؛ وإن مقداره لكاف بل وكبير حقاً،
إذا كان لنا أن نصدق أخبارك، أي ووترلو ! أنت يا من قصرت أيضاً من هذه الحياة
القصيرة بطبعها. إن ملايين من البشر لينطقونَ باسمك الذي صار مشهوراً، وسيردده
أحفادهم صائحين: "في ووترلو امتشقت الأمم المتحدة الحسام؛ وإن أجدادنا كانوا
يحاربون في ذلك اليوم الرهيب!" وهذا كثير، وهو كل ما سيبقى من ذكراها.

(١) "على شواطئ بحيرة أسفلت تنمو أشجار لها ثمار يقال عنها إنها رائحة الجمال في مظهرها الخارجي، لكنها لا تشمل في داخلها إلا

على الرماد. راجع تاكتوس، التاريخ، ١٠، ٥٠-٧ (بيرون).

(٢) النبي داود، في "المزامير"، ١٠٠، ٩٠٠: "أهلم عمرنا ستون سنة وعشر".

-٣٦- (١)

هنا في ووترلو سقط أعظم بني الإنسان، هذا الذي لم يكن شر الناس. لقد كانت روحه مزيجاً من المبادئ المتناقضة، فكانت تتعلق حيناً بأجل الأشياء، وحيناً آخر بأقلها، وكل هذا بإصرار ثابت وعزم وطيد في كلا الحالين. لقد كان متطرفاً بل وطرفاً في كل شيء! أه! لو أنك اتخذت الوسط، إذن لبقى عرشك قائماً، أو لم يكن قد وجد مطلقاً؛ لأن المخاطرة هي التي رفعتك وهي التي أسقطتك؛ بل أنت لا تزال تسعى الآن أيضاً إلى استعادة مجدك الأمبراطوري، وزلزلة العالم مرة أخرى، أيها الرعد الذي دوى في أنحاء الدنيا!

-٣٧-

أنت فاتح الدنيا وأسيرها معاً! إنها لا تزال ترتعد منك، وإن اسمك الرهيب لم يتردد في عقول الناس مثلما يتردد الآن. وقد دالت دولتك ولم تعد بعد شيئاً، اللهم إلا أن تكون ألعوية في يد الشهرة. هذه الشهرة التي ناغتك من قبل، وصارت خادمة لك، ومتملقة لقسوتك وصولتك، حتى صرت تنظر إلى نفسك كإله: أجل، لقد تبدّيت على هذا النحو أيضاً في عيون هذه الأمم المشدوّهة التي أذهلتها فحسبتك طويلاً في نظرها كما أنت في نظر نفسك.

-٣٨-

لقد كنت دائماً فوق أو تحت مستوى الإنسان، إن في اوج عظمتك أو في حضيض شقائك: في قتالك الدنيا بأسرها، وفي فرارك من ميدان المعركة الأخيرة؛ وحيناً كنت تستعين برعوس الملوك كسلم لك، وحيناً أكثر خضوعاً من أدنى جنودك. لقد كنت قادراً على تحطيم أمبراطورية والسيطرة عليها وإنشائها من جديد، لكنك لم تقدر على التحكم في أضال عواطفك وشهواتك! لقد كنت ماهراً في فهم الناس، لكنك لم تستطع أن تفهم نفسك، ولا أن تخفف من شهوتك للقتال؛ أجل، لقد جهلت أن الحظ حينما يطلب كثيراً، يهجر حتى أعز النجوم.

(١) هنا يبدأ بيرن حديثه عن نابليون .

-٣٩-

ومع هذا فإن نفسك قد تجلّدت للكوارث واحتلمت مصيرها بهذا النوع من الفلسفة الفطرية التي تكون حيناً حكمة أو بروداً أو كبرياء عميقة، لكنها كانت دائماً صاباً وسمّاً زعافاً في نفوس الأعداء. حينما كانت جحافل الكراهية ترنو إليك كيما تسخر من رهبتك، كنت تبسم بعين هادئة متجلدة. إن الحظ حينما خان طفله المدلل، بقي هذا الطفل ثابتاً تحت أمطار الكوارث التي انهمرت عليه انهمازاً.

-٤٠-

أنت اليوم أعظم حكمة مما كنت في أيام مجدك وجلالك! لأن الطموح قد أشاع في نفسك آنذاك احتقاراً بادياً للناس ولأفكار الناس. ولقد كان احتقاراً عادلاً؛ لكن هل يخلق بك أن تعبر عنه بشفتيك وجبهتك؟ أكان جديراً بك أن تنبذ بازدراء أدوات أمجادك، الذين انقلبوا أخيراً عليك من أجل تحطيمك؟ آه! إن هذا العالم شيء تافه إن اكتسب أو فقد؛ وأنت برهنت على هذا وأحسست به، كما أحس به كل من اختاروا هذا المصير.

-٤١-

آه! لو أنك خلقت لكي تقوم أو تسقط وحدك، كبرج على قمة صخرة عاتية، إذن لأعانك احتقارك للبشر على مجابهة الصدمة التي ارتطمت بها. لكن أفكار الناس كانت خطوات عبّدت سبيلك إلى السلطان والعرش؛ وكان إعجابهم هم خير سلاح في يديك. لقد كنت اسكندراً آخر، فلم يكن لك أن تفعل ما فعله ذيوجانس من احتقار الناس، إلا إذا عزمت على خلع ثياب الملك؛ فإن الأرض ستكون إذن كهفياً واسعاً كل السعة بالنسبة إلى الساخرين المتوجّين.

-٤٢-

لكن الهدوء جحيم بالنسبة إلى النفوس المتوثبة. وهذا كان سبب شقائك ويلاتك. إن ثمة ناراً وحركة في النفوس التي تأبى أن تحصر في دائرة وجودها الضيقة، بل تصبو إلى ما واء حدود الرغبة المتوسطة المعتدلة. إنها حين تشتعل مرة بهذه النار العسيرة

الإطفاء، لتتحرق عطشاً ولواحاً إلى المخاطر العالية، ولا تتعب من شيء إلا الراحة؛ هذه النار حمى في القلوب، قاسية على كل من يحملها، وكل من أصيبوا بها.

-٤٣-

إنها هي التي تصنع هؤلاء المجانين الذين ينقلون جنونهم بالعدوى إلى بقية الناس: من فاتحين غزاة وملوك، ومؤسسي شيع ومذاهب، يضاف إليهم الفسسطانيون والشعراء والساسة، وما إليهم من كائنات يعذبها القلق، وتهز بشدة كل الأوتار الخفية في النفس وهم أنفسهم فرائس خداع لمن يخدعونهم. إن مصيرهم مرموق وإن لم يكن خليقاً بهذا الرمق والحسد؛ فكم من آلام مرّة يعانون! لو كشف الناس عن قلوب هؤلاء لتلقوا درساً نافعاً في احتقار المطامع في الظهور والسلطان.

-٤٤-

إن أنفاسهم لهاث، وحياتهم عاصفة تحملهم حيناً في الهواء كيما تلقي بهم بعد على الأرض. لكنهم قد ألفوا هذه الحياة العاصفة إلى حد أنهم إذا بقوا بعد الأخطار التي يواجهونها ورأوا هدوء الأصيل يتلو نهار الأخطار البراق، فإنهم يشعرون بإرهاق الحزن لهم ويموتون من فرط التراخي، كالنار التي تهمل فلا تذكى، فلا ينبعث منها إلا لهيب مترنح، أو كالسيف الذي يصدأ من عدم استعماله، ويأكل نفسه دون أن يظهر أمجاداً.

-٤٥-

إن من يصعد قنات الجبال، يشاهد أن الثلوج أو السحب تغطي أشدها ارتفاعاً. والإنسان الذي يخضع الناس لسلطانه، أو يتذركهم بعقريته، لا بد أن يتوقع الكراهية والغل من جانب هؤلاء الذي ينبذهم أسفله. فعلى الرغم من أن شمس المجد تشرق وتلمع فوق رأسه، وعلى الرغم من أنه يرى أسفله الأرض والمحيط، فإن صخوراً مجللة بالثلوج تحيط به، والعواصف تزار وتهدهه: ذلك ثمن الأفعال التي تقود إلى تلك الأعالي.

-٤٦-

ألا بعداً لها إذن! إن عالم الحكمة يوجد في الحكمة نفسها، أو فيك أنت، أيتها الطبيعة، أيتها الأم الحنون! فمن ذا الذي يقدر على منافستك في جمالك؟ آه! ما أروعك هنا على ضفاف نهر الرين الباهر الطلعة والجلال! هنا يحقد هارولد في أعمال إلهية، هي جماع لكل ما في الطبيعة من مفاتن وجمال: المياه الجارية والأوداء الأريضة، والشمار والأغصان المورقة، والصخور والغابات، والحقول ذوات الحصاد، والجبال، والكروم، والقصور الشامخة التي هجرها أهلها فتفتقت عن توديعات حزينة بعثت بها من أعالي شرفاتها وواجهات جدرانها التي أحاطت فيها الأعشاب بالحراب.

-٤٧-

وها هي ذي تقوم هناك، كما تقوم الروح العالية، تحطمت ولكنها لم ترزع للدهماء الوضعاء؟ إنها خاوية لا تسكنها إلا الرياح التي تنفذ إلى مخادعها من ثقبها؛ ولا تتصل إلا بالسحب المظلمة. لقد كان لها من قبل عهد نعمت فيه بالشباب والكبرياء؛ وكانت الألوية ترفرف من فوقها عالية؛ وكثير من المعارك قد نشب عند أسوارها. لكن جميع المحاربين الذين ناضلوا دونها صاروا يرقدون اليوم في قبر دام، والألوية التي رفرقت قد تمزقت واستحالت إلى تراب؛ وهذه الأبراج الشاحبة لم تعد تحتل بعد أية ضربة.

-٤٨-

تحت هذه السقوف، وفي داخل هذه الجدران، أقامت القوة وسط نوازعها. وأصحابها من رؤساء المناسر قد دافعوا بافتخار وصولاً عن قصورهم المحصنة، وفعلوا ما أملت عليهم إرادتهم الشريرة، وكانوا في تباهيهم لا يقلون عن كبار الأبطال ذوي التاريخ العريق المجدي. ماذا كان يعوز هؤلاء الغزاة الخارجين عن القانون، إلا أن يشتروا ذمة المؤرخين كيما يكرسوا لهم صفحات في كتبهم؟ أكان ينقصهم مكان أفسح؛ وقبر مزوق؛ إنهم لم يكونوا أقل شجاعة، ولم تكن آمالهم أقل سعة وحرارة.

-٤٩-

كم من أعمال مجيدة أتاها هؤلاء في منازعاتهم حول الشرف والإقطاع؛ لكن طواها الزمان! والحب، الذي يُعيرُ شعاره لدروعهم ويسجل عليها عبارات حنان فخور، قد استطاع أن ينفذ من خلال صفائح قلوبهم الفولاذية. لكنه لم يشعل من حروب. كم مرة رأت هذه الأبراج، التي استولى عليها من أجل حسناء، نهر الرين يجري ممزوجاً بالدماء تحت أنقاضها!

-٥٠-

وأنت أيها النهر الظافر النشوان، الزاخر الفيضان! إن أمواجك بركةً ونعمة للشواطئ التي يستطيع جمالها أن يبقى أبداً، لو ترك الإنسان خليقتك الرائعة هاتيك على حالها، ولم يقض على وعودها الجميلة بمنجل المعارك الفتاك. آه! هنالك يصبح منظر الوادي الذي يرويه ماؤك العذب فردوساً حقاً. بل ماذا ينقص تبارك الآن، كما يتبدى لي على هذا النحو؟ يعوزه أن يكون ليشيته (نهر النسيان).

-٥١-

لقد كنت مسرحاً لآلاف المعارك؛ ولكنها زالت وباد نصف شهرتها؛ وإله المذابح طالما كدس الجثث والأشلاء على شطئانك. وإن قبورهم نفسها قد درست وعفت، ومن هم هؤلاء؟ إن تبارك قد رحض دماء الأمس، وصار كل شيء صافياً، فتلاً لشعاع الشمس على سطح مجراك متراقصاً بضيائه. لكن، أياً ما كانت سرعة أمواجك، فإنها ستجري عبثاً فوق الأحلام المريعة للذاكرة المظلمة.

-٥٢-

تلك كانت خواطر هارولد أثناء ما كان يتابع مجرى النهر. لكنه لم يخل من التأثر بمفاتن الإقليم الذي كان يجوس خلاله، وبغناء الطير المسرور في الصباح الباكر، وهي تحيي أودية تجعل المنفى عزيزاً. وعلى الرغم مما كان يعلو جبينه من كآبة وقسوة باردة حلت لديه محل عواطف أشد عنفاً وقسوة، فإن السرور لم يهجر وجهه دائماً، بل كان يختلس لحظات يظهر فيها حينما تختلبه المناظر الفاتنة.

-٥٣-

والحب هو الآخر لم يغلق بابَه دونه نهائياً، على الرغم من أن أيام غرامه قد زالت واستحالت إلتراب. عبثاً نحاول أن ننظر ببرودة إلى من يبسم لنا؛ فإن القلب لا يلبث أن يعود إلى عواطفه الرقيقة على الرغم منا، ولو أن الضجر والملال قد أبعده عن كل عاطفة دنيوية. فهكذا استشعر: لأنه كان يحتضن ذكرى عذبة، وكان ثمة قلب (١) لا يزال يعزه، ويود هو أن يذوب فيه، حتى لذ له أن يحلم به في ساعات حنانه.

-٥٤-

وهو قد عرف كيف يسر بتأمل نظرات الطفولة البريئة. لماذا، لست أدري، لأن هذا شيء غريب على من في مثل حاله. لكن ماذا تجدي معرفة الدافع إلى إحداث هذا التغيير في نفس عامرة بازدياد بني الإنسان! إن العواطف الخامدة لا تستطيع أن تشتعل في الوحدة إلا بعسر؛ ومع هذا فقد اشتعلت تلك العاطفة، على الرغم من خمود بقية العواطف.

-٥٥-

وكان ثمة قلب حنون يرتبط به بوشائج أوثق من تلك التي تربطها الكنيسة (بالزواج). وعلى الرغم من أنهما لم يرتبطا بزواج، فإن ما بينهما كان حباً طاهراً، ظاهراً، قد استطاع مجابهة كل العداوات الإنسانية القاتلة، وازداد عمقاً وتوثقاً بواسطة الحظ، ولم تؤثر في قوته نظرات العيون الساحرة لحسان أخريات. لقد ظل هارولد مخلصاً ثابتاً في غرامه، وإنه ليرسل هذه التحيات من بعيد، وهو على الشاطئ الغربي، إلى ذلك القلب الحبيب:

-أ-

في دارا خِنْفَلَرَقِ صر شامخ

جرائم فوق ثنيمات الرنين

(١) حب نصف أخته، أوجستا .

حواله الأمواج تنزوبين شطنان -
علاها الكرم نشوان الفنن
والروابي فوقها الأشجار تزمى
وحقول كلها قمح حسن
والقرى ، تاج جميل فوقها
والسنايب هـر من سور المدن
منظر كان فريداً فتاناً
آه! لو كنت مـعي في ذا الوطن

-ب-
وفتاة الريف زرقاء العيون
ولهها كف به الأزهار تندى
هذه الجنة تمشي من عليها
هذه الحـسنا في بسم تـبـدى
وتجلى في العـلا البرج غـريقاً
بين أوراق علت سوراً تحـدى
وعلى واد من الكرم أطلت
صخرة تهوي بها قوس تردى
إنما يعـوز هذا الشطـ كـف
كـفك البـضـ لكـفي يتـهـدى

-ج-
إنني أرسل مـا أعطيت من زنبق
لن يبقـى نـضـيراً فـخـذيه
اقبـليه ، رـغم أنـي عـالم
أنه يذبل من قبـل ، اقبـليه

إنني أحببته حقاً لعلمي :
ربما عينك يوماً تجتليه
ربما روحك تنقذني إلى
ههنا ، إن ذابلاً ذا تبصيره
وتريه من ضفاف الرين قد
اقبل ، من قلبي إلى قلبك فييه

-د-
يزيد الرين بنبل ، فأنضاً
ينشر السحر بهاتيك المغاني
والسنا يبههر والفتنة تبدو
جممة الألوان في تلك المثاني
أي قلب لا يود الآن أن
يقصر العيش على هذا المكان
ليس في الدنيا مكان مثله
عز في النفس وفي طبع الكيان
لورنت عيناك نحوي وأنا
هائم فوق ضفاف الرين فاني

-٥٦-

غير بعيد من كوبلنس يتوهج هرم بسيط فوق رابية من العشب الرقيق؛ وتحت
قاعدته يرقد رماد أحد الأبطال. لقد كان من أعدائنا؛ لكن هذا لا يمنعنا من إزجاء
المديح إلى ذكرى مرسو^(١). فعلى قبر هذا البطل الشاب، انهمرت الدموع الغزار الكبار
من جفون الجنود الغليظة، نوحاً وحسداً على مصير هذا الذي عاش من أجل فرنسا،
وناضل من أجل الدفاع عن حقوقها.

(١) فرنسوا شفران مرسو ، قائد فرنسي عظيم من قواد الثورة الفرنسية . ولد في شارتر ، وقاد جيش السانبر والميز ، وقتل عند
أنتكرشين (سنة ١٧٦٩-سنة ١٧٩٦) .

-٥٧-

لقد كانت حياته قصيرة، ملأى بالشجاعة والأمجاد؛ فبكاه جيشان، وناح عليه الأصدقاء والأعداء على السواء. فليتوقف الأجنبي عند تمثاله هنا، كيما يصلي لراحة هذه الروح الباسلة. أجل، لقد كان مرسو بطل الحرية، وكان من هذه الصفوة من الناس الذين لا يسيئون استخدام القوة الهائلة التي تمنحها الحرية للذين يمتشقون السلاح باسمها. إن مرسو قد احتفظ بطهارة نفسه؛ لذا ذهب مبكياً عليه من الجميع.

-٥٨-

وهنا إبرنبر يتشيتين ذات السور المتهدم وقد علاه السواد من انفجار منجم، مما يشهد بما كانت عليه هذه القلعة الرهيبة التي قاومت كل الهجمات التي انصبت عليها من المدافع والقنابل. أي قلعة النصر العزيزة ! من أعلى هذه الصخرة رؤى الأعداء يفرون في السهل. لكن السلام قد قضى على ما لم تقو الحرب على القضاء عليه: فسلم لأمطار الصيف هذه السقوف المتكبرة التي انصبت عليها عبثاً أمطار من الحديد طوال عدة سنوات.

-٥٩-

وداعاً إذن أيها الرين الجميل! إن الغريب ليمتع نفسه طويلاً هنا ويود ألا يغادر هذا المكان الفتان. إن إقليمك مقام رائع لروحين متحدين أو للتأمل المتوحد، فكلاهما يلذ له أن يعيش شارداً فيه. آه! لو قدر لحدأة تأنيب الضمير أن تفارق أخيراً ذلك القلب الذي صار فريستها! فهنا الطبيعة التي ليست حزينة كل الحزن ولا فرحة كل الفرح، والتي هي متوحشة دون أن تكون قاسية، تصير بالنسبة إلى بقية الأرض الناعمة كالخريف بالنسبة إلى بقية فصول العام.

-٦٠-

وداعاً لك مرة أخرى! وداعاً لا غناء فيه ! فلا وداع لمكان كمكانك هذا. إن نفسي مصبوغة بكل لون من ألوانك. وإذا عزفت العيون عن التملّي بسحر مناظرك، أنت أيها

الرين العزيز! فإن النظرة الأخيرة لتفويض بالإعجاب والاعتراف بالجميل. أجل، قد توجد ثمة مناطق أكثر قوة وأبهر فتنة؛ لكن لا يوجد إقليم واحد قد جمع مثلك كل هذا الجمال والعذوبة وأمجاد الماضي العريق.

-٦١-

العظمة البسيطة، والزهرة المؤذنة بأشهى الثمار وخير النضوج، والأسوار البيض اللامعة، والتيار الجاري، والهاوية المظلمة، والغابة المتوثبة النماء، والجدران القوطية الشامخة، والصخور المتوحشة الشبيهة بالأبراج، والتي تتحدى فنون بني الإنسان - كل هذا مضافاً إلى شعب أفراده بيض الوجوه كريمة أحسابهم كأبناء الإقليم، الذي تفويض خيراته الوفيرة على الجميع، وتشيع البهجة في كل أنحائه، على الرغم من سقوط الإمبراطوريات المجاورة من حوله.

-٦٢-

لكن هذا قد صار عني بعيداً. فمن فوقى جبال الألب، قصور الطبيعة، التي تمتد أسوارها العالية بشرفاتها البيض إلى أعلى السحاب. إن السرمدية قد اتخذت عرشاً لها في أبهاء ثلجية ذات سمو بارد، فيها تتكون مهاوي الثلوج، وإن كان يخيفها، يلتئم شمله عند هذه القمم العالية، كيما يبين كيف تنفذ الأرض إلى السماء، تاركة الإنسان المغرور عند الأسافل.

-٦٣-

لكن قبل أن أتجاسر على التحديق في هذه الأعالي المنقطعة النظير، لا بد لي من التوقف عند بقعة لا يخلق بي أن أمر بها عابراً؛ موراً^(١) أي مورا الفخور! أيها الميدان الوطني الغيور الذي يستطيع المرء أن يبصر فيه آثار المذابح الرهيبة، دون أن يخجل من أجل هؤلاء الذين غزوا هذا السهل! ههنا حَلَفَ أهل برجونيا جنودهم بلا

(١) مورا، واسمها بالألبانية مورتن، اسم لمدينة ولبيرة في شمال مقاطعة فريبورج وشرقي نيوشاتل؛ وعندها حدثت معركة هائلة بين شارل الجسور، دون بورجونى الأخير الذي غزا سويسرة، وبين السويسريين الأحرار الذين هزموه فيها سنة ١٤٧٦؛ وقد خلف البورجونيون في سهل مورا ما يقرب من خمسة عشر ألف قتيل.

قبور؛ والتمثال الوحيد الباقي منهم قد تكوّن من رفاتهم وعظامهم التي بقيت مكدسة على مرّ القرون: إن أشباحهم، وقد حرمت من الراحة التي يجلبها الاحتفال الجنائزي، تهيم شاردة على شيطان الاستيكس، ولهم ولولة وعويل^(١).

-٦٤-

بينما ووترلو يتنافس^(٢) كأثا في هول المذابح، فإن مورا ومارثون يقف اسماهما الواحد جوار الآخر. لقد كانا انتصارين طاهرين ولدهما مجد صحيح، وأحرزهما قلب خلا من الطمع، وبد عفة لعصبة متآخية مهذبة فخور، كلها أبطال لم يدخلوا في حماة منافسة بين أمراء أفسدتهم الرذيلة. إنهم لم يرفضوا على أمة أن تنوح على هذه القوانين الدراكونية^(٣) التي تزعم أن حق الملوك إلهي مقدس.

-٥٦-

بالقرب من سور متوحد، يقوم عموداً أكثر توحداً، يرفع رأسه الحزين منذ العهود الخالية. إنه الأثر الباقي الأخير من خراب السنين؛ وإنه ليحقد كما يحقد إنسان قد أحاله الخوف إلى حجر، ولكنه لا يزال حياً. وإن المرء ليدهش حين يرى هذا العمود قائماً باقياً، بينما غطت افتتكموم، عاصمة هلفسيا المتكبرة، مناطقها القديمة بأطلالها الدارسة.

-٦٦-

هنا وهبت جوليا شبابها للسماء، جوليا-أوه؛ ما أعذب هذا الاسم وما أجل قداسته! جوليا، هذه الطاهرة المخلصة في حب أبيها. إن قلبه كان لمن حقه أن يتلو حق رب السماء، إذ تحطم على قبر أبيها. لقد أقسمت العدالة ألا تأخذها الرأفة: فلم

(١) تقول الأساطير اليونانية والرومانية إن أرواح الموتى الذين لا يقبرون لا تستطيع أن تجتاز نهر الاستيكس وتدخل علين، إلا إذا دفت أجسادهم.
(٢) كانا، قرية صغيرة في ابوليا، فيها انتصر هانيبال على القناصل الرومان، وذبح ما يقرب من أربعين ألفاً من الرومان؛ وكان ذلك في ٢١ مايو سنة ٢١٦ ق. م. أما مارثون؛ فقرية في اتكا، على بعد عشرة أميال من أثينا، مشهورة بالمعركة التي جرت فيها بين عشرة آلاف أثيني وألف بلاتي تحت قيادة ملتبادس، ضد الفرس، وقد انتصر فيها اليونان فحفظوا بذلك بلادهم من الفرس.
(٣) نسبة إلى داركون، المشرع الأثيني المشهور الذي وضع تشريعاً حوالي سنة ٦٢٢ ق. م. اشتهر بشدة القسوة، حتى يقال إنه كان مكتوباً بالدم. فقد كان الكسل يعاقب تبعاً لها كما يعاقب القتل، فيحكم على مرتكب كليهما بالإعدام.

تستطع عبرات جوليا أن ترد الحياة إلى من وهبها إياها؛ لكن الحاكم كان عادلاً، فماتت على قبر هذا الذي لم تستطع إنقاذه. لقد كان قبرهما بسيطاً، لا تعلوه زينة ولا تمثال، وإن إجانتهما لتحمل قلباً واحداً وعقلاً واحداً، وتراباً واحداً^(١).

-٦٧-

تلك أعمال مجيدة خالدة الذكرى، وأسماء يجب ألا يلحقها فناء، على الرغم من أن الأرض تنسى، ولها الحق، الأمبراطوريات التي ترتفع ثم تنفي، والشعوب المهزومة وسادتهم الطغاة. إن جلال الفضيلة الشامخ يجب أن يبقى، بل وإنه سيبقى بعد متاعبها؛ إنها ستتألاً من معبد خلودها في شعاع الشمس، فوق كل شئون هذه الدنيا، مثل هذا الثلج^(٢) الصافي الخالد الذي يتوج قمة جبال الألب.

-٦٨-

إن بحيرة ليمان تغازلني بمحياها البلوري الذي يشبه مرآة تنظر فيها النجوم والجبال إلى هدوء مرآها في كل أثر يتركه عمقها الصافي عن علوها وألوانها: إن ههنا كثيراً من آثار الإنسان، حتى إن في وسعي أن أتأمل بهدوء كل ما أتبينه فيها من جليل. لكن سرعان ما تجدد الوحدة أفكاراً وخواطر في نفسي خفية، لعلها قد نسيت، لكنها مع هذا لا تقل تأثيراً في نفسي عما كانت من قبل، قبل أن فرض عليَّ عودي إلى حظيرة بني الإنسان أن أحيا وسط قطعانهم.

(١) "جوليا ألبينولا، كاهنة شابة، ماتت بعد وفاة أبيها بقليل، أبيها الذي حكّم عليه بالإعدام أولوف كيكيينا بتهمة الخيانة. وكانت قد حاولت عبثاً أن تطفر بالعفو عنه. وقد اكتشف شاهد قبرها منذ عدة سنوات وما هو ذا - جوليا ألبينولا، هنا أرقد، كخلف بانس لأب بانس؛ وأنا كاهنة في خدمة الآلهة؛ لم أستطع أن أنقذ أبي من الموت بصلواتي... وقد عشت ثلاثاً وعشرين سنة. "ولا أعلم نقشاً مؤثراً كهذا الشاهد، وليس ثمة من تاريخ يبدو أكثر من هذا تشريعاً. تلك أسماء وأعمال يجب أن لا تنسى؛ وإن المرء ليذكرها دائماً بعطف مواس، حينما يشيح باتبائه عن صورة المعارك المختلطة، التي تثير أحياناً نوعاً من المشاركة الوجدانية الزائفة التي يتلوها أخيراً اشمزاز صادق، ناشئ عن تلك النشوة العابرة" (بيرن).

(٢) "أكتب هذا قبالة مونيلان (٣ يونيو سنة ١٨١٦)، الذي يبدو باهراً حتى على هذا البعد... (٢٠ يوليو) اليوم تأملت ملياً بوضوح انعكاس مونيلان وجبل أرجنتان في بحيرة ليمان، التي عبرتها في زورق - (بيرن).

-٦٩-

إن تجنب بني الإنسان ليس معناه بالضرورة كراهيتهم؛ فليس كل امرئ بمهياً للدخول في غمرتهم ومزاحمتهم في مشاغلهم. وليس من الزرابة بهم أن تحتفظ بقلبك عميقاً في ينبوعه، خوفاً من أن يفيض غلياناً في حميم الطعام، حيث نصير فريسة لداء عياء، إلى أن نندب متأخراً ولزمان طويل ضرورة كفاحنا ضد العدوى، وننتقل من خطأ إلى خطأ ومن شقاء إلى شقاء وسط عالم تشيع فيه روح معادية لا تقوى على صدها والتغلب عليها.

-٧٠-

هناك تكفي لحظة واحدة من أجل أن تقذف بنا في هاوية أسف لا سبيل إلى الخلاص منه. وروحنا المعذبة تحيل حينئذ كل دماننا إلى دموع، وتصيح المستقبل بألوان الظلام. ولن تكون رحلة الحياة ثمتتذ غير فرار لا أمل فيه بالنسبة إلى هؤلاء الذين يمشون في الظلام. إن أشد النوتية جسارة يبحر دائماً إلى مرفأ معروف لديه؛ ولكن ثمة على خضم السرمدية بحارة رحالة تسير مراكبهم هنا وهناك، هائمة لا ترسو عند شاطئ أبداً.

-٧١-

أفليس أفضل إذن أن يظل المرء وحيداً، وأن لا يحب الأرض إلا من أجل ما فيها من مفاتن أرضية فحسب، سواء عند الأماكن التي ينبع فيها نهر الرون المنطلق كالسهم تعلقه الزرقة^(١)، أو على شواطئ البحيرة التي تغذي النهر الفتى كأم تغدق حبها وحنانها على طفل عنيد تخفف صيحاته بالملاطفات؟ أو ليس من الحكمة إذن أن نقضي حياتنا في مكان منعزل، بدلاً من الدخول في مضطرب الجماعة، كيما نكون قسراً مسيطرين أو مستعبدين؟

(١) لون الرون ، عند جنيف ، أزرق غامق لدرجة لم أشهد مثلها في أي ماء ملح أو عذب ، لا استثنى من هذا إلا البحر المتوسط في منطقة الأرخيبيل (بيرن) .

-٧٢-

إنني لا أحيأ بعد في نفسي، لكنني أصير بضعة مما حوالي. والجبال تشير في نفسي عطفاً ومشاركة وجدانية، لكن ضوضاء المدينة ترهقني وتعنيني. ولست أرى في الطبيعة شيئاً يثير اشمئزازي غير كوني حلقة بالرغم مني في سلسلة الأبدان، وغير اعتباري واحداً من بين الكائنات، بينما تستطيع روعي أن تطير وتحلق وتمتزج بالسماء، وذرى الجبال، وسهل المحيط المنبسط، والنجوم اللامعة؛ تمتزج وإياها حقاً، لا باطلاً.

-٧٣-

وهكذا أستغرق في مثل هذه الخواطر والأفكار، وتلك حياتي. إنني أنظر إلى صحراء العالم الآهله بالسكان كمكان للمحن والآلام، نفيتُ فيه من أجل التفكير عن بعض الخطايا؛ وأعتقد أن في وسعي أن أفر أخيراً بأجنحة رشيقة تفوق في طيرانها سرعة الإعصار، محتقراً قيودي من الطين التي تأسر كياني السجين.

-٧٤-

وحينما تصير النفس يوماً حرة من كل ما تبغضه في هذا الشكل الوضيع، غير محتفظة بشيء من حياتها الجسدية إلا ما يبقى من الفراشة والدودة - ؛ وحينما تتحد العناصر بالعناصر، ويصير التراب تراباً خالصاً، أفلا أحس بكل ما أرى صادقاً بادياً حقاً، وإن كان لا يبهرني؟ أفلن أبصر الفكر الخالص من البدن، والروح الشائعة في كل مكان، الروح أشارك منذ الآن في وجودها الخالد؟

-٧٥-

أليست الجبال والأمواج والسموات بضعة مني ومن روعي، كما أنني أنا بضعة منها؟ أليس حبها عميقاً في قلبي، خالصاً طاهراً؟ أولاً أحتقر كل شيء إذا ما قورن بهذه الروائع؟ أولاً أجابه كل المصائب والآلام فذلك أولى من أن أعزف عن مثل هذه الأحساس من أجل برود العالم القاسي، برود هؤلاء الذين قلبت عيونهم إلى أسفل، وعلقت أبصارهم بالطين، وامتلاؤوا بأفكار لا يضيئها نور نبيل؟

-٧٦-

لكن هذا ليس الآن موضوعي؛ فلأعد إلى ما يشغلني، سائلاً هؤلاء الذين يلذ لهم التأمل في الإجانة التي تشمل على بقايا الموتى أن ينظروا إلى هذا الذي كان ترابه من قبل ناراً كله، والذي هو وليد هذه الأرض التي أستنشق هواءها الصافي الآن كزائر عابر. لقد حاول أن يملأ الدنيا بأمجاده؛ لكنها محاولة جنونية ضحى بكل شيء من أجل الاحتفاظ بها والحصول على أغراضه منها.

-٧٧-

هنا بدأ روسو حياته المليئة بالمتاعب والأحزان، وروسو، هذا السفسطائي الوحشي المعذب نفسه؛ رسول الحزن الذي أضفى السحر على العاطفة والوجدان، وجعل الشقاء يتحدث بأبلغ عبارة. لكنه عرف كيف يجعل الجنون جميلاً، وكيف يصبغ الأفعال الخاطئة والأفكار الضالة بألوان سماوية من كلمات كأنها أشعة الشمس، تبهر العين حين تمر عليها، وتستثير الدمع الحزين بإخلاص وثبات.

-٧٨-

لقد كان حبه جوهر الوجدان؛ - إذ كان شعلة أثيرية تحترق وتحرق قلبه، مثله مثل شجرة ألهبتها الصاعقة؛ لأن الحب والاشتعال والاحتراق كانت كلها عنده معاني مترادفة واحدة. لكن هذا الحب لم يكن حباً لامرأة حية، ولا لميتة تطوف بنا في خيال الأحلام؛ إنما كان حباً للجمال المثالي، الذي صار عنده وجوداً، وأشعل صفحات كتبه المشبوبة، مهما يكن من غرابة مثل هذا العشق.

-٧٩-

هذه العاطفة قد تنفست وحيّت في جوليا^(١)، ووهبتها كل ما هو عذب ووحشي. وهذا ما قدس أيضاً هذه القبلة الخالدة التي حيّت في كل صباح شفته الملتهبة المحمومة، منحته إياها على سبيل الصداقة وحدها. لكن هذا المس الرقيق قد أشعل

(١) جوليا بطلة رواية "هلويزا الجديدة" لروسو، ومحبوبة سان برنيه المشهورة.

الشرارة التي أضرمت في كل حواسه وفؤاده نار الغرام المحرقة. في هذه الزفرة المستغرقة للروح، شعر بأسمى مما تشعر به النفوس العادية في امتلاكها لكل ما تتعشقه^(١).

-٨٠-

لقد كانت حياته حرباً طويلة مع أعداء كان هو الناشد لهم، أو مع أصدقاء كان هو الذي لوى عنهم عذاره؛ لأن نفسه قد صارت معبداً للظنون والالتهام المتزايد، واختارت، من أجل توضيحيتها القاسية، هؤلاء الذين أحبوه ولكنه حمل نحوهم كل غضب غريب أهوج. غير أنه كان في هذيان - لماذا؟ من يدري! لقد كان سببه خفياً لا يستطيع ذكاءً أن يكشف عنه. لكنه أصيب بالهذيان بسبب المرض أو الشقاء؛ وكان جنونه من أخطر الأنواع، لأنه كان من ذلك النوع الذي يبدو في مظهر العقل.

-٨١-

ذلك أنه كان يوحى إليه؛ ومن فمه كانت تصدر هذه الألوان من الوحي التي تلهب العالم بأسره، مثل وحيه مثل ذلك الذي كان يأتي قديماً من كهف بيثيا السري؛ وكان وحيماً لا ينقطع عن الاحراق حتى تصير الممالك أطلالاً. ألم يفعل هذا بالنسبة إلى فرنسا؟ إن فرنسا كانت قد عنت لنير الاستبداد طوال عدة قرون. لقد كانت ترتعد محطمة تحت هذا النير الذي كانت تحمله، إلى أن أيقظها صوته وصوت أمثاله فغضبت أعنف الغضب، مما هو نتيجة لمخاوف مفرطة.

-٨٢-

إن شعب فرنسا قد صنع لنفسه تمثالاً رهيباً؛ تمثالاً من بقايا الأفكار القديمة التي ولدت مع الزمان: فتجاسر على تمزيق القناع، كاشفاً بهذا للعالم أجمع عن كل ما كان

(١) «إشارة إلى فقرة في "اعترافات" جان جاك روسو، فيها يتحدث عن حبه لمدام دودتو، وعن النزعات الطويلة التي كان يقوم بها كل صباح من أجل الظفر بالقبلة الوحيدة التي كانت تمنحه الكوتيسية إياها، وهي تحببه. وأن وصف المواطن التي كان يشعر بها حينئذ ليتمكن أن يعد أحر وصف للغرام. ومع هذا فإن تأثيرات الحب هي من نوع تقصر الألفاظ عن وصفه: إن اللوحة المرسومة لا تستطيع أن تمثل لنا المحيط إلا بطريقة ناقصة» (بيرن).

خافياً حتى الآن فيه. لكنه حطم الخير مع الشر، غير مخلف إلا الأطلال، التي منها سبيني على نفس الأساس، وستجدد السجون والعروش التي امتلأت كما كانت من قبل، لأن الطمع والطموح قد أطلقا لنفسيهما العنان.

-٨٣-

لكن الاستعباد لا يمكن أن يستمر أبداً! فلا يبقى ولا يمكن أن يحتمل. لقد شعرت الإنسانية بقوتها، وأشعرت الآخرين بها. لقد كان في وسعهم أن يحسّنوا استخدامها؛ لكنهم وقد خدعتهم الجديدة، قسا بعضهم على بعض أشد القسوة؛ فتوقفت الرحمة عن الإحسان الذي كان من قبل طبيعياً لديها. لكن هؤلاء، الذين سكنوا كهوف الاستعباد طويلاً، لم يكونوا نسوراً قد ألقوا الحياة في ضوء الشمس. فأى عجب إذن في أن يكونوا قد أخطأوا أحياناً في اختيار فرائسهم؟

-٨٤-

أي جروح تنتدمل دون أن تترك ندوباً؟ إن جراح القلب تدمى. أطول مما تدمى سائر الجراح، وندوبها لا يمكن أن تمحى. إن من يصارع أماله هو ذاتها، ويخرج من هذا الصراع مهزوماً، يخلد إلى الصمت، لا إلى الإذعان. إن الذحل يصمت في مغارته إلى اللحظة التي تدق فيها ساعة الانتقام المرتقبة منذ سنوات طوال. فلا يقنطنُ امرؤ؛ لقد أتى وسيأتي اليوم الذي يهب القدرة على المعاقبة أو المغفرة. ونادراً ما يغتفرُ الانتقام!

-٨٥-

أي ليمان الصافية الساجية! إن التبيان فيما بين بحيرتك وبين العالم الوحشي الذي عشت فيه، لينبهنى بسكونه إلى هجر مياه الأرض المعكرة نشداناً لينبوع أنقى وأصفى. إن الشراع الهادئ للمركب الذي أبحرُ عليه فيك ليشبه الجناح الصامت الذي ينتزعني من حياة القيود والاضطراب. لقد كنت من قبل أعشق زئير المحيط، لكن همسك العذب الرقيق يرن كما يرن صوت أخت عاتبتني على شدة تعلقي بالذات القاسية المظلمة.

-٨٦-

أقبلت ساعة الظلام السكوت. ومن شطآنك حتى الجبال، تعلو الأشياء ألوانُ
الأصيل، واما قليل ستغمرها ظلمة المساء: لكنها لا تزال متميزة، اللهم إلا الجوار
الكابية، التي تتبدى أعاليها كهوي عاتية وعرة. وبالقرب من ساحلك، أستروح العطور
العذبة التي تفوح من كؤوس أزهار كادت أن تتفتح؛ وإلى الأذان تصل ضوضاء خفيفة
لقطرات ماء تساقط من المجذاف المعلق فوق البحيرة، أو طنين الجندب وهو يغني
توديعة الليل.

-٨٧-

إن الحشرة المرحة في المساء، التي تجعل من حياتها طفولة، وتغني ملء فيها طوال
عمرها؛ وبين فينة وفينة، يسمع صوت طائر من وسط أغصان الديشان، يصدح برهة ثم
يصمت. فيبدو حينئذ وكأن ثمة همساً خفيفاً يحلق فوق الراية. لكن هذا من بنات
الخيال؛ لأن الندى الهابط من ضوء النجوم يقطر صامتاً دموع غرامه، قاطعاً وقته
بالدموع، حتى يُنفذ داخل حضن الطبيعة روح ألوانه.

-٨٨-

وأنت أيتها النجوم، أنت أشعار السماء؛ إذا كنا نسعى لقراءة مصائر الناس
والدول في صفحاتك اللامعة الناصعة فاغفري لطموحنا الجامح محاولته تجاوز نطاقه
الفاني من أجل الاتحاد بك؛ لأنك جمال وسر، ولأنك تخلقين في نفوسنا من الحب
والإجلال السامي ما يجعل الحظ والشهرة والقوة والحياة تدعو نفسها باسم النجوم بأن
تتخذ منها رموزاً عليها.

-٨٩-

خيم الصمت على الأرض وعلى السماء، وإن لم تفرق في النعاس؛ وكلاهما لا
يكاد يتنفس، مثله مثل من يحس بشعور حاد عميق؛ وكلاهما صامت صمت هذا
الغارق في خواطر عميقة. خيم الصمت على الأرض والسماء؛ فمن جيش النجوم العالي

إلى البحيرة المهددة والجبل الوسنان، كل شيء قد ائتلف في حياة عميقة، يشارك فيها كل من الشعاع والهواء والأوراق نفسها، فلا يغيب منها شيء، بل له حظه من الوجود فيها. كل شيء يشعر بهذا الذي خلق كل شيء ويقوم على حفظه ورعايته.

-٩٠-

في مثل هذه اللحظات يكون الشعور بالوحدة أضال ما يكون؛ وفيها يستيقظ في نفوسنا الشعور باللاتهائي؛ وهو شعور صادق ينفذ في أعماق كياناتنا، ويظهر كل وجودنا. إنه الروح والينبوع لنغمة تكشف لنا عن الانسجام السرمدى، وتنشر سحراً جديداً على كل شيء، مثل زنار سياتريا الخرافى الذى يربط كل شيء برباط الجمال؛ هذا الجمال الذى ينزع السلاح من شبح الموت، لو أنه يصيب بسلاح مادى.

-٩١-

ما أروع فكرة الفُرسِ الأولية وهم الذين كانوا يقيمون مذابحهم فوق الأعالي وعلى قنن الجبال^(١)، ويعبدون الروح الخالدة في معابد بلا جدران ولا زخارف، ناظرين إلى المعابد المبنية كأنها لا تليق بجلاله وعظمته، هذه المعابد التى شيدتها أيدي الإنسان؟ تعال قارن الأعمدة والمعابد، اليونانية أو القوطية، بمعابد الطبيعة: الأرض والسماء تكف عن حصر صلواتك في مقامات وأبنية محدودة كهاتيك!

-٩٢-

لكن وجه السماء قد تغير وحال، وأيُّ تغير! إيه أيها الليل والعاصفة والظلام، إنك لقوى عجيبة: ولكنك محبوبة برغم قوتك، مثل النور الذى يشع من عين سوداء

(١) "يجب أن نتذكر أن مؤسس المسيحية الإلهي قد نطق بأجمل حكمة وأشدّها تأثيراً وهو على ظهر الجبل، لافي المبد. لكن دعونا من الدين كيلا نستشهد إلا بالبلاغة الإنسانية: فأجمل الخطب وأبلغها لم يُلقَ بين الجدران: فدومنين كان يخاطب في المجتمعات الشعبية، وشيخرون كان يتكلم في السوق. والمسلمون الذين هم مخلصون لدينهم كل الإخلاص (وعلى الأقل الطبقات الدنيا في المجتمع) وبالتالي هم قابلون جداً للوجد الديني، يؤدون الصلاة في أي مكان يكونون به في الأوقات المحددة للصلاة. لهذا كثيراً ما يراهم المرء يصلون في الهواء الطلق، فوق السجادة التي يحملونها معهم دائماً، والتي يستخدمونها كسرير ومخدة معاً؛ وطوال الزمن الذي تستغرقه الصلاة، يكونون غارقين تماماً في نفوسهم، وليس في استعانة شيء. أن يلهيهم عنها، حتى ليبدون وكأنهم لا يحيون إلا من أجل الصلاة. وإن عبادة هؤلاء الناس الصريحة والروح الدينية التي تشع في نفوسهم في تلك اللحظات، قد أثرت في نفسي أكثر من تأثير الشعائر التي تقام لله في معابد" (بيرن).

لامرأة! من بعيد تردد أصداء الرعد الواثب من صخرة إلى صخرة. ليس السحاب وحده، بل كل جبل قد وجد له الآن لساناً، والجورا تجيب، من خلال الضباب المتلفعة به، الألب السعيدة التي تناديها بصوت مرتفع.

-٩٣-

وفي كل مكان ساد سكون الليل. ألا أيها الليل الرائع الجليل! إنك لم تُرسل من أجل النوم؛ فدعني أشارك في سرورك العرم الطافح! دعني أكن شطراً منك ومن العاصفة! ما أجمل البحيرة وهي تتلألأ وتضيء، وكأنها بحر من الفسفور! وما أروع المطر الغليظ وهو يساقط على الأرض متراقصاً؛ وعمّا قليل تغمر الظلمة كل هذه المغاني، ويدوي صوت الجبال الرهيب الجذلان معاً، وكأنها مسرورة بميلاد زلزال شاب.

-٩٤-

الرون السريع يشق طريقه بين الأعالي التي تبدو كعاشقين هجر كلاهما الآخر سريعاً وانجذم الحبل بينهما فصارت تفصل بينهما هوة شاسعة عميقة، حتى لم يعد في الوسع التقاؤهما من جديد، وإن صارت قلوبهم جميعاً محطمة يائسة؛ على الرغم من أن الحب نفسه هو الذي أوجد الغضب المحبوب الذي قضى على زهرة عمرهم. لقد فر الحب من قلوبهم، تاركاً في قلوبهم المحطمة عهداً من السنين كله شتاء، وحرباً باطنة مليئة بالعذاب.

-٩٥-

في هذه المنطقة التي شق فيها الرон السريع طريقه، هبت أشد العواصف صولة وقسوة؛ فكثير من الرعود المنطلقة من كل ناحية كأنها سهام المشتعلة، تنبئ أن جمعاً وافراً من الزوابع قد شن الغارة. وبين هذه التلال الوعرة انطلقت أعنفها، وكأنها فهمت أنه في مثل هذه الأخاديد التي أحدثها الخراب، تستطيع السهام السماوية النارية أن تحرق كل ما اختبأ هناك.

-٩٦-

أيتها السماء والجبال والنهر والرياح والبحيرة، إن لي روحاً قادرة على أن تفهمكم؛ وفي وسع الليل والسحاب وبروق الصواعق أن يلهمني؛ وإن أنغام أصواتك الراحلة لهي الصليل لكل ما في نفسي من قلق - لو قدر لي أن أشعر بالراحة. لكن إلى أية غاية تسيرين، أيتها العواصف؟ أنت كتلك التي تثور في داخل صدر الإنسان؛ أو أنت تجدين في النهاية، كالنسر، عشاً عالياً؟

-٩٧-

ألا ليتني أستطيع أن أجسم أفكاري وأعبر عما يجول في نفسي؛ ألا ليتني أقوى على إلباس أفكاري ثوب التعبير، وبهذا ألقى بالروح والقلب والعقل والانفعالات والأحاسيس، قوبها وضعيفها، وكل ما نشدته، وكل ما أسعى إليه أو أحمله وأعرفه وأشعر به، وأتفكسه - ألا ليتني أستطيع أن ألقى بهذا كله في كلمة واحدة، كلمة تكون هي البرق؛ إذن لفهمت بها: لكنني أحياء وأموت من دون أن أذيع سري، ولي فكر قد خلا من كل صوت، مثله مثل سيف يظل في غمده.

-٩٨-

تبدى الصبح من جديد، الصبح الندي، الذي يتنفس عطراً نفيساً، ويحمل خدماً من الزهر، ويسخر من السحاب في تلاعب، وينشر النور والحياة وكأن الأرض لا تشتمل على قبر. وها هو ذا قد تطور واستحال نهراً ضاحياً. أو في وسعنا إذن أن نستأنف سير حياتنا؛ وهكذا أستطيع؛ أنا الذي لا زلت واقفاً على شطآنك، أي ليمان! أن أجد مجالاً وغذاء للتأمل والتفكير، وأن أنعم بمنظر فاتن أود التملّي به طويلاً.

-٩٩-

كلارانس! كلارانس العذبة، أي مولد الحب العميق! إن هواءك هو النفس الشاب للفكر الحار المتوثب؛ وإن أشجارك لتمد جذورها في الحب؛ والثلج في الأعالي قد التقط منك ألوانك؛ وأشعة الشمس في وقت الأصيل تصبغُه بصبغة وردية، ويلذ لها

أن ترقد في أحضانه؛ والصخور، الصخور العتيقة المعمرة تتحدث هنا عن الحب، الذي نشر عندها ملاذاً من صدمات الدنيا، تلك الصدمات التي تهيج الروح بالأمل الباسم أولاً، المثير للقنوط من بعد.

-١٠٠-

أي كلارانس! إن طرقتك قد وطنتها أقدام سماوية، أقدامُ الحب الخالد الذي ارتقى هنا عرشاً، الدرجات الموصلة إليه جبال. إن الحب هنا إله كله نور وحياة - ولكنه لا يهيمن فوق الأعالي وحدها ولا في الكهف الساكن والغابة فحسب؛ بل إن عينه لتضيء فوق الزهرة، وإن أنفاسه قد هبت، أنفاسه الرقيقة الصيفية، التي تفوق قوتها الحنون قوة الأعاصير في عنفها وشدة هبويها.

-١٠١-

كل ما هنا ينبئ عن قدرته: من الصنوبر الكابي، الذي هو ظلّه في الأعالي، وهدير السيول العالي، الذي يستمع له، حتى الكروم التي تنحدر بسببيله الأخضر إلى الشاطئ، حيث تلتقي به المياه المنحنية إجلالاً له، وتتعبده، مقبلة أقدامه في همس رقيق؛ والغابة المليئة بالأشجار العتيقة والجذوع الهرمة، المتوجه بالأوراق الغضة الشابة شباب السرور - تقوم حيث هي، مقدمة إليه وإلى أتباعه ملاذاً من الوحدة الآهلة بالسكان.

-١٠٢-

وحدة أهلة بالنحل والطيور، والأشياء الجميلة الأشكال والألوان، التي تتعبده بنغمات أعذب من الكلمات، وتبسط ببراءة أجنحتها الجذلي، مليئة بالحياة، لا يتطرق إلى قلبها الخوف؛ وهنا همس الينابيع، وتساقط المياه من النافورات العالية، وحفيف الأوراق فوق الأغصان، وبالبرعم الذي يحمل أعذب فكرة عن الجمال - كلها تمتد هنا وتنتشر، قد وحد الحب بينها وجمعها على غاية سامية واحدة.

-١٠٣-

من لم يعيش، يستطيع أن يتعلم هنا هذه الحكمة، وأن يجعل من قلبه روحاً ملائكية؛ ومن يعرف هذا السر الكريم، يزدد هنا حبا؛ لأن ههنا مأوى الحب، أوى إليه بعيداً عن مضايقات الناس وهموم الدنيا؛ لأن من طُبِعَ الحب أن ينمو أو يموت؛ وليس في وسعه أن يظل ساكناً غير منفعل؛ إنه يتضائل أو يسمو إلى سعادة خالدة لا حد لها، تنافس الأنوار الخالدة في خلودها.

-١٠٤-

إن روسو لم يختر هذا المكان الذي ملأه بألوان العواطف والغرام، من أجل القصص والخيال؛ لكنه رأى فيه المسرح الذي يجب أن يهبه الوجدان لكائنات الخيال الطاهرة. هنا حل الإله الطفل حزام بيسيثيه^(١)، وجعل منها إلهة جديدة. أيتها الوحدة العميقة الرائعة، إنك تسحرين كل الحواس؛ هنا بسط الرن مجراه، ورفعت جبال الألب عرشها.

-١٠٥-

وأنت يا لوزان، وأنت يا فرنيه^(٢)؛ لقد كنتما مقاماً لأسماء وهبتكما اسماً وشهرة. لقد رحبتما بفنانيين بحثاً عن طريق الشهرة والمجد الخالد متخذين سبلاً وعرة؛ لقد كانا عقليين جبارين، وكان هدفهما البعيد أن يفعلا ما فعله التيتان، فيهاجما السماء من جديد بأفكار جريئة وشكوك ملحدة كان من شأنها أن تصب على رؤسها صواعق السماء، لو كان الإنسان وتجديفاته يلقي من السماء شيئاً أكثر من الابتسام العريض.

-١٠٦-

أحدهما كان هوائياً قُلباً، كله شعلة نار، كالطفل لا يستقر عند رغبة؛ ولكنه موهوب عقلاً متشعب الأفق، حيناً سعيداً وحيناً آخر حزيناً، تلهمه الحكمة تارة والجنون

(١) بيسيثيه، حورية بني بها كيوييد وحملها إلى مكان مبارك. استطاعا فيه أن ينمعا سوياً ولكن فينوس أعدمتهما، لأنها حرمت العالم من ابنتها؛ غير أن جويتير، بناء على توسل كيوييدا، وهبها الخلود.

(٢) لوزان قد عاش بها جيون، المؤرخ الإنجليزي المعروف؛ وفرنيه قد سكنها فولتير، الكاتب الفيلسوف الفرنسي المشهور.

طوراً آخر؛ وكان مؤرخاً وشاعراً وفيلسوفاً معاً؛ فتكاثر وسط بني الإنسان، حتى كان مجمعاً للمواهب؛ لكنه برز خصوصاً في التهكم الذي يقلب كل شيء في طريقه، مثله مثل الريح الهوجاء تقلب كل شيء حيث تشاء: فحيناً يهاجم حماقة، وحيناً آخر يزلزل العروش.

-١٠٧-

أما الآخر فكان عميقاً بطبئاً، مستغرقاً في طويل التفكير، قد كرس حياته الحافلة المجدة لخدمة الحكمة؛ وكان عاكفاً على التأمل، غنياً بالعلم؛ قد هيا له سلاحاً ذا حد ماض قاس، يقوض صرح عقيدة راسخة بسخرية جديدة. أجل، لقد كان رب السخرية، هذه التميمة السحرية التي كانت تثير نائرة قلوب أعدائه ومخاوفهم؛ فكانوا ينتقمون لأنفسهم منه بإيعاده بالنار والجحيم: هذه الحجة الكبرى عند الأتقياء المؤمنين ضد كل شكوك الملحدين.

-١٠٨-

لكن، سلام على أرواحهما ! فإن كانا قد استحقا نقمة السماء، فإنهما يتعذبان. وليس من حقنا نحن أن نحكم في أمرها؛ وبالأولى أن نحكم عليها بالإدانة. وستأتي الساعة التي تعلم فيها مثل هذه الأشياء للجميع. إن الرجاء والخوف يرقدان سوياً في تراب القبر؛ وحينما تعود الحياة، كما نعتقد، كيما نحيا من جديد، فسنعاقب بالقسطاس، أو تغفر لنا ذنوبنا.

-١٠٩-

لكن دعنا من أعمال الإنسان، كيما نتأمل أعمال خالقه المنتشرة من حولنا؛ ولنتفقد هذه الصفحات التي أغذيها بالكثير من أحلامي، حتى لتبدو من غير نهاية. إن السحب المتجمعة من فوق رأسي ذاهبة لكي تنوح قمم الألب؛ ولا بد لي أن أنفذ فيها، وأن أتأمل كل ما يستطيع بصري الكشف عنه، بينما أصعد هذه الأقاليم العليا التي تتلقى عندها الأرضُ معانقاتِ قوى الهواء.

- ١١٠ -

إيطاليا ! أيُّ إيطاليا! عندما أراك، أشعر بأن بهاء القرون الماضية قد أضاء فأذهل روحي، منذ أن أوشك القرطاجني ^(١) القاسي على الاستيلاء عليك حتى الهالة الأخيرة من الزعماء والحكماء الذين يمجدون تاريخك المقدس. لقد كنت عرش الأباطوريات وقبرها. واليوم لا يزال الظمآن إلى الينبوع الذي يحوي العلم والعرفان يسعى على الينبوع الخالد في الروابي السبع التي تضمها روما في أحضانها.

- ١١١ -

لكنني أقطع هنا حديثاً اتصلت فقره تحت فأل غير سعيد: إن شعورنا بأننا لم نعد بعد ما كنا عليه، وإحساسنا بأننا لسنا كما يجب أن نكون، وتسليحنا القلب ضد نفسه، وإخفاءنا بحذر متفاخر الحب أو الكراهية، أو الغضب أو الرقة، أو الغرض أو الأحزان أو الحماسة - مما يجعل الفكر في استعباد مستمر - ؛ كل هذا عمل شاق للروح. لكن لا علي؛ فقد جرّيتُ حظي.

- ١١٢ -

وهذه الكلمات المنظومة في أغنية قد تكون حيلة بريئة: نوعاً من التلوين للمناظر التي تجلت أمامي، والتي وددت امتلاكها عابراً من أجل أن أسحر قلبي وقلوب الآخرين لبرهة من الزمان. إن الشهرة عطش الشباب؛ ولكنني لست من الشباب بالدرجة التي أنظر فيها إلى ابتسام الناس أو عيوبهم كنوع من فقدان أو الظفر بقسط من المجد. لقد وقفت دائماً وحيداً، وهأنذا أقف اليوم وحيداً، - مذكوراً أو منسياً.

- ١١٣ -

لم أحب العالم، والعالم لم يحبيني؛ ولم أتملق يوماً رتبه ومظاهره؛ ولم أركع أمام معبوداته بركة صابرة خاضعة؛ كما أنني لم أقسر خدي على الابتسام، ولم أدخل في زمرة المتملقين الذين يعبدون صدى. بل لقد كنت في محتشد الناس غريباً وسطهم؛ لقد

(١) هانيبال .

أقمت بينهم، لكنني لم أكن واحداً منهم؛ لقد تلفعت بثوب من أفكار ليست من أفكارهم، ولا يمكن أن تكون منها إلا إذا كانت سلكت عقلي في عقدهم وأخضعت روحي هكذا لنفوسهم.

- ١١٤ -

لم أحب العالم، والعالم لم يحبيني؛ لكن لنتفرق كعدوين كريمين. وبودي أن أومن، على الرغم مما أثبتته لي التجربة، بأن ثمة كلمات هي أشياء، وأمالاً لا تخدع، وفضائل رحيمة لا تنصب الحبائل للضعفاء. وبودي أيضاً أن أومن بأن ثمة مصائب يحنو عليها الآخرون بإخلاص^(١)؛ وبأن ثمة على الأقل رجلين أو ثلاثة هم تقريباً كما يظهرون أمام الناس؛ وأن الخير ليس مجرد كلمة، ولا السعادة حُلْمٌ.

- ١١٥ -

أي بنيتي! باسمك بدأت هذا النشيد؛ وباسمك أيضاً، أي أدا العزيزة، سأختمه. إنني لا أراك، ولا أسمع لك، لكن لا يوجد مخلوق قد تصور نفسه فيك غيري؛ أنت الصديقة التي يمتد إليها الظل، ظل سنواتي المقبلة؛ على الرغم من أنك قد لا ترين جبيني^(٢)، فإن صوتي سيتردد في أحلامك، وسيبلغ قلبك، حيثما يكون قلبي قد غاض منه الدم. أجل، ستسمعين نغمات عذبة تتهادى إليك من رُفاتِ أبيك.

- ١١٦ -

أواه! أن أشارك في تنشئة روحك، وأراقب مطلع فجر مسراتك الطفولية، وأتأمل كيف تكبرين، وأنظر إليك وأنت تتلقفين العلم بالأشياء والأحياء التي تتبدى لك حينئذ عجائب ومعجزات؛ وأن أهدهك برفق على ركبتني، وأطبع قبلة أبوية على شففتيك الناضرتين - كل هذا لم يكن مقدراً لي. ومع هذا فإنه من طبعي؛ وعلى ما أنا عليه الآن لا أدري ماذا في نفسي، لكنني أستشعر بها شيئاً من هذا القبيل.

(١) قال لاروشفوكو: "في محن أعز أصدقائنا يوجد دائماً شيء لانعاقه" (بيرن).

(٢) انفصلت ليدي بيرن عن زوجها في منتصف يناير سنة ١٨١٦، وسن أدا خمسة أسابيع. وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨١٦، غادر بيرن

المجترا إلى غير رجعة أبداً. فكانته لم ير ابنته إذن بعد هذا الرحيل من بلاده.

-١١٧-

نعم! حتى لو علموك كراهيتي كواجب عليك أداؤه، فإنني موقن بأنك ستحبيني؛ وعلى الرغم من أن اسمي لن يذكر أمامك وسيحرم ذكره عليك، وكأنه كلمة من تلك الكلمات السحرية الجالبة للشقاء، وكلقب غير جدير بالاحترام؛ وعلى الرغم من أن القبر سيغلق علي من دونك، فكل هذا سواء، فإنني موقن بأنك ستحبيني؛ وحتى لو حاول امرؤ أن يستنزف دمي من شرايينك، فإنه سيبوء بالفشل التام، فإنك أيضاً ستحبيني، وستتعلقين بهذا الدم أكثر من تعلقك بالحياة.

-١١٨-

أنت ابنة الحب، رغم أنك ولدت في أيام المرارة، ونُشئت في أحضان القطيعة والعذاب. لقد كانت هذه عناصر أبيك، كما كانت أيضاً عناصرك أنت الأخرى؛ وإذا كنت تحيين في مثل هذا الوسط، فإن نارك مع هذا ستكون أهدأ، وأملك أسمى. فسلام على مخدوعك الذي به ترقدين! بودي أن أرسل إليك، من فوق البحر ومن أعلى الجبال التي استروح الآن نسميها، هذه التحية المباركة التي تحمل من السعادة قدر ما أدين لك منها: هكذا أقول لنفسي زافراً.

النشيد الرابع

"رأيت تسكانيا ولبارديا ورومانيا، وذلك
الجبل الذي يفصل ويضم أجزاء إيطاليا، والبحر
الذي تسبح فيه"

أريوستو، الأهجية الثالثة

-١-

وقفت على جسر الزفرات^(١) في البندقية، وعلى جانبي قصر وسجن؛ ورأيت
المدينة تنبثق وسط الأمواج وكأنها برزت فجأة بفعل عصا ساحر. وعشَرَ قرون تنشر
أجنحتها الكابية حواليّ، وموجٌ محتضر يبسم لتلك الأيام الخالية، التي نظرت فيها
بلاد خاضعة عدة إلى الأعمدة المرمرية للأسد ذي الجناح^(٢)، حين كانت البندقية تجلس
على عرشها الرفيع وسط جزرها المائية.

-٢-

إنها تبدو كعرافة بحر، قد انبثقت من المحيط منذ قليل، وعليها تاج من الأبراج
الشامخة المتصاعدة في أجواز الفضاء، وهي تتهادى بجلال، كسيدة للمياه وقواها:
وقد كانت البندقية هكذا من قبل حقاً. لقد كانت بائمة بناتها تؤخذ من غنائمها من كل
الأمم، والشرق الذي لا تنفد له ثروة، قد صب في صدرها كل الجواهر التي انهمرت
عليها كالأمطار البراقة. وهي قد تذررت بالأرجوان، ودعت إلى أعيادها الملوك
والحكام، وأغدقت عليهم ما زاد في مقامهم ومكانتهم.

(١) جسر الزفرات جسر يمتد من قصر الدوج إلى سجن الدولة . وقد سمي بهذا الاسم لأنه كانت توجد عليه غرفة يخنق فيها من يحكم
عليهم بالإعدام .

(٢) هذا الأسد ، هو أسد القديس مرقس ، شفيع مدينة البندقية .

إن أصداء تسو^(١) لم تعد تردد بعد في هذه البندقية، وصاحب الجندول الذي طالما كان يتغنى بأشعاره يجدف اليوم في صمت. وقصورها تتداعى فوق الساحل، ولم تعد الأذن تلقى الموسيقى هنا إلا نادراً. أه! لقد انقضت تلك الأيام - ولكن الجمال لا يزال ههنا. إن الدول تسقط، والفنون تحول - ولكن الطبيعة لا تموت، بل ولا تنسى كيف كانت البندقية من قبل عزيزة، حتى كأنها القصر السعيد لكل احتفال، وأكثر مدن الأرض مرحاً، وكرنفال إيطاليا.

لكن للبندقية في قلوبنا سحراً أروع من اسمها الذي خلده التاريخ كما مجدته هذه السلسلة الطويلة من الأبطال البارزين الذين تحلق أرواحهم حزينة على أطلال المدينة التي فقدت دوجاتها. إن غنائمنا لا تنتهي بانتهاء رياتو: فإن شيلوك، والمراكشي^(٢) ويطرس لا يمكن أن يفنوا في سيل الزمان. إن هؤلاء أحجار الزوايا في هذا البناء؛ وعلى الرغم من أنهم بادوا أجمعين، فإن شاطئهم المهجور لا يزال في نظرنا عامراً بساكنيه.

إن أبناء العقل ليسوا من الطين؛ إنهم خالدون بطبعهم، ولذا يخلقون وينشرون شعاعاً يزداد تألؤاً، ويبعثون حياة أعلى وأعز. فكل ما يحرمه القدر على الحياة الرتيبة في عبوديتنا الإنسانية، تهينا إياه هذه المخلوقات الخيالية؛ إنها تطرد أولاً ما تعافه نفوسنا من أشياء، تستعيض عنها بأن تصب في قلوبنا الشابة، التي ذبلت كل أزهارها الأولى، نضرة جديدة تملأ فراغها.

(١) كان رجال الجندولات في عهد جمهورية البندقية يتبادلون إنشاد فقرات من كتاب تسو، الشاعر الإيطالي الكبير، "أورشليم المحررة" فكان كل جندولين يتجاوبان بالإنشاد. وقد سمع بيرن وهو في البندقية بعضاً من هذه الأناشيد.

(٢) كان في البندقية ثلاثة أماكن تسمى باسم رياتو: جزيرة، وموضع استبدال النقود؛ والجسر القائم فوق القنال الكبير. والكلمة منحوتة من كلمتين: ريفنا، وألتو، أي الساحل العالي. أما المراكشي فهو بطل؛ رواية شكسبير بهذا الاسم؛ وشيلوك أحد أبطال رواية: "تاجر البندقية" لشكسبير أيضاً؛ أما بطرس فكان بطل رواية "البندقية المصونة" تأليف أوتوي.

-٦-

ذلك ملاذ شبابنا وشيوختنا: ملاذ الأول من الأمل، وملاذ الشيخوخة من الفراغ. وهذا الشعور المريح يملأ عدة صفحات؛ ولعل منها هذه التي تنمو الآن تحت عيني. ولكن ثمة مع هذا أشياء تفوق قوة حقيقتها بهاء بلادنا الخرافية التي نخترعها بخيالنا؛ إنها ذوات أشكال وألوان يفوق جمالها جمال سمائنا الخيالية، وجمال هذه الكواكب الغريبة التي برعت الموسا في نشرها فوق عالمها الوحشي.

-٧-

لقد رأيتها، أو لعلني أكون قد حلمت بها؛ لكن دعنا من هذا! فقد تبدت أمام عيوني وكأنها الحقيقة، ثم اختفت كالأحلام. وفي وسعي، لو شئت، أن أستبدل بها غيرها. ففي استطاعة عقلي أن يبتكر أشكالاً مشابهة لتلك التي نشدتها، ووجدتها أحياناً. لكن دعها أيضاً تسلك سبيلها هي الأخرى؛ فإن العقل وقد استيقظ في نفسي، يعتبر هذه الخيالات المزهوة المغرورة غير لائقة ولا سليمة، وثمة أصوات أخرى تتحدث إليّ، وموضوعات أخرى تحيط بي.

-٨-

لقد تعلمت لغات أخرى؛ ولم أعد غريباً في بلاد ليست وطني؛ والعقل الذي يعرف كيف يكون مخلصاً لذاته، لا يدهش من أي تغير يلاقه، وليس من العسير عليه أن يجد وطناً؛ - به أو ليس به - إنسان. ومع هذا فقد ولدت في بلد يفخر الناس بأنهم من أبنائه - ولهم الحق في هذا. فإذا كنت قد هجرت هذه الجزيرة إلى الأبد، موطن الحكمة الحرية، وإذا كنت أنشدُ وطناً آخر وراء البحار....

-٩-

فلعلني قد أحببته كل الحب! وإذا وضعت رفاقي في أرض أجنبية، فإن روحي ستعود إلى وطني، إذا كانت الروح، بعد انفصالها عن البدن، تستطيع أن تختار لها مقاماً. وإنني لأنأغي الأمل في أن أذكر على لسان ذرتي بلغتي الأصيلة. لكن إذا

كانت هذه الأماني عزيزة المنال بعيدة المجال؛ وإذا كان مجدي مثل سعادتي، سريع الإضاءة والانطفاء؛ وإذا كان النسيان الكئيب الكالغ سيمحو...

- ١٠ -

اسمي من المعبد ^(١) الذي يبجل فيه الموتى جميع الأمم - فليكن ولتزين أكاليل الغار جبيناً أسمى من جبيني، ولينقش على قبري رثاء هذا الأسبرطي: "لقد كان لاسبرطة أبناء خير منه". ^(٢) ومع هذا فلست أسعى، بل ولست في محتاجاً إلى أي عطف. إن الأشواك التي اقتطفتها قد نبتت على الشجرة التي غرستها: وقد مزقت قلبي وأسالت منه الدماء؛ وعليّ أن أعلم أي ثمار ستنتجها مثل هذه البذور.

- ١١ -

إن الأدرياتي الأرمل ينوح اليوم على زوجته؛ وزواجه السنوي لم يعد يتجدد الآن، والبوستور يعفن كالثوب الخلق ^(٣). والقديس مرقس لا يزال يرى أسده في ذات المكان الذي كان يحتله من قبل، ولكنه صار أضحوكة في يد قوته المتداعية، في ذلك الميدان الذي ظهر فيه أمبراطور متضرعاً، بينما نظر الملوك مشدوهين حاسدين إلى البندقية حين كانت ملكة غنية ذات بائنة لا مثيل لها.

- ١٢ -

لقد ذل الملك الشفابني ^(٤)، حيث يسود اليوم الملك النمساوي؛ إن امبراطوراً يطأ بأقدام متعجرفة أرضاً رقع عليها إمبراطور آخر. إن الممالك تصير مقاطعات بسيطة؛

(١) هذا المعبد هو وستمنستر أبي، حيث يدفن عظماء الإنجليز.

(٢) "هذا هو جواب أم براسيداس، القائد الأسبرطي (الذي مات في ساعة النصر، سنة ٤٢٢ ق م)، للأجانب الذين مدحوا ذكرى ابنها" (بيرن).

(٣) كانت البندقية في صف البابا في نزاعه مع فريدرش بربروسا (الذي يشير إليه بقروله: الامبراطور، والشفابني، نسبة إلى إقليم إشفانين في جنوب ألمانيا). فأهداها البابا، جزاء خدماتها، خاتماً ذهبياً يكون خاتم خطبتها إلى البحر الأدرياتي، كذكارة لعظمتها البحرية. فكان يقام احتفال سنوي بمراسم هذه الخطبة والزفاف، بأن يلقي الدوج بخاتم في الأدرياتي، وهو على ظهر السفينة المدعوة باسم بوستور. وقد منعت هذه العادة منذ أن أصبحت البندقية جزءاً من الأمبراطورية النمساوية في سنة ١٧٩٨

(٤) هو فريدرش بربروسا، دوق اشفانين، امبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وقد وقع في نزاع مع البابا اسكندر الثالث. ولكنه هزم واضطر للخضوع لهذا البابا خضوعاً مهيناً علنياً يكون حادثة من أشنع الحوادث التاريخية، إذ اجتمع البابا اسكندر الثالث في بهو كنيسة القديس مرقس ومن حوله كبار رجال الكنيسة، وتقدم نحوه الأمبراطور فردريك، وألقى كل مظاهر أبهته الأمبراطورية، وخلع معطفه ثم سجد بكل جسمه تحت أقدام الباب. فرفعه اسكندر برفق من الأرض، وقبله، وباركه.

والأغلال تصفد مدناً كانت ذات صولة وسلطان؛ والأمم تهوي من ذروة المجد: فبعد أن تلالأت مدة في شمس المجد، هوت دفعة واحدة إلى الحضيض كشلاجة انحلت من حزام الجبال. أوه! ألا ليت ساعة أخرى لندولو (١) العجوز الأعمى ! ألا يبعث هذا السيد الذي بلغ الثمانين، هذا الذي فتح القسطنطينية!

- ١٣ -

إن جياده البرنزية (٢) لا تزال تلمع أمام باب سان مركو، وعقودها الذهبية تعكس أشعة الشمس الزاهية. لكن، ألم يتحقق وعيد دوريا (٣)؟ ألم توضع اللجم في جياده؟ إن البندقية، وقد فُقدتْ وكُسِبَتْ، قد انتهت الثلاثة عشر قرناً التي نعمت فيها بالحرية، وغرقت هي كالنبته البحرية تحت الأمواج التي انبعثت هي منها. وخير لها أن تغرق تحت الأمواج؛ وأن تفر من أعدائها حتى وهي في أعماق الخراب، هؤلاء الأعداء الغرباء الذين إن خضعت لهم ودانت، جملوها بعار ولم تنشذ الراحة إلا في الذل والقماء.

- ١٤ -

لقد كانت في شبابها مجللة بأكاليل المجد، حتى كانت (صوراً) (٤) أخرى؛ فكانت الكلمة المشهورة فيها مأخوذة عن النصر: "حاملة لواء الأسد"، (٥) هذا اللواء الذي حملته خلال الدم والنار فوق الأرض وعلى متون البحار. وفي كل حين كانت تستعبد أمة جديدة، دون أن تفقد حريتها؛ كما كانت درعاً يحمي أوربا من العثمانيين. وإني لأستشهد على هذا بكانديا (١)، منافسة طروادة، وأنت أيتها الأمواج الخالدة التي

(١) دنرولو الشيخ الأعمى كان من كبار دوجات البندقية، وقد استولى على القسطنطينية سنة ١٢٠٤.

(٢) الجياد البرنزية الأربعة الموجودة أمام كنيسة القديس مرقس، وقد أحضرها دنولو من القسطنطينية بعد استيلائه عليها.

(٣) كانت البندقية في نزاع طويل مع جنوة، حتى اضطرت إلى طلب الصلح سنة ١٣٧٩، فأجاب دوريا، زعيم جنوة بهذا الجواب: أقسم بالله يا أهل البندقية، إنكم لن تحصلوا على سلام... قبل أن نضع لجماً في جياكم المطلقة العنان. ولكن الحظ أسعف البندقية فانتصرت، وقتل دوريا، وهزمت جنوة أشنع هزيمة، حتى اضطرت إلى طلب الصلح.

(٤) كانت صور أول امبراطورية بحرية كبرى في التاريخ.

(٥) قال بيرن في التعليق: "حاملة لواء الأسد"، أي أسد القديس مرقس، لواء الجمهورية، ومنه أتت الكلمة ينتالون، وبناتاليون إلخ.

ولكن هذا الاشتقاق موهوم غير صحيح؛ إنما أتت هذه الكلمة المبرع عنها بهذا القول: حاملة لواء الأسد، من اسم "القديس بنتاليون"، القديس الشفيح لمدينة البندقية؛ ومن هنا صار اسم بنتاليون لقباً على كل بندقية.

شاهدت معركة ليبانتو، فتلك أسماء لن يمحوها الزمان ولا الطغيان.

-١٥-

إن دوجاتها الغابرين قد صاروا في التراب كأنهم قماثيل من الزجاج قد حطمت.
لكن مساكنهم هنا من قصور شامخة فاخرة تتحدث عن مجدهم التالد العريق. وإن
صولجانهم المحطم وسيفهم المغطى بالصدأ قد سُلِّمًا للغازي الأجنبي. وإن قصورها
الخواوية، وشوارعها الضيقة والوجوه الغربية التي تذكرها بمن هم الناس الذين
استعبدها، كل هذا قد أرخى سحابة كابية موحشة فوق أسوار البندقية العزيرة.

-١٦-

حينما صرعت جيوش أثينا في سروفوسة، وتحمل الآلاف المغلولون نير الحرب، جاء
الخلاص من الموسا الأتيكية، فكانت أغانيها فديتهم الوحيدة بعيداً عن بلادهم. انظر!
حينما يتردد نشيدهم الحزين، تتوقف عربة الظافر المدهشة، فيسقط من يده اللجام
والسيف الذي لا يعمل شيئاً آنذاك، وإذا به يفك أغلال الأسرى، ويأمرهم بأن يشكروا
للشاعر أشعاره التي وهبتهم الحرية^(٢).

-١٧-

وهكذا، أي مدينة البندقية! حينما لا تكون حقوقك ثابتة قوية، وتكون انتصاراتك
التاريخية قد نسيت، سيكون في وسع ذكرى شاعرك المحبوب، وحبك لتسو أن يحطما
الأغلال التي قيدك بها الطغاة. إن محتكك عار على الأمم الأوربية، وعار عليك
خصوصاً، أي ألبيون! أَوَيَخْلُقُ بملكة البحار أن تتخلى عن أبناء البحار؟ لعل سقوط
فينيسيا أن يجعلك تفكري في سقوطك، بالرغم من أسوارك الحصينة من الأمواج.

-١٨-

(١) كانديا، مدينة في جزيرة كريت، دافع عنها أهل البندقية ضد الأتراك لمدة أربع وعشرين سنة (١٦٤٥-١٦٦٩)؛ ولذا أطلق عليها
هنا لقب منافسة طروادة التي حوصرت عشر سنوات. أما معركة ليبانتو فمعركة بحرية مشهورة وقعت في مدينة ليبانتو بالقرب من
مدخل خليج كورنتوس سنة ١٥٧١ بين الأسطول التركي والأسطول المشترك للدول المسيحية في البحر المتوسط، تحت قيادة دون جون
التمساوي. وقد شاركت البندقية بنصيب كبير في هذه المعركة.
(٢) "راجع هذا التاريخ في حياة نقياس التي وضعها فلوطرخس" (بيرن).

لقد أحببتُ البندقية منذ نعومة أظفاري، فكانت لقلبي مدينة ساحرة، تنبثق وسط الأمواج كقصر في البحر أو كعمود من الماء، وكانت مأوى للسعادة وملتقى لأنواع الثراء. وفن أوتوبي ورادكلف وشلر وشكسبير^(١) قد طبع صورتها في نفسي. وعلى الرغم من أنني رأيتها حين على هذه الحال البائسة، فإن حبي لها لم يتناقص؛ بل لعلها اليوم في أحزانها أن تكون أعز منها حينما كانت مفخرة وفتنة وعجيبه من العجائب.

-١٩-

في وسعي أن أسكن الماضي في البندقية، وقد بقي لها من الحاضر ما يكفي لكي يلذ العين والفكر والتأمل الحزين؛ بل لعل فيها أكثر مما نشدت وأملت أن أجده في البحار. إيه يا فينيسيا الجميلة! إن شطراً من أسعد لحظات حياتي، يدين لك بألوانه؛ وإذا لم تكن ثمة عواطف لا يخنقها الزمان، ولا يزعزعها الألم، إذن لكانت عواطفني كلها باردة خرساء.

-٢٠-

في جبال الألب تنمو أشجار الصنوبر البالغة العلو، خصوصاً فوق أكثر الصخور قحولاً وتجرداً، حيث لا يوجد ثمة في باطن الأرض ما يحميها ضد صدمات العواصف المهتاجة التي تهاجم هذه الجبال؛ لكن جذوعها الخضر تهزأ دائماً بالعاصفة العادية، وتعلو حتى تبلغ درجة تليق بالجبال التي أعطت صخورها القاحلة الغبراء الحياة لهذه الأشجار، حتى صارت دوحاً عملاقاً. وهكذا أيضاً يمكن أن تنمو الروح.

-٢١-

(١) توماس أوتوبي (سنة ١٦٥١ أو سنة ١٦٥٢-١٦٨٥)، مؤلف مسرحي إنجليزي، ولد بالقرب من هيرست في سسكس، ودرس في أكسفورد. وكانت حياته القصيرة عامرة بالبؤس والفقر، حتى ليقال إنه مات جوعاً. وقد بدأ حياته كممثل، فلما فشل أصبح مؤلفاً مسرحياً، وله عدة روايات منها دون كارلوس، وأمير اسبانيا، والبندقية المصونة الخ. وكان يمتاز بوصف العواطف الحادة واستشارة أدق الأحران والدموع. أما من أن رادكليف (سنة ١٧٦٤-١٨٢٢) فمؤلفة روائية إنجليزية، كتبت "قصة فروسية في صقلية"، "قصة فروسية في الغابة" "الإيطالي" الخ. وتتماز بوصف المناظر المرعبة، وقوة الخيال. أما شلر فمعروف، والإشارة هنا إلى قصة "العراف"؛ وكذلك شكسبير، والإشارة هنا إلى "تاجر البندقية" و"عليل".

إن الحياة والألم ميدان جذوراً عميقة في القلوب البائسة القاحلة المتوحدة: وإن الجمل ليحمل أمدح الأثقال دون تملل ولا شكاة، والذنب يستطيع أن يموت في صمت. هذه أمثلة لم تُعطَ عبثاً؛ فإذا كان الحيوان ذو الطبع الدنيء أو الوحشي يتألم بصبر وجلد، أفليس في وسعنا، نحن الذين بُرئنا من طين أنبل، أن نحتمل الحياة؟ إنها ليست غير يوم.

-٢٢-

كل ألم يحطم من يتألم أو هذا يحطمه؛ وفي كل حادثة ينتهي. فالبعض منا يحييهم أمل جديد، فيعودون من حيث أتوا وينيبون إلى أحلامهم الأولى، مثلهم مثل العنكبوت يجدد نسيجه بعد أن يمزق؛ و بعضٌ آخرُ يحنى رأسه بذلة وخضوع، فريسةً لشيخوخة مبكرة، فتذبل زهرته قبل الأوان، ويفنى مع العود الذي اعتمد عليه؛ وفريق ثالث ينشد السلوى في التقوى أو العمل أو الحرب أو الفضيلة أو الرذيلة، وفقاً لطبيعة نفوسهم من حيث كونها جبلت على الانحدار أو على الصعود.

-٢٣-

لكن عبثاً يروض المرء ألامه؛ فإن لها دائماً آثاراً كآثار حمة العقرب، لا تكاد ترى ولكنها مليئة بمرارة جديدة. وقد تحمّل الأشياءُ التافهة القلبَ بأوزارٍ كان يود أن يتخلص منها إلى الأبد: فقد يكون في وسع صوت أو نغمة موسيقى أو أمسية صيف أو ربيع أو زهرة، أو ربح، أو محيط، - قد يكون في وسع واحد من هذه الأشياء أن يفتح الجرح من جديد، وأن يهز السلسلة الكهربائية التي تصفدنا بحلقاتها الخفية؟

-٢٤-

ما السر في هذا! لسنا ندري؛ ومن المستحيل علينا أن نكتشف أصل هذا البرق الذي يصيب النفس؛ إنما نحن نشعر بضرياته الجديدة، دون أن نقدر على محو الأثر الأسود المؤلم الذي يتركه من خلفه. إنها ضرات غادرة قتالة تصيب في اللحظات التي تكون أقل ما يكون حسبناً لوقوعها، ووسط أكثر الأشياء إلفة لنا وحدثاً، فتثير

عندنا أشباحاً وأرواحاً لا تستطيع أية تعزيمة أن تقتنصها - القلوب الباردة، الأصدقاء الذين تغيروا، وربما الموتى أيضاً، ومن نبيكهم، ومن أحببناهم وفقدناهم - آه ما أكثرهم، ومع هذا فما أقلهم !

-٢٥-

لكن روحي قد ضلت؛ وهأنذا أدعوها من جديد كيما تتأمل هذه الأطلال، وتقوم طلاً وسط أطلال، حتى تستعيد ذكرى دول دالت، وعظمة انقبرت، في بلاد كانت في ذروة القوة أيام مجدها العتيق، ولا زالت تأسر النفوس بجمالها، وستظل هكذا أبداً؛ بلاد هي النموذج الأعلى الذي كان في يد الطبيعة السماوية، فصنَع فيها الأبطال والأحرار، وذوو الجمال والشجعان وسادة الأرض والبحار.

-٢٦-

وجمهورية الملوك، ومواطنو روما. ومنذ ذلك العهد، أي إيطاليا الجميلة: كنت دائماً وما زلت أيضاً جنة الدنيا و فردوس الوجود، ومأوى الفن بكل ما يستطيع إبداعه، والطبيعة بكل ما في وسعها أن تهبه. بل من ذا يستطيع أن ينافسك حتى في وحشتك اليوم؟ إن أعشابك نفسها جميلة، وقحول أرضك أثمن من خصوبة بقية الأراضي؛ وإن أطلالك لأمجاد، وإن لخرائبك سحراً بكرة لا يستطيع أن يفرضه أحد!

-٢٧-

أشرق القمر، ومع هذا فليس الليل بعد. وإن الغروب ليتقاسم معه السماء؛ وإن بحراً من البهاء ليفيض على طول الأعالي الزرقاء لجبال فيريولي. والسماء خالية من السحاب، لكنها تبدو مصبوغة بعدد الألوان، حتى لتتراءى وكأنها قوس قزح عظيم يمتد نحو الغرب، فيه يتصل النهار بالأبدية الماضية، بينما من الجانب الآخر يحلق قرص ديانا الوديع في الهواء الأزرق، كأنه جزيرة الناعمين^(١).

(١) كتب بيرن تعليقاً على هذه الفقرة ما يلي: "قد يبدو هذا الوصف خيالياً أو مبالغاً فيه في نظر هؤلاء الذين لم يروا مطلقاً سماء إيطاليا ولا سماء الشرق. غير أنني لا أقدم هنا إلا التصوير الدقيق لأمنية من أماسي شهر أغسطس، كما شهدت بنفسي في جيولاتي العديدة على شواطئ البرتتا".

-٢٨-

وبالقرب منه نجمة واحدة، تسيطر مع القمر على نصف قمة السماء؛ لكن فيوض النور التي ترسلها أشعة الشمس تظل فوق أعالي الألب الريفية^(١)، وكأن النهار والليل قد رفضا أن يسلم أحدهما الآخر، حتى تأتي الطبيعة فتطالب بتنفيذ قانونها. وأمواج البرنتا تتلقى من ألوانها مجتمعة، صبغة من الأرجوان ذات لون وردي كلون الوردية الحديثة الميلاد، تشع فوق تياره، وتلمع فوقه.

-٢٩-

وامتلات بوجه السماء، الذي يأتي من بعيد لينعكس على سطح الماء. وكل الأصبغ، من الغروب الغني بالألوان حتى النجمة الباهرة للمعان، تنشر فروقها اللونية الساحرة. وها هي ذي الآن تتبدل؛ فينشر ظل شاحب معطفه فوق الجبال؛ والنهار الراحل يغني كالدُّخَس الذي تعطيه كل حشرجة من حشرجات موته لوناً جديداً يزداد زهواً، حتى تأتي الأخيرة فيموت ويصير كله أغبر.

-٣٠-

ما هذا القبر الذي يتبدى أمامي في أركوا، محللقاً في الهواء؟ إنه الناوس الذي ترقد فيه عظام عاشق لورا^(٢). إلى هنا يحج كل من يعشق أغاني هذا الشاعر العبقرى الذي أجاد التغني بآلامه. لقد ولد كيما يمنح وطنه لغة، وينقذ بلاده من نير أعدائها المتبريرين القاسي؛ لقد سقى الشجرة التي حملت اسم محبوبته بدموعه الموسيقية الرائعة، التي كفلت له الشهرة الخلود.

-٣١-

إن ترابه محفوظ في أركوا، حيث أوفاه الحمام، وحيث قضى الأيام الأخيرة من حياته هنا في هذه القرية القائمة على سفح الجبال. وإن أهلها ليقدمون، بفخر وكبرياء

(١) الألب الريفية جبال عالية في شمال وغرب البندقية .

(٢) عاشق لورا هو الشاعر الإيطالي المشهور فرنسيسكو بتركة (سنة ١٣٠٤-١٣٧٤). ولورا هي محبوبته، وكانت فرنسية الأصل من أفينيو، وزوجة هوجودي ساد؛ وحينما رآها بتركة، كانت سنة الثانية والعشرين، وسنها العشرين؛ وقد كرس أكبر أشعاره للتغني بجمالها .

أمانة، أمام أعين الزائر الغريب، بيته وضريحه: وكلاهما بسيط، لكنها بساطة تشير كل إجلال وتقديس، حتى تبعث عاطفة أكثر انسجاماً مع أغانيه من تلك التي يثيرها هرم يقام فوق قبره.

-٣٢-

والقرية الصغيرة الهادئة الناعمة التي سكن فيها، ذات هيئة تتبدى وكأنها صنعت من أجل هؤلاء الذين شعروا بفنائهم، ونشدوا ملاذاً من آمالهم المحطمة في الظلال العميقة لخمائل مخضرة فوق الروابي؛ وهي تُري منظرًا بعيداً عن المدن الأهلة المكتظة بالأشغال والأعمال، تلك المدن التي لا يستطيع بهرجها أن يغري بعدُ أحداً من أصحاب هذه القلوب اليائسة. إن شعاعاً من الشمس الجميلة يساوي عندهم عيداً.

-٣٣-

إنهم يهيمنون بالجبال والخمائل والأزهار، والأشعة المتلألئة على سطح الجدول الهامس^(١)، الذي يلذ لهم أن يتناسوا عنده مرور الزمان السريع، ويقضوا أياماً أصفى من البلور الناصع، وشعورا بالدعة والرخاوة ما وسعهم الشعور، هذه الدعة المتبظلة التي قد تبدو في نظر الناس تعطلاً وبطالة، ولكن لها مع هذا فلسفتها وقيمتها. ذلك أنه إذا كنا نتعلم من الجماعة كيف نعيش، فإن الوحدة يجب أن تعلمنا كيف نموت. هنا، في الوحدة، لا نشاهد متملقين، والغرور لا يجد فيها مكاناً لتقديم معونته الزائفة. إن المرء حين يكون وحيداً لا يناضل إلا مع إلهه.

-٣٤-

أو لعله أن يناضل مع الشياطين الذين يأتون كيما يشنوا حرباً شعواء على أحسن أفكارنا، وينشدوا فريستهم في القلوب المحزونة التي برئت من طينة كئيبة منذ ميلادها، فلذ لها أن تقطن الظلام والوحشة والكآبة، طانين في أنفسهم أنهم قد فرض عليهم مصير من الأحزان السرمدية التي لا تنتهي أبد الدهر: فالشمس عندهم دماء، والأرض قبر، والقبر جحيم، الجحيم هو الآخر أشد هولاً مما يحسب الخيال.

(١) يسمى هذا الجدول باسم جدول بتررکه .

-٣٥-

أي فرأرا! في طرقاتك الواسعة التي تنمو بها الأعشاب، والتي يدل تنظيمها على أنها لم تصنع للوحدة، يبدو كأن ثمة لعنة على مجالس السادة السابقين؛ وخلال قرون رأت أسوارك أمراء بيت أست القديم، حيناً طغاة وحيناً حماة (وفقاً لأهواء الدول الصغيرة)، حماة يشجعون هؤلاء الذين توجوا بالغار الذي لم يحمله من قبلهم إلا جبين دانتته.

-٣٦-

وإن تَسُو^(١) مجددهم وعارهم معاً! فسلام على هذا الشاعر الإلهي! اسمع لقيثارته! وتأمل ضيق الصومعة التي وضع فيها! وانظر كيف دفع توركواتو (تَسُو) ثمناً فادحاً من أجل شهرته، وكيف أمر ألفونسو شاعره بالسكنى: إن هذا الطاغية البائس لم يستطع أن يطفى نار هذه النفس المهانة التي أراد الطاغية أن يحشرها في زمرة المجانين في جحيم كذف بهم جميعاً فيه. إن مجده العظيم قد بدد السحب التي أحاطت به؛

-٣٧-

وإن الدموع والمذائح لتقدم كل يوم إلى الأبد إلى هذا الاسم الخالد، اسم تَسُو. أما اسمك أنت يا ألفونسو، فسيعفن في النسيان، ويظل أبداً في التراب الحقيقير، وهو الشيء الباقي الوحيد من أسرتك المتكبرة؛ لكن الحلقة التي وضعتها في كوارثه تحملنا على التفكير في مكرك الحقيقير، وذكر اسمك باحتقار. أي ألفونسو! أين الآن هذه الأبهة التي أحاطت بك فوق العرش؟
لو أنك قد ولدت في طبقة أخرى، لما كنت جديراً حتى بأن تكون خادماً وعبداً لهذا الذي اضطهدته وسُمته سوء العذاب.

(١) توركواتو تسو، الشاعر الإيطالي المشهور (سنة ١٥٤٤-١٥٩٥) الذي ولد في سورتو في ١١ مارس سنة ١٥٤٤، وقد درس في جامعتي بادوفا وبولونيا. ومن سنة ١٥٦٥ إلى سنة ١٥٧٠ التحق ببلاط الملك ألفونسو، حاكم فرارا. لكن أشيع أنه أحب أخت الملك، فاتهم بالجنون ووضع في مستشفى المجانين.

-٣٨-

أنت، أنت لم تخلق إلا لتأكل وتحتقر وتموت، كالذباب التي تنفق؛ ولا فارق بينك وبينها إلا أن علفك كان أئمن، واسطبلك كان أشد سعة. أما هو، هو، فقد أحاطت به هالة رائعة من المجد، وتكلل جبينه المغصن بالأفكار بأكاليل الغار؛ ونوره قد أضاء ولا يزال يضيء في حضرة كل أعدائه: عصابة الكروسكا، ويوالو هذا الذي نظر إلى أغانيه بغضب حاسد، لأنها فاقت وأخجلت قيثارة وطنه الظاهرة النشاز، التي تؤذي أصواتها الصارخة كل الآذان، أو تبعث على النوم بما فيها من اطراد وإملال.

-٣٩-

سلام على روح توركوواتو المهانة! لقد قدر له أن يكون هدفاً لسهام الحقد المسمومة إبان حياته وبعد مماته. لكن لم يصبه منها سهم واحد. أنت يا من لم يَفُقْكَ أحد من الشعراء المحدثين! إن كل سنة تمضي تجدد الملايين من أبناء الأرض. لكن كم من المسنين سيمر؛ وكم من الأجيال ستمضي موجاتها قبل أن تقدم لنا عبقرية مثلك؟ لو اجتمع الشعراء أجمعين وانضمت أشعتهم المتفرقة في ضياء واحد، لما استطاعوا أن يكونوا شمساً جديدة بأن تقارن بك.

-٤٠-

لكن، على الرغم من عظمتك، فقد وجدت من ينافسك في شخوص أسلافك من مواطنيك، هؤلاء الذين تغنوا بالجحيم وبالفروسية. أولهم التوسكاني الذي أبدع "الملهاة الإلهية"؛ والآخر، وهو لا يقل عن هذا الفيرنتسي (دانتة)، هذا الذي يشبه وولتر اسكوت من بين أهل الجنوب، هو ذلك الشاعر الذي استطاع بنشيدته الساحر أن يبده خلقاً جديداً، كما استطاع، مثل أريوستو الشمال، أن يتغنى بالحب والغادات الحسان، والترويادور ومغامرات الفرسان.

-٤١-

إن الصاعقة قد انتزعت من تمثال أريوستو إكليل الغار المزيّف الذي توجه؛ ولم تكن نار السماء ظالمة في هذا، لأن إكليل الغار الحقيقي الذي يضره المجد هو تلك

الشجرة التي لا يمكن الصاعقة أن تؤثر فيها. أجل، لقد كان هذا الإكليل الزائف عاراً على جبينه. لكن، إذا كانت الطيرة تحزن أحد المعجبين، فليعلم إذن أن الصاعقة تقدر كل ما تمسه، وأن هذه الرأس مقدسة الآن أضعافاً.

-٤٢-

إيطاليا! أي إيطاليا! لقد أحرزت هبة الجمال القاتلة، التي صارت بالنسبة إليك مصدرراً لآلامك ومصائبك: الحاضرة منها والماضية. فعلى جبينك العذب طبع الحزن الممزوج بالعار، ونقشت أخبارك بحروف من نار ولهيب. أواه، إلهي! لماذا لم تخلقها أقل جمالاً أو أكبر قوة، كيما تذود عن حقوقها وتدفع عنها اللصوص وقطاع الطرق الذين اندفعوا بعصابتهم ليسفكوا دماءها، ويشربوا دموع مصائبها؟

-٤٣-

هنالك كنت سيخشي بأسك أكثر فأكثر. أو إن كنت أقل جمالاً وثراء، لقد كنت ستكونين هدفاً أبعد للمطامع؛ وحينئذ ستعرفين السعادة، ولا تبكين على مفاتنك القاتلة. ولن تربي إذن بعد تتابع هذه السيول من الجنود التي لا تنفك تعبر جبال الألب باستمرار لتندفع في واديك، وهذه الأخلاط المتوحشة من المدمرين اللاعبين الذين يأتون ليرتوا من مياه البحر الدامية. ولن يكون سلاحك الذي يدافع عنك إذن سيف الأجنبي. وسواء عليك انتصرت أو قهرت، فلن يُقدَّر عليك حينئذ أن تكوني أمةً لعدو أو صديق.

-٤٤-

إبان تجوالي في عهد الشباب، تابعت هذا الطريق الذي سافر فيه ذلك الروماني الذي كان صديقاً لأحد أبناء روما الخالدين، صديقاً لثيشرورون^(١). فقد أتت ربح رقيقة أعانت مركبي على شق طريقها في الأمواج الزرقاء اللامعة، فصرت قبالة ميغارا، ومن

(١) هذا الصديق لثيشرورون هو سرفيوس سليقيوس، الذي كتب خطاباً مشهوراً إلى ثيشرورون بمناسبة موت ابنته وهو يتضمن وصفاً، لا زال إلى اليوم صادقاً، لطريق تبعته أنا في بلاد اليونان، في الأرض وفي البحر، في كثير من الرحلات، وعند عودتي من آسيا، متجهاً من مصر إلى ميغارا، بدأت أتأمل منظر المنطقة المحيطة بي؛ فكانت أيجينا من خلفي، وميغارا أمامي؛ وعن يميني بيريه، وكورنتوس إلى يساري. وكل هذه المدن التي كانت مشهورة في العهد الغابر، فقد انتقلت اليوم وكأنها مقبورة تحت أطلالها. فلما رأيت هذا المنظر، لم أملك نفسي من التفكير على هذا النحو؛ ما أتمسنا معشر الناس، لماذا نحزن كل الحزن حينما نفقد أحد الأصدقاء، نحن الذين حياتهم قصيرة، بينما خرائب كثير من المدن تنهال على أنظارنا دفعة واحدة؟ (بيرن).

خلفي كانت إيجينا، وعن يميني بيريه، وإلى يساري كورنشوس. فأطرقت فوق جوجؤ السفينة، وتأمّلت، كما فعل سيلفيوس، منظر كل هذه الأطلال الحزين.

-٤٥-

لأن الزمان لم يُعَدِّ بناء هذه المدن المندثرة؛ إذ لم يفعل أكثر من أنه أقام على أنقاضها المشوهة أكواخاً ومساكن بربرية: مساكن تزيد في تعاسة منظرها، كما تزيد في قيمة البقية الباقية من الأشعة المتناثرة، والأنقاض المحطمة لقوتها التي زالت. لقد رأى الروماني هذه القبور في أيام وجوده، قبور المدن هاتيك التي تثير في النفس عجباً حزيناً؛ وإن وصفها كما وصل إلينا ليحمل في طياته ذلك الدرس النافع الذي يمكن أن يستخلص من هذه الرحلة.

-٤٦-

إن هذه الصفحة أمامي الآن. وإلى المدن التي رثى اضمحلالها والتي رأيتها قد اندثرت تماماً، في وسعي أن أضيف أيضاً خراب وطنه هو الآخر. أجل إن روما، روما الأمبراطورية، قد حنت رأسها تحت العاصفة، ومرغت خدها في تراب أطلالها السود. وها نحن أولاء نطأ بأقدامنا رفات هذا المارد العظيم، وبقايا أمبراطورية لا زال رمادها دافئاً.

-٤٧-

ومع هذا، أي إيطاليا، فإن أخطاءك ستتردّد من بلد إلى بلد، وستروى من جانب إلى آخر في هذا العالم. أي أمّ الفنون، كما كنت من قبل أمّ السلاح؛ لقد كان ساعدك آنذاك حارساً لنا يحمينا، ولا يزال إلى اليوم يهدينا. أي أمّ ديننا؛ يا من ركعت لك أمم عدة من أجل الحصول على مفاتيح السماء؛ إن أوربا، النادمة على أمها، ستحطم يوماً أغلالك. وإخالني أرى الآن انسحاب الأمواج من المتبريرين الذين غمروا ريفك؛ وهأنذا أسمعهم يسألونك الغفران!

ولكن الأرنو يدعوننا إلى حيث تقوم أسوار الممر البيضاء الجميلة، حيث تهيب أثينا أتروريا (روما) بنا أن نستشعر عاطفة رقيقة نحو قصورها الفاخرة. لقد طوقت بمسرح من الروابي، وغدت تحصد قمحها ونبیذها وزینتها؛ والثراء الوافر يتنزى ويتوثب من فرط ما به من حياة باسمه ضاحكة، حاملاً قرنه الملآن. وعلى طول الشطآن التي تجري من بينها نهر الأرنو الباسم ولد الترف الحديث من التجارة، وبعثت العلوم المقبورة، كيما تبصر، نهراً جديداً.

وهنا أيضاً عشقت الإلهة (فينوس) في الحجر، وملأت الجو حواليتها بالجمال؛ وإنما هنا لنستروح عبير التنسيم الذي يهبنا قسماً من خلوده؛ وقناع السماء قد كشف نصفه؛ وإنما لنقف أمامها مشدوهين نتأمل هذا الوجه ونتوسم فيه ماذا تستطيع عبقرية الإنسان أن تفعله، أكمل ممّا تقدر الطبيعة على فعله. وإنما لنحسد عباد فينوس على هذه الجذوة الباطنة التي جعلت نفوسهم قادرة على أن تخلق إلهة كهذه وتشيع فيها الحياة.

إنّا لننظر إليها مشدوهين ونشيع بوجوهنا، لأن هذا الجمال الرائع يذهلنا ويبعث فينا السكر والنشوة، حتى يضل القلب من فرط إعجابه. هنالك نصير دائماً مشدودين إلى عربة الفن الظافر، كأننا أساري لا نود الابتعاد والرحيل. ألا بعداً للكلمات والألفاظ المحددة، هذه الرطانة التي يتحدث بها تجار الممر، والتي تحمل الحذقة الحمق على الإعجاب بها. إن لنا عيوناً؛ والدم والنبض والصدر يؤيد مديح الراعي الداردي^(١).

(١) الراعي الداردي أي الطروادي، وهو باريس، ابن بريام ملك طروادة، الذي قدر له أن يكون محنة لوطنه. وقد تربى بين الرعاة حتى صار واحداً منهم، ولكنه كان شجاعاً مقداماً، فاستطاع أن يظفر باحترام كل الرعاة وتقدير الآلهة، حتى أنه لما حدث في زواج بيليوس وثيتيس أن رمت إلهة الكراهية بتفاحة ذهبية كتب عليها: إلى الأجل، في وسط جمع الآلهة، تنافس اللاهات في الظفر بها. ثم لما انحصر التنافس بين جونون وفينوس ومينرفا، لم يشأ الآلهة التدخل للحكم بين جمالهن، بل فوض الحكم لباريس لما عرف عنه من الحكمة والفضيلة وأصالة الرأي. وهنا حاولت كل من هؤلاء الإلاهات الثلاث أن تغري باريس؛ غير أنه حكم لفينوس بأنها أجمل الكل، مما أثار ثائرة جونون وانتقم لنفسها من بعد في حرب طروادة.

-٥١-

أعلى هذا النحو تبديت أمام باريس، أي فينوس، كما تبديت أمام أنشِير السعيد؟ أم تبديت في أبهى جمال ألوهيتك، مثلما تفعلين حين بحشو تحت أقدامك إله الحرب؟ إن هذا يتأمل وجهك وكأنه يتأمل نجماً، وهو جالس على ركبتك، وعيونه كلها عليك، تتغذى من جمال خدودك، بينما تنطلق من شفتيك قبلات من النهر تنصهر وهي تحرق، وتنهال فوق جفونه وأهدابه وثرغره، وكأنها تساقط من قارورة.

-٥٢-

إن الآلهة وقد اضطربوا وسكنوا من نشوة الغرام الصامت، لم يجدوا في جلال ألوهيتهم من القدرة ما يجعلهم يقوون على التعبير عما به يشعرون، حتى صاروا مثل الفنانين، وإن في حياة الإنسان للحظات إلهية تعدل أجمل لحظاتهم. غير أن عبء الأرض يبهظ كاهلنا. لكن لا ضير! ففي وسعنا أن نستعيد هذه التصاوير وأن نخلق مما كان، أو مما يمكن أن يكون، أشياء جديدة بأن تصير مثل تمثالك، فتبدي كالآلهة.

-٥٣-

وهأنذا أدع لأقلام العارفين الحكماء: الفنان ومحاكبه، مهمة وصف الملامح الجميلة والخطوط الرقيقة والانتفاخات الشهوانية لهذا التمثال الرائع. أجل، دع هؤلاء يصفون ما لا يمكن وصفه، لكن لا يأت نفسهم الفاسد ليعكّر صفاء البلور الناصع الذي تنعكس عليه هذه الصورة أبداً. إنها مرآة صادقة صافية لأجمل حلم هبط من السماء لسحر أعماق الروح.

-٥٤-

إن حرم سنتا كروتشه^(١) المقدس يحتوي تراباً يزيد في قداسته أضعافاً، يكفي وحده ليكون ضامناً للخلود، إذ لم تبق غير ذكرى الماضي وشطر من بقايا هذه العبقريات السامية التي اتحدت بالعناصر والخليط. هنا ترقد عظام انجلو^(٢) وألفييري وجليو الفلكي صاحب الكوارث والأحزان. وهنا عاد طين (مكيا فلي) من حيث أتى.

(١) كنيسة مشهورة في فيرتسه .

(٢) هو ميكلا بوزوتي النحات والمصور والمعماري المعروف .

تلك عقول أربعة تستطيع كالعناصر الأربعة أن تخلق عالماً جديداً. أي إيطاليا! إن الزمان الذي مزق ثوبك الأمبراطوري إلى آلاف القطع، قد حرم كل دولة أخرى من أن ترى عظماء الرجال يخرجون من تحت أنقاضها. إن انحلالك لا يزال غنياً بقوة إلهية تتوجك بشعاعها الواهب للحياة، وإن كانوا^(١) اليوم ليضارع عظماءك الغابرين.

لكن، أين يرقد أبناء أتروريا العظام الثلاثة: دانتته، وبتزرکه، وشاعر^(٢) النثر الذي لا يقل عنهما، هذه الروح الخالقة التي أبدعت قصص الغرام المائة؟ أين سُجِّتْ عظام هؤلاء الذين امتاز طينهم من طيننا، إن في حياتهم أو في موتهم؟ هل انحلوا إلى تراب؟ وهل مرمر بلادهم لا يستطيع أن يقول لنا في هذا الصدد شيئاً؟ وهل لم يكن في محارها من المرمر ما يكفي لصنع تماثيلهم؟ أو لم يودعوا بقاياهم عند الأرض التي ولدوا عليها؟

أي فيرننسه الجاحدة الناكرة للجميل! إن دانتته يرقد بعيداً عنك، مثله مثل شبينون^(٣) قد دفن في أرض تلومك على ظلمك! إن منازعاتك التي كانت أسوأ من الحروب الأهلية، قد طرد أصحابها ذلك الشاعر الذي يتعبد اسمه أحفادك، وفي نفوسهم ندم الأيام والدهور. والتاج الذي وضع على جبين بتزرکه قد نبت غاره في أرض أجنبية بعيدة: وإن حياته وشهرته وقبره ليست ملكاً لك، على الرغم من أنها أخذت منك.

لقد أوصى بوكاتشيو برفاته لوطنه. أفلا يرقد جثمانه وسط عظماء وطنه، وعليه تتردد أنفاس الأناشيد الحزينة، نوحاً على روح هذا الذي كون لغة توسكانيا الرخيمة؟

(١) فنان إيطالي معاصر لبيرن .

(٢) هو بوكاتشيو . مؤلف "الديكامرون" .

(٣) شبينون الأفريقي الذي انتصر في موقعه زاما ؛ ولما يئس من معاملته في روما ، رحل عن وطنه إلى ليطريوم . وعلى قبره كتب : "أيها الوطن الجحود ، إنك لن تملك ترايبي" .

هذه اللغة التي ليس أصواتها إلا أغاني وموسيقى، والتي هي شعر اللغات؟ كلا؛ إن قبره الممزق لا بد أن يتحمل إهانات ضبع التعصب الأعمى؛ بل إنه لم يجد مكاناً له وسط موتى مغمورين حقراء، كان يجد عنده من المارّ العابر زفرة يرسلها حينما يسأل: لمن هذا القبر!

-٥٩-

وسنتا كورتشه قد حرمت من ترايهم الفاخر، غير أن هذا لم يزدهم إلا شهرة، كما أن غياب صورة بروتس عن جنازة قيصر لم يفعل إلا أن زاد في تذكير روما بأعظم أبنائها. أنت أعظم سعادةً يا رافناً، أيها المعقل الأخير لأمبراطورية مترنحة! فعلى شاطئك العميق يرقد جثمان هذا المنفي الخالد. وأركوا هي الأخرى تأبى أن تسلم بقايا الشعار الذي تفخر بالاحتفاظ برفاته، بينما تطالب فيرنتسه عبثاً بفقيدها المنفي وتذرف عليه الدموع.

-٦٠-

ما قيمة هرمها المرصع بأثمن الجواهر؟ من رخام سماقي ويصّب وعقيق يمان وجواهر ومرمر عديد الألوان يغطي عظام أمرائها التجار؟ إن هذا المرمر الفاخر الذي بقي رؤوس الملوك لا ينظر إليه بنفس القدر من الاحترام الإجلال الذي ينظر به إلى العشب الأخضر الذي يقوم على نمائه ونضرتة ندى رفاف تلمع فيه أضواء النجوم، هو هذا القبر المتواضع لهؤلاء الموتى الذين تكفي أسماؤهم وحدها لكي تكون ضريحاً للموسا.

-٦١-

وعلى ضفاف الأرنو، في هذا القصر العظيم للفن، يستطيع القلب والعين أن يعجبا بكل العجائب الرائعة التي تنافس النحت هو وأخاه (التصوير) الذي يستخدم ألوان قوس قزح. ولعل ثمة عجائب وروائع أخرى غيرها؛ لكني لا أبحث عنها ولا أنشدها. لأنني تعودت أن أمزج أفكارى بالطبيعة الحية في الحقل، مفضلاً إياها على الفن في المتاحف. فعلى الرغم من أن مثل هذه الروائع تظفر من نفسي بدلائل إعجابها بها؛ فإنها لا تشعر نحوها بكل ما في وسعها الشعور به من حماسة.

-٦٢-

لأن مزاجها من نوع آخر. وأفضل أن أتجول على ضفاف بحيرة ترازيمين^(١)، وفي هذه الشعاب التي كانت نكبة على تهور الرومان: فهنا تتراءى أمامي الحيل العسكرية التي نصبها القائد القرطاجي وبراعته في حصر أعدائه بين الجبال والساحل. ويخيل إلي أنني أرى الموت يطوف بصفوفهم واليأس يستولي على شجعانهم؛ وإن أمواج دمائهم لتزيد في السيول التي تفيض إلى بعيد فوق السهل الذي جندلت عليه جحافل بأسرها،

-٦٣-

أشبه ما يكون بغابة اجتشتها عواصف الجبال. تلك كانت عزيمة الجنود في ذلك اليوم الخالد، وتلك كانت قسوة الحرب التي تُعمي الإنسان عن كل إحساس، اللهم إلا حبّ الذبح والقتل، إلى حد أن المحاربين لم يشعروا مطلقاً بزلزال^(٢) حدث آنذاك. أجل، لم يشعر أحد منهم بأن الطبيعة قد اضطربت تحت أقدامهم، وأن السهل قد انشق من أجل ابتلاع هؤلاء الذين مُدوا فوق دروعهم منتظرين تخليد اسمهم بتمائيل جنازية. وتلك كانت الحمية التي استولت على كل أفكار الشعوب الذين تسلم بعضهم ضد بعض!

-٦٤-

لقد كانت الأرض حينئذ في نظر هؤلاء الشجعان سفينة سريعة تبحر بهم إلى شاطئ السرمدية. لقد كانوا يرون جيداً المحيط حواليتهم، لكنهم لم يكن لديهم وقت لملاحظة حركات سفينتهم؛ فإن قوانين الطبيعة قد توقفت فيهم، فجهلوا هذا الفرع والرعب الذي استولى على جميع النفوس حينما تزلزل الجبال، وتأوي الطيور إلى السُحُب كي تجد فيها ملاذاً، تاركة أوكارها؛ وتترنح القطعان الثاغية فوق الوديان المضطربة، ويمسك الفرع الإنساني عن كل كلام.

(١) هي المعروفة اليوم باسم بيروجيا؛ وعندها هزم نيبال الرومانيين في المعركة المعروفة بمركة بحيرة ترازيمين، في الحرب البونية الثانية.

(٢) روى قصة هذا الزلزال ليفيوس في تاريخه (٢٢: ٥) ولكنها مشكوك فيها.

أما اليوم (فترازيمين) تتبدى على نحو آخر: فبحيرتها تتراءى كأنها سماط من الفضة، وسهلها لا يغصن سطحه خراب ولا شيء غير المحراث الرقيق. وأشجارها العتيقة تنمو وفيرة وفرة هؤلاء الموتى الذين غطوا هذه الأرض التي تمتد جذورها فيها. ولكن جدولاً، جدولاً صغيراً، تسيل مياهه الناصعة في مجرى ضيق، قد اتخذ اسمه من الدم الذي هطل مدراراً في ذلك اليوم الدامي:

أجل، إن "سنجو نتو"^(١) ينبئك بالمكان الذي غمر فيه الدم الأرض، وجعل المياه البائسة حمراء.

أما أنت يا كلوتنو^(٢)، فإن موجك العذب الذي يشبه البلور الحي قد دعا حورية النهر للتملّي بالنظر إليه وغسل أطرافها الرخصة فيه؛ إنك تتغذى العشب الأخضر الذي فيه يرعى الثور الأبيض بياض اللبن؛ أنت أظهر إله للمياه الرقيقة؛ ما أسكن طلعتك، وما أنصع رونقك؛ أجل، إن المذابح لم تدنس نهراً كهذا هو مرآة وحمام لفتيات الجمال والعذراوات.

وعلى شاطئك السعيد يقوم معبد^(٣) صغير الحجم رقيق البناء، على منحدر وديع لرابية فتانة؛ معبد يقدس ذاكراك، يجري من تحته التيار الهادئ، الذي تتراقص فيه أسماك ذوات قشور براقّة، تسكن أعماقك البلورية وقمرح؛ وأحياناً ترى جماعات النيلوفر المتفرقة تبحر إلى حيث لا يزال الموج الضحل يروي أقاصيصه الشرثارة.

(١) تصغير : سنجوه ، أي دم بالإيطالية .

(٢) كلوتنو نهر صغير ، يجري في مقاطعة الأومبريا ، وهو فرع من النفره ؛ وله ينبوع رائع الجمال ، أبدع وصفه كردوتشه في قصيدته بهذا العنوان : "ينبوع الكلوتنو" .

(٣) "لم يغفل أي كتاب من كتب الرحلات أن يتحدث عن معبد كلوتنو القائم بين فولنيو واسبوليتو ؛ ولا يوجد في أي مكان ، حتى في إيطاليا نفسها ، منظر أخلق بالوصف منه" (بيرن) .

-٦٨-

لكن لا نمض دون أن نحبي جَنِيَّ هذا المكان! فإنه إذاً مس الجبين نسيم رقيق، فإن هذا الجنى هو الذي أرسله. وإذا كان قلبك يتأثر حينما يتأمل الخضرة التي تحف بساحله؛ وإذا كانت نظرة هذا المنظر تثلج القلب، وتنقيه من غبار متاعب الحياة الجاف، كما يتطهر لحظةً بفضل وضوء الطبيعة هذا - فإنك إنما تدين بالشكر والدعوات لهذا الجنى، على أنه قد أوقف متاعبك وملالك.

-٦٩-

لكن ما هذا الهدير الذي ينبعث من المياه؟ من الأعالي الوعرة يندفع نهر فيلنو^(١) في الهاوية التي شقتها أمواجه. يا له من شلال رائع! إنه سريع سرعة الضوء؛ وهذه الكتلة المتوثبة المزودة تزلزل صخور الهاوية. إنه جحيم حقاً، فيه تزار الأمواج الهدارة وتغلي في دوامة عذابها الخالد، بينما العرق المتصبب من آلامها ينبثق من أعماق هذا الجحيم ويتعلق، على هيئة غدائر، بهذه الصخور التي تحرس الخليج المحيط، وكلها في فزع مربع،

-٧٠-

تساعد مزيدة وإلى أعلى السماء، ثم تعود من جديد هائلة بغير انقطاع، مكونة سحابة غدقة تصب على الخضرة وسمياً كوسمي الربيع، حتى تستحيل كلها إلى بساط من الزمرد. آه! ما أعمق الخليج! وما أشد هول العنصر المارد وهو يتواثب من صخرة إلى صخرة توائباً جنونياً مربعاً، محطماً الصخور التي تتشقق وتنجرف تحت أقدامه الوحشية تاركة له طريقاً مخيفاً لاجباً!

-٧١-

ويخيل إلى المرء أنه لا بد أن يرى في هذا العمود الهائل المتدفق الأمواج الأولى لأبى نهرٍ يجري بشدة وغزارة في التسوئات عدة خلال الوادي، لا بد أن يرى فيه

(١) نهر يصب في نهر النار، الذي يصب بدوره في النقره.

ينبوعا... إلخ لبحر في دور الطفولة قد انبثق من رحم الجبال وهي تتمحض من عالم جديد. أدر ظهرك وانظر إليه وهو يتقدم كالسرمدية وكأنه يريد أن يكتسح كل شيء في طريقه، ساحراً العيون بالروع. يا له من شلال منقطع النظير^(١)!

-٧٢-

إنه جميل حتى الارتياح! لكن قوس قزح^(٢) يجلس على الحافة من ناحية إلى ناحية تحت أشعة الصباح الرفافة، وسط الهاوية الجهنمية، كأنه الأمل فوق فراش الموت، محتفظاً بباهر ألوانه. وبينما كان ما حواليه تمزقه الأمواه الغاضبة، تظل ألوانه هادئة لامعة لا ينقطع لها ضياء. ويخيل إلى المرء حينئذ أنه يرى في هذا المنظر المريع، الحب ذا الجبين الساجي وهو يبسم لشطحات الجنون.

-٧٣-

وهأنذا أجد نفس مرة أخرى في غابات جبال الأبنين، هذه الأطفال^(٣) المولودة من جبال الألب. ولقد كانت جديرة بأن أزجي إليها المديح، لو لم أكن قد رأيتها من قبل وأعجبتُ بهذه الجبال التي يبسط فيها الصنوبر أغصانه فوق الأعالي الوعرة، حيث يزأر الرعد الحادث عن الثلاجات. ولكنني رأيت جبل يونجفراو^(٤) وهو يحلق في الأعالي بقمته المجللة بالثلج الذي لم تطأه قدم إنسانية؛ ورأيتها حقول الثلج الشاسعة فوق مونبلان؛ وسمعت صوت الرعد المريع يتردد على جبال كيماي.

-٧٤-

المعروفة باسمها القديم: جبال أكروكراون. ورأيت على جبل البرناس طيران النسور السريع وهي تتبدي كأنها جنّياتُ هذا الحمى الأقدس، ورسل المجد، فقد كان تحليقها

(١) "رأيت كسكاتا دل مرموره (شلال الرمز) في ترني مرتين ، وفي عهدين مختلفين : المرة الأولى رأيت فيها من قمة هاوية ، والثانية رأيت فيها من أسفل الوادي . واني أفضل رؤيته على النحو الثاني ، وأنصح بها لمن لا يستطيعون أن يروه على هذين النحوين ؛ ومن أية ناحية نظر إليه تبدى هذا الشلال أجمل من كل شلالات سويسرة وسيولها" (بيرن)

(٢) "يجد القارئ في تعليقه على روايتي : منفرد ، بعض الكلمات المتصلة بوقت حدوث هذا النوع من قوس قزح ومكانه وظهوره" (بيرن) .

(٣) جبال أبنين تمتد على طول شبه الجزيرة الإيطالية وهي فرع من جبال الألب .

(٤) اليونجفراو (ومعناه الحرفي : العذراء) أحد الجبال العالية في جبال الألب حول مدينة بيرن ؛ وسمي بهذا الإسم لأنه لم تطأه قدم ، فكأنه بكر لم يفتسه أحد . والكلام هنا طبعاً عن الماضي .

جليلا رائعاً. وتأمّلت الإيدا بعيون طروادية^(١)؛ وآتوس وألومب وأيتنا وأطلس كلها قد جعلت هذه التلال تبدو أقل مرتبة وأدنى مكانة. إنها لم تعد اليوم مجللة بالثلوج، ما عدا قمة سوراقتة^(٢)، التي تنشد الآن قيثارة هوارس،

-٧٥-

كيما تستحق أن تذكر. إن سوارقتة ترتفع وسط السهل المنبسط كأنها موجة مزيدة على وشك الارتطام بالساحل، فتظل مدة من الزمان معلقة في الهواء قبل أن تنداح على الشاطئ. ولن يضيع عبثاً عمل هذا الذي يحشد خاطره وذاكراته، ويحلق في الأجواء الكلاسيكية، موقظاً الروابي بأصداء لاتيوم. أه! لقد كنت أبغض في طفولتي حفظ أشعار الشاعر كلمة فكلمة، إلى درجة لا تسمح لي بأن أردد اليوم بسرور،

-٧٦-

شيئاً مما يذكرني بتلك الدروس البغيضة التي كانت تبهظ ذاكرتي المريضة. وعلى الرغم من أن الزمان قد علّم عقلي أن يفكر فيما كان يتعلمه، فإن قلق فكري الشاب قد غرز في نفسي من الضيق والملال ما جعلني لا أحس بما فيها من سحر الجدة قبل أن أستطيع تذوقها وقراءتها باختياري، فصارت نفسي عاجزة عن استعادة صحتها وسلامتها؛ فما كانت تعاني آنذاك، لا تزال اليوم تنبو عن مذاقه.

-٧٧-

وداعاً إذن يا هوارس! يا من أبغضتهُ لا لعلته فيه، لكن لعله في نفسي. إنه من اللعنة أن يفهم المرء أشعارك الغنائية دون أن يحسها، وأن يدركها دون أن يحبها. لم يوجد واعظ مثلك قد كشف عن حياتنا بعمق أكبر وقدرة على النفوذ أعظم؛ ولم يوجد شاعر قد فاقك في تعليم قواعده فنّه؛ وليس ثمة هجاء قد استطاع أن يهز شعورنا

(١) أي بعيون العطف .

(٢) سوراقتة . تل في شمال روما ، ذكره هوارس في إحدى أغانيه (ك ٢١ ، قصيدة رقم ٩) .

بخبث أبرع من خبثك^(١)؛ ولم يتذركِ إنسان في إيقاظ ندمنا دون أن يجرح شعورنا.
ومع هذا فوداعاً مرة أخرى؛ أودّعك على قمة سوراقتة.

-٧٨-

أي روما! أيها الوطن الذي اخترته لنفسي! أي مدينة الروح! إن يتامى القلوب
يجب أن يتجهوا بقلوبهم إليك، أيتها الأم المتوحدة لأمبراطوريات راحلة! إنهم قد
أودعوا أحزانهم الرقيقة في صدورهم. ما هي مصائبنا وآلامنا؟ تعالي وانظري إلى هذا
السرو، واستمعي إلى هذا البوم؛ تعالي دوسي بأقدامك هذه العروش المحطمة وهذه
الأنقاض لمعابد دارسة؛ إن كرويك آلام يوم. وإن العالم تحت أقدامنا لهش هشوش الطين
الذي منه برئنا.

-٧٩-

ها هي ذي نيوبيه^(٢) الأُم مائلة أمامك، وليس لها ولد، ولا يعلو جبينها تاج،
وما لها صوت يحدثك عن مصائبها: إن يدها الجافة المتجعدة لتحمل إجانة خاوية تشذر
ترابها المقدس منذ زمان طويل! فمقبرة الشيونيين لم تعد تضم رفاتهم؛ والأضرحة
نفسها قد فقدت ضيوفها الأبطال. فهل تستطيع، أيها التفرة العتيق، أن تجري في هذه
الصحراء من المرمر! ألا فلتنهض بأموالك الصفراء، ولتدثر محتنتها بمعطفك البلوري

-٨٠-

إن القوط والمسيحيين والزمان والحرب والموج والنار قد حطمت كبرياء هذه المدينة
الخالدة ذات التلال السبعة. فلقد رأت نجوم مجدها تغور الواحدة بعد الأخرى، ورأت
جياذ الملوك البرابرة تصعد الجبل الذي كانت منه تنساق عربة الظافر إلى الكابتول. إن
هذه المعابد والمباني الشامخة قد انهارت ولم تدع بعدها شيئاً؛ فصارت خليطاً من

(١) هوراس واعظاً قد ظهر في "رسائله"؛ وواضحاً قواعد الشعر في "فن الشعر"؛ وهجاء في "أهجيته".
(٢) نيوبيه؛ كانت ابنة تتالوس ملك ليدايا. وقد ذكر هوميروس وبرويريتوس أنه كان لها ستة أولاد وست بنات؛ وفي رواية أخرى
أنهم كانوا سبعة أولاد وسبع بنات. فكانوا موضع فخرها وتباهيها حتى أهانت لاتونا، لأنها لم يكن لها غير ولدين، مما أثار ثائرة
لاتونا وابنيها أبولون وديانا، فقتل أبولون الأولاد الستة وقتلت ديانا البنات الست. فظلت نيوبيه تنوح على أولادها وتبكيهم.

الأنقاض والأطلال! من ذا الذي يستطيع أن يتعرف هذه الأماكن الخاوية، وأن يضيء نوراً شاحباً على هذه الشذرات الكابية، ويقول: "هنا كان، أو هنا يوجد"، ما دام الظلام يسود هذا المكان؟

-٨١-

ظلام القرون وظلامها هي، ابنة الليل، وظلال الجهل، كل هذا قد اشتمل عليها وأحاط بكل ما حوالينا. ولا نكاد نتلمس طريقنا إلا لنضل. إن للمحيط خريطته، وللنجوم مصورها، والعلم قد بسطها جميعاً فوق روائه الواسع الفضفاض. لكن روما صارت كالصحراء، نسير فيها متخبطين فوق ذكرياتنا. وفجأة نصفق بأيدينا صائحين: "وجدتها" لقد اتضحت لعيني - ثم لا يلبث هذا أن يتبدى سراياً من الأطلال رقراقاً.

-٨٢-

وأسفاه! أين المدينة الرائعة؛ ووا أسفاه مرة أخرى؛ إلى أين ذهبت انتصاراتها الثلاثمائة، وهذا اليوم الذي جعل فيه بروتس خنجر الحرية أسمى من سيف الفاتحين الغزاة؟ إلى أي حال انتهت فصاحة شيشرون، وأناشيد فرجيل، وكتابات ليفيوس التي تبدو كأنها لوحات مصورة؟ لكن هذه الروائع ستكون سبب بعثها؛ وما عداها فمآله إلى الزوال والفناء. واحسرتاه على العالم، لأننا لن نرى بعد ذلك البريق الذي كان يرف في عينيه حينما كانت روما حرة!

-٨٣-

وأنت، أي سلاً^(١) الظافر، يا من جرت عبرته على عجلة الحظ؛ أنت يا من استطعت أن تخضع أعداء بلادك قبل أن تعرض نفسك لذحولها العادلة؛ أنت يا من

(١) سلاً: قائد روماني مشهور؛ بدأ بالعمل في الجيش تحت قيادة ماريوس وبرز في الأعمال الحربية في نوميديا؛ فبدأت شهرته في الظهور، مما أثار حسد ماريوس، فأبعده. ثم عينه مجلس الشيوخ لتنصيب أريو برزانس على عرش كبادوكيا، ضد نوايا متردانس ملك بنطش. وقد نجح في هذه المهمة. ثم عاد إلى روما وقضى على أعدائه. وكان متردانس سيد جزء كبير من بلاد اليونان. فارتحل سلاً لملاقاته وأقبح في الاستيلاء على بلاد اليونان بعد موقتي كيرونه وأور كومينوس. ثم عاد إلى روما وأصبح دكتاتوراً؛ وبعد أن نفذ كل ما أراد، استقال من الحكم، وأوى إلى مكان منعزل بالقرب من بتيولي، حيث أمضى بقية حياته. وقد نصب له تمثال في ميدان المريخ.

انتظر، من أجل تقديم رأسك للانتقامات التي حشدت ضدك، أن تحلق نسورك فوق آسيا المحطمة؛ أنت يا من كانت النظرة منك تقضي على مجلس الشيوخ، لقد كنت رومانياً بالرغم من كل عيوبك ورتائلك، لأنك تجاسرت على أن تلقي بتاجك العظيم وتتنازل عن السلطان وعلى فمك ابتساماً مكفراً عن خطاياك، خالفاً إكليلك الدكتاتوري.

-٨٤-

فهل كان في وسعك أن تتنبأ بالجبين الذي سيدنس فوقه هذا التاج الذي سما فوق كل تيجان بني الإنسان؟ وهل دار بخلدك أن ثمة رجلاً غير روماني سيضع نيلاً مهيناً فوق كاهل روما الخالدة التي لم تسلم جنودها إلا للنصر؛ روما التي مدت ظلها الهائل فوق الأرض كلها، ونشرت أجنحتها الطامحة حتى بلغت حدود الأفق؛ روما التي ناداها الكل باسم ملكة العالم؟

-٨٥-

لقد كان سلاً أول الظافرين؛ ولكن سلانا، كرومويل، كان أحكم المغتصبين: فهو قد طرد الشيوخ مجلدين بالعار، بعد أن أحال العرش إلى مقصلة. أيها الشاعر الخالد، انظر أي جرائم يستدعيها أن يكون المرء حراً لحظة واحدة، ومشهوراً في القرون التالية؛ لكن كم من درس نافع خلفه لنا مصيره؛ إن اليوم الذي شهد أروع انتصاراته كان هو بعينه اليوم الذي شهد موته؛ لقد كان أكثر سعادة حينما لفظ النفس الأخيرة، مما كان حين ظفر بملكيتين.

-٨٦-

في اليوم الثالث من ذلك الشهر الذي رفعه فيه انتصاران إلى قمة المجد، أنزلته الطبيعة من عرشه المغتصب، كيما يرقد في التراب الذي خلق منه. لقد أراد القدر بهذا أن يبين لنا كيف أن كل ما نعتقد أنه جدير بأمانينا، وكل ما يجربنا في طرق وعرة شاقة يذيب نفوسنا فيها، هو في نظره قد صنع من أجل القبر، أولى من أن يكون من أجل السعادة. آه، لو استطاع الإنسان أن يقنع نفسه بهذه الحقيقة، لكان مصيره أسعد.

سلام لك أيها التمثال^(١) الرهيب المائل في صورة قاسية من الجلال المجرد! لقد رأيت قيصر يخر صريعاً إلى جوار قاعدته المضرجة بالدم، وسط صيحات قاتليه. لقد رأيتته متدثراً بردائه الأمبراطوري كيما يموت بروعة ومهابة؛ لقد قدم على مذبحك فريسة للملكة الآلهة والناس، لنمسييس المريعة (إلهة الانتقام). أمات قيصر، ومُت أنت، أي يُمبي؟ وهل كنتما فاتحين لعدة ممالك، أو كنتما لعبا على المسرح؟

وأنت يا ظئر^(٢) روما، أيتها الذئبة التي أصابتها الصاعقة! أنت يامن لا يزال ثديك من البرنز يتديان كأنها يحتويان على لبن الغزاة، في القصر الذي أعجبنا فيه بك باعتبارك أثراً فنياً عتيقاً؛ أي أم هذا المؤسس العظيم الذي امتتح من جانبك شجاعته الهائلة؛ على الرغم مما أصابك من سهم جويتير الروماني، ومن السواد الذي جلل أطرافك تحت تأثير البرق - هل لا تزالين ترعين توأميك الخالدين، ولا تغفلين عن واجباتك كام؟

بلى؟ ولكنهم ذهبوا، هؤلاء الأبناء؛ ومضي هذا الجنس من الناس الأشداء؛ والعالم قد بنى مدناً بأنقاض قبورهم. إن الناس قد سكبوا دماءهم محاكاة للأشياء التي تشير مخاوفهم؛ وقد حاربوا وانتصروا، وساروا في آثار الرومان. لكن لم يعط واحد منهم وطنه ما أعطاه الرومان لبلادهم من قوة هائلة وسلطان شامخ. لقد حاول رجل واحد^(٣) متكبر أن يحاكيهم وكاد أن يقاربهم. لكن هل رقد في القبر؟ كلا؛ إنه لا يزال يحيا، مهزوماً بنفسه، عبداً لعبيده.

(١) تمثالٌ بمبي في روما .

(٢) في متحف الكابيتول بروما تمثالا برنزي لذئبة معها روملس ورعس كيانها . وروملس هو مؤسس روما . وعلى التمثال آثار صاعقة .

(٣) نابيلون ، وكان حينئذ منفيًا في سانت هيلانة ، لأن هذه الفقرة كتبت سنة ١٨١٧ .

-٩٠-

لقد كان مخدوعاً في عظمته الخداعة، ولم يكن إلا قيصراً نغلاً، هجيناً، أدنى مرتبة بكثير من قيصر القديم، لأن روح قيصر روما كانت من طابع أقل أرضية؛ لقد كانت عواطفه أشد حرارة، لكنه قد وهب حكماً بارداً وعريضة خالدة عوضت عن نقائص قلب حازم لين معاً. لقد كان حيناً ألسيدس يغزل بمغزله تحت أقدام كليو بتره، ولكنه سرعان ما كان يستعيد نفسه، ولسان حاله يقول:

-٩١-

أتيتُ ورأيتُ وانتصرتُ^(١). ولكن الرجل الذي أراد أن تكون نسوره - التي انتصرت كثيراً، لا شك في هذا - في مقدمة جنود فرنسا، مثل الصقور التي يبعثها القناصون، هذا الرجل الغريب الأطوار قد كان ذا قلب أصم يبدو أنه لم يستمع يوماً لنفسه. لم يكن فيه غير ضعف واحد، هو أقل الضعف، ألا وهو الغرور؛ طموحه إلى ماذا؟ هل في وسعه هو أن يبين أو أن يجيب عن هذا السؤال؟

-٩٢-

لقد أراد أن يكون كل شيء، أو ألا يكون شيئاً؛ ولم يكن ليتوقع أن القبر سينزله من عرشه؛ وقليل من السنوات كان يكفي لكي يجعل منه نداً لقيصر الذي نطأ الآن قبره بأقدامنا. الموت، هذا هو ما من أجله ينصب الظافر أقواس النصر؛ من أجله سالت وتسيل دائماً عبرات الأرض ودماؤها كأنها طوفان آخر، دون أن تكون ثمة سفينة سلام يأوي إليه الإنسان الشقي؛ إلهي، جدد قوس قزحك.

-٩٣-

أي ثمار نجنيتها من حقول الوجود المجذبة؟ حواس ضيقة، وعقل ضعيف، وبرهة حياة؛ والحقيقة جوهر ثمين مخبأ في الأعماق؛ وكل شيء قد وزن بميزان العادة الزائف؛

(١) هذه هي الكلمات التي قالها قيصر لمجلس الشيوخ معبراً بها عن سرعة انتصاره على فرانس ملك بنطش، بالقرب من زيبلا. وقد صارت تعبيراً عن سرعة إنجاز عمل عظيم.

والرأي العام قوة هائلة تنشر على الأرض نقاباً من الظلام؛ والخير والشر يصيران أعراساً؛ والناس يرتعدون مخافة أن تظهر أحكامهم علناً، إذ هم يخشون أن تنسب إليهم أفكارهم كجرائم أتوها، وأن ينتشر على الأرض ضياء باهر.

-٩٤-

وها هم أولاء يسحبون أذيال البؤس والشقاء، ويتوارثون الكوارث ولدأ عن والد وجيلاً عن جيل، متباهين بفساد دخيلتهم؛ فيموتون تاركين جنونهم المتوارث للجيل الجديد من العبيد المفطورين على العبودية، الذين يتقاتلون من أجل تخليد عبوديتهم؛ وبدلاً من أن يكونوا أحراراً، تراهم يفضلون أن يناضلوا كالمسايين في ساحة القتال عينها التي يرون فيها إخوانهم يجندلون ويسأقون كأوراق شجرة واحدة.

-٩٥-

إنني لا أتحدث عن معتقدات الناس، فإنها بين العبد وبين خالقه؛ إنما أتحدث عما هو متفق عليه ومُسلّم به ومعروف لدى الجميع مما يراه الناس كل يوم وكل ساعة. أتحدث عن النير الذي يبهظ كاهلنا، وعن النوايا الصريحة للطغيان والاستبعاد؛ أتحدث عن قرار سادة الأرض، الذين يحاكون مَنْ أذلّ المستكبرين وأيقظ الملوك النائمين على عروشهم. كم كان مجده سيكون عظيماً، لو أن يده القوية لم تفعل غير هذا!

-٩٦-

أولا يهزم الطغاة إلا بالغطاة؟ أو لن تجد الحرية نصيراً لها وابناً جديراً بها، من أمثال هؤلاء الذين رأتهم أمريكا، حينما انبثقت فجأة كأنها بلاس^(١)، عذراء مدججة بالسلاح؛ أو هل يجب أن تربي أمثال هذه العقول في القفار الموحشة، وفي أعماق الغابات العتيقة، وسط هدير الشلالات، في هذه الأرض التي بسمت فيها الطبيعة لطفولة واشنطن؟ وهل لا ينطوي هذا العالم على مثل هذه البذور في أحضانها؟ وهل ليس لأوريا مثل هذا الشاطئ؟

(١) يذكر عن بلاس أتينييه أنها انبثقت من رأس زيوس كاملة السلاح؛ ويبتز يشبه بها أمريكا وقد تحررت من إنجلترا. والابن المشار إليه هنا هو جورج واشنطن أول رؤساء الجمهوريات المتحدة، وبطل حرب التحرير الأمريكية.

-٩٧-

ولكن فرنسا قد أصابها خُمار من الدم إلى حد تقيأت معه الجريمة. وإن أعيادها الزحلية^(١) قد كانت محنة على قضية الحرية في كل مكان وزمان. فالأيام^(٢) المريعة التي شهدناها، والطمع الدنيء الذي أقام حاجزاً من الماس بين الإنسان وبين آماله، والمشهد الأخير الذي رآه الناس - كلها معاذير للعبودية الأبدية التي تَجَثَّتْ شجرة الحياة، وتجعل سقوط الإنسان الثاني هذا أشنع من سقوطه الأول.

-٩٨-

وأنت، أيتها الحرية! إن لواءك الذي - وإن يكن قد تمزق - فإنه لا يزال يرفرف، لا ينفك يتابع تقدمه، كالصاعقة التي تكافح الرياح؛ إن صوتك المقدس كصوت البوق، على الرغم من أنه اليوم ضعيف خافت، سيتردد قوياً بعد العاصفة. إن شجرتك المقدسة قد فقدت أزهارها، وغصونها التي حطمتها المناجل لم تعد تبدي غير لحاء خشن غليظ؛ لكن العصارة لا زالت تجري فيها، وبذورها قد أودعت في الأعماق حتى في جوف أراضي الشمال. وإن ربيعاً سعيداً سيأتيك بشمار أقل مرارة.

-٩٩-

وثمة برج رهيب من العهود الماضية، قوي قوة القلعة، تكفي استحكاماتها لإيقاف جيش زاحف ظاهر. إنه يقوم لا يزينه غير نصف شرفاته، ولا يغطيه إلا رداء من العليق والبلابل، تزحف أغصانه منذ ألفي سنة على جدرانها، وهذه الخضرة تبدو كأنها إكليل السرمدية الذي تتماوج فيه الأوراق الخضرة المنتشرة على طول الزمان. ماذا كانت هذه القلعة الحصينة؟ وأي كنز خَبِيء في مغارتها؟ إنه قبر امرأة.

(١) أعياد كانت تقام في روما، احتفالاً بالإله ساتورن (زحل)، في يوم ١٦ أو ١٧ أو ١٨ ديسمبر، وتماز بالحرية المطلقة التي كانت تباح فيها - فكان يسمح للعبيد بالسخرية من سادتهم، وكانت العريضة تطلق لنفسها العنان.

(٢) أيام عهد الإرهاب في فرنسا إبان الثورة الفرنسية وقد استمر منذ سقوط الجيرونديين (في ١٧٩٣/٥/٣١) حتى سقوط روبسبير (١٧٩٤/٧/٢٧). والمشهد الأخير هو عودة آل بوربون إلى الحكم في ١٨١٤. والسقوط الثاني هو استبداد المحالفة المقدسة بعد ووترلو.

لكن من كانت هذه السيدة الراقدة في القبر، المدفونة في القصر؟ أكانت عفيفة وجميلة، خليقة بفراش الملوك، وأكثر من هذا، بفراش روماني! وأي جنس من الرؤساء والأبطال قد حملت؟ وأية ابنة ورثت جمالها؟ كيف عاشت، كيف هامت، كيف ماتت؟ وإذا كانت قد نصب لها هذا التمثال الفخم، الذي لم يجسر تراب مبتذل على الدخول فيه؛ وإذا كانت قد لقيت كل هذا الإجلال، أفلم يكن ذلك من أجل تخليد ذكرى مصير أسمى من مصير الفنانين!

أكانت من ذلك النوع من النسوة اللاتي لا يحببن إلا زوجهن، أو كانت من هؤلاء اللاتي يشتعلن بلهيب أزواج آخرين؟ إن تاريخ روما يحدثنا أن العصور المتقدمة كانت قد عرفت هي الأخرى هذا النوع وذاك الآخر. أفكانت لها من كورنليا (١) حكمتها؛ أو كانت شبيهة بملكة مصر الجميلة ذات اللهو والملذات؟ وهل استسلم قلبها لميل عذب، أو حاربه معتصمة بفضيلة راسخة وأبعدت الحب عنها بحكمة وفطنة باعتباره عدواً لها؟ لأن العواطف على هذا النحو.

لعلها قد ماتت في ريعان الشباب؛ فلقد رماها القدر العاثر بسهم مسموم، وعتت رأسها لعبء من الآلام أثقل من الضريح الذي يرقد فوق ترابها الرقيق. لقد تجمع السحاب فوق جمالها؛ وأظلمت عيونها السود، إرهاباً بالمصير الذي تحتفظ به السماء لمحبيها، ألا وهو: الموت المبكر (٢). لكن طلعتها كانت تشيع من حولها سحراً كسحر الأصيل، وتضفي على خدودها الملتهبة نوراً شاحباً يشبه لونه لون حمرة أوراق الخريف، كأنها نجمة مساء الموتى.

(١) كورنليا هي ابنة شيبون الأفريقي التي تزوجت سمير ونيوس جراكوس وكانت أم تييريوس وكايوس جراكوس؛ وكانت امرأة فاضلة استطاعت أن تبث مبادئ سليمة في نفس ابنها. وملكة مصر هي كليوبتره.

(٢) إشارة إلى قول ميناندر: يموت شاباً من تعزه الآلهة.

-١٠٣-

أو لعلها ماتت في أرذل العمر، وعاشت بعد زوال جمالها وموت أسرتها وأبنائها. وشعرها الفينان الأبيض كان لا يزال يذكر بشيء من أيام نضرتها وفتنتها، بينما كانت غداؤها الرشيقة تبرز نصاعة بشرتها، حتى كانت فتنة روما وبهجتها. لكن، إلى أين يفضي بنا الحدس والافتراض؟ نحن لا نعرف غير شيء واحد: هو أن قرينة أغنى الرومان، ميتلّه، قد ماتت. فانظر إلى غرامه أو افتخاره!

-١٠٤-

لست أدري لماذا أراني حينما أقف صامتاً أمام هذا القبر، يخيل إلى أنني أعرف من ترقد فيه؛ وإن ذكرى زمان قد مضى لتستيقظ في نفسي على صوت انسجام مألوف لدي؛ ولكن اللهجة قد استحالت، ولها من الروعة والجلال ما لصوت رعد يحتضر وهو يفر بعيداً عن أجنحة ريح عاصفة. أفليس في وسعي أن أتلبث عند هذا الحجر المغطى بالعليق، إلى أن أهب جسماً لهذه الأفكار الجديدة التي تلهمني إياها هذه الأطلال المتفرقة التي تبدو كأنها بقيا غرق عائمة؟

-١٠٥-

وهل في استطاعتي أن أبني بالألواح المحطمة التي تغطي الساحل زورق نجاة؟ سأناضل من جديد مع المحيط ومع تلاطم الموج الهدار المندفع على الشاطئ المهجور الذي شاهدت عليه فناء كل عزيز لدي. لكن، وا أسفاه! لو كان ما أبقى عليه الموج كافيّاً لتركيب زورق أياً كان، فأية ناحية أنتحي؟ لم تعد تجذبني بعد دار ولا أمل ولا حياة؛ ولم يعد بلذني إلا ما هو ههنا.

-١٠٦-

لكن دع الريح تعوي كما تشاء! سيكون رنينها منذ الآن موسيقي، وسيضم اليوم نعيبه إليه؛ وما أنذا أسمع لهذا النعيب الآن وقد شحب النور على وكنات هذه الطيور المصادقة لليل؛ لقد تداعي بعضها بعضاً فوق جبل البلاتين، وهي ترفرف بأجنحتها

وتفتح عيونها النجل التي يتلألاً فيها ضياء كئيب أغبر. كم هي آلامنا بالنسبة إلى مثل هذا القبر لأمبراطورية؟ لا تدعني أعد آلامي.

-١٠٧-

ما هذا المكان الذي تتعانق فيه أشجار السرو والعليق والأشواك والخيري الأصفر، مكونة كتلة مختلطة؟ هنا أكوام من التراب قد قامت مكان مواضع لها كانت من قبل مخادع فاخرة؛ أما هذه الأقواس المحطمة، وهذه الأعمدة المهدامة، وهذه القباب المتهافتة والكهوف التي صارت سراديب رطبة معتمة، يجد فيها البوم وكره الليلي الأبدي؛ أما هذا الخليط الهائل من الأطلال، فمن ذا الذي يعرف ماذا كان مكانه؟ كما نفعل نحن. فتأمل الجبل الأمبراطوري؛ هكذا تزول عظمة الأبطال^(١).

-١٠٨-

ذلك هو الدرس الأخلاقي المستخلص من كل أخبار الناس. وليس الحاضر إلا تكراراً للماضي: في البدء تسود الحرية، ثم يتلوها المجد؛ فإن ضاع هذا تلاه الثراء والرذيلة والفساد؛ وأخيراً تسود البربرية. والتاريخ بكل أسفاره الضخمة ليست به غير صفحة واحدة، تقرأ خير ما تقرأ هنا، حيث جمعت كبرياء الطغاة كل الكنوز وكل الشهوات. لكن، دعنا من الكلمات! اقترب!

-١٠٩-

تعال اعجب وتحمس، تعال ابسم سخرية أو اذرف العبرات: فكل هذه العواطف تستطيع أن تتوالى في هذه الأماكن. وأنت، أيها الإنسان المترجح كالبنديل بين الدمعة والابتسامة، إن العصور والممالك قد احتشدت في هذا المكان. وهذا الجبل الذي سويت قمته قد كان كهرم من العروش المكدسة، وكان يتلألاً بزينات المجد وبهائه، حتى إن الشمس قد بدت وكأنها تستعير منه بهاءه المزدوج. أين هي الآن هذه القصور؟ وأين الأئمة بنوها؟

(١) "إن جبل اليبلايين كتلة من الأطلال، خصوصاً من ناحية الملعب. فالأرض مكونة من أنتاج أحجار؛ ولا شيء مما قيل وبما يمكن أن يقال بقادر على أن يرضي معتقدات عالم الآثار الروماني" (بيرن).

- ١١٠ -

لقد كان شيشرون أقل منك فصاحة، أيها العمود بلا اسم ولا قاعدة^(١)! ماذا يعني من أمر أكاليل الغار التي زينت جبين قيصر؟ إنني أريد أن أتوج رأسي بالعليق الذي يغطي أطلال قصره. وهذا القوس للنصر، ما هو؟ وما هذا العمود الذي يتراءى أمام عيني؟ أهو عمود تيتوس^(٢)، أم عمود ترايان؟ كلا، إنه عمود الزمان. فتوح وغنائم وأعمدة، إن الزمان يغير أسماءك باسماء، وتمثال وارث الرسل قد اكتسح ميدان الإجاعة الأمبراطورية^(٣).

- ١١١ -

إن ما بها من تراب يرقد جليلاً، مدفوناً في الهواء، هواء سماء روما القائمة الزرقة، متجهاً بنظره إلى النجوم. لقد كانت تحوي روحاً جديرة بالمقام في هذه المناطق السامية العليا، روح آخر هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم على المعمورة كلها، حتى صارت أرضاً رومانية؛ وبعده لم يبق أحد ليتابع فتوحه أو يحافظ عليها، إنما خلفه من بدد انتصاراته وغزواته. لقد كان أكثر من اسكندر؛ وكانت فضائل السلطانية نقية طاهرة لم تشبها شائبة من دم أو فجور أو فسوق - إننا لا نزال نعبد اسم ترايان.

- ١١٢ -

وأين صخرة النصر^(٤)، هذا المعبد الماجد الذي عانقت فيه روما أبطالها؟ وأين صخرة تريبيا^(٥)، هذا الهدف الجيد لأبناء الخيانة، هذه الصخرة التي كان يدأوى عليها كل خائن من داء الطموح؟ أهنأ ألقى الظافرون برفاتهم؟ أجل هنا؛ في هذا السهل

(١) هو عمود فوكاس، أحد أباطرة الرومان، ويقوم الآن في الفورم.

(٢) قوس تيتوس الذي عمل تخليداً لسقوط بيت المقدس.

(٣) "وضع فوق عمود تاريان تمثال للقديس بطرس؛ والقديس بولس قد وضع تمثاله فوق عمود أوليوس" (بيرن).

(٤) كانت مواكب الاحتفال بالنصر تسير حتى الكابيتولا، وهو معبد مشهور وقلعة في روما، وكان القناصل وكبار القضاة يقدمون الضحايا فيه حينما يتولون مناصبهم لأول مرة.

(٥) صخرة تريبيا هي التي يقوم عليها الكابيتول، وكان يُلقى الخونة من فوقها؛ وسميت بهذا الاسم نسبة إلى تريبيا، ابنة ترييوس، حاكم قلعة روما، التي وعدت بفتح أبواب القلعة للسابين المغيرين بشرط أن يعطوها أسوارهم الذهبية، فوافق تاتايوس ملك السابين، ولما دخل القلعة ألقى على تريبيا أساوره ثم درعه الثقيل وتابعه أتباعه فماتت تحت دروع السابين.

المتد تحتها، ترقد عشرة قرون من النزاع والحروب. وهنالك السوق (الفورم) الذي كانت تلقي به خطب رنانة خالدة؛ ولا يزال جوه يعبق بفصاحة شيشرون الملتهبة.

- ١١٣ -

ذلك مسرح الحرية والدسائس والأمجاد والمذابح. وهنا تنفست عواطف شعب متكبر، منذ ميلاد الأمبراطورية حتى اللحظة التي لم يبق لدى روما فيها ما تغزوه. ومنذ عهد بعيد والحرية قد نقبت جبينها حينما رأت الفوضى تغتصب صفاتها، وحينما استطاع كل جندي، تجاسر على أن يضع نفسه فوق القانون، أن يدوس بأقدامه أصوات مجلس الشيوخ الخرساء، أو أن يشتري الأصوات المرتشية للمواطنين الداعرين.

- ١١٤ -

دعونا الآن نتأمل اسم آخر رجال روما. لقد فديت قروناً بأسرها من العار والظلام، أنت يا صديق بترركه، وأمل إيطاليا، أي رينتسي^(١)، يا آخر الرومان ! طالما أنبتت شجرة الحرية ذات الجذع المحطم أوراقاً جديدة، فلتكن هذه الأوراق إكليلاً يوضع على قبرك، أنت يا من كنت بطل الفورم، وزعيم الشعب ونوما^(٢) الجديد؛ يا من كان ملكك، ويا للأسف، قصيراً كل القصر!

- ١١٥ -

إيجريا^(٣)؛ أيها المخلوق العذب لقلب فضل صدرك المثالي على كل صدر فان كما يُرقد رأسه ! أيها الفجر الهوائي الشاب، أيتها الحورية الخيالية لعاشق أوفى على اليأس؛ أو لعلك جمال الأرض الذي تلقي أطيب الإطراء والثناء؛ مهما يكن من أمر

(١) رينتسي : هو كولا دي رينتسي ، صديق بترركه الذي أقام الجمهورية في روما ولكنها استمرت عهداً قصيراً ، من مايو إلى ديسمبر سنة ١٢٤٧ . وقد سقط في فتنة شعبية قامت بعد ذلك بسنوات . وكان محباً للدراسات القديمة والمثل العليا اليونانية الرومانية .

(٢) نوما : هو نوما بومبيليوس ، فيلسوف معروف تزوج تاتيا ابنة تاتيوس ملك السابين . وقد حكم روما بعد موت روملوس ، ولم يكن ميالاً للحروب ، إنما انصرف إلى تهذيب الشعب ، وتمكين الاعتقاد بالآلهة فيهم ، وتنظيمهم إلى طبقات . وقد شاع عنه أنه يتردد بانتظام على حورية اسمها إيجريا ؛ وشجع هو على رواج هذه الإشاعة لأنها يسرت له فرض القوانين التي أدخلها . وقد توفي بعد حكم دام ٤٣ سنة في ٦٧٢ ق . م .

(٣) إيجريا : حورية من أركوا في إيطاليا ، ويذكر أوفيد أنها صارت زوجة نوما المذكور في التعليق السالف ، كما يذكر أيضاً أنها حزنت على وفاة نوما إلى حد أنها ذابت فعلاً من العبرات التي سكبها عليه ، حتى تحولت إلى ينبوع بواسطة ديانا ، التي كانت تعبد في تلك المنطقة .

أصلك، فقد كنتِ فكرة جميلة لها جسم فتان.

-١١٦-

إن طحلب ينبوعك لا تزال ترويه أمواجك البلورية الجديرة بأن تجري في جنات النعيم. وإن المياه الصافية التي يحميها كهفك قد أبتت عليها السنون؛ وإنها لتعكس على سطحك المصقول جني المكان الرقيق، الذي لم تدنس مأواه الأخضر أعمال الصناعة. وإن أمواجك الرقيقة لم يفرض عليها أن ترقد سجيناً في المرمر؛ إنما هي تنبثق بصوت عذب من قاعدة تمثالك، وتنساب هنا وهناك برقة ورشاقة في المروج بين الأزهار والعليق الزاحف.

-١١٧-

في اختلاط عجيب: والروابي الخضراء قد تذررت ببراعم مبكرة؛ وخلال العشب يسمع للعظاءة حفيف؛ وطيور الربيع تحييكم بأغاريدها الحلوة؛ وآلاف من النبت العديد الأنواع يبدو كأنه يتوسل إليك أن تدع أزهاره الجديدة ذات عيون قائمة الزرقة لها حلوة وعذوبة، ونسيم الصبا السماوي يقبلها فتبدو ملونة بألوان السماء.

-١١٨-

هنا أقمت في هذه الخميطة الساحرة، أي إيجارياً؛ وهنا خفق قلبك وقد استشعر صوت وقع أقدام عاشقك الفاني؛ والليل قد أرخى منصفه الأرجواني نقاباً على هذه المقابلة السرية، نقاباً وشيئاً بالنجوم؛ فجلست إلى جوار عشيقك. أواه! ما كان أعذبك! إن هذا الغار لم يخلق إلا من أجل استقبال إلهة عاشقة؛ وههنا حقاً صومعة الحب المقدسة، أول الوحي!

-١١٩-

وحينما كنت تجيبين عواطفه وتبادلينه غراماً بغرام، ألم تضمي قلباً سماوياً إلى قلب فان؟ والحب، الذي يموت زافراً كما يولد زافراً، أفلا يدين لك بلمحات خالدة؟ أفلم يكن في وسعك أن تجعلها خالدة وتشيعي صفاء السماء في شهوات الأرض، وتنتزعي

السم من السهم دون أن تَفْلِيهِ، وأن تبعدى الملاك الذي يقضي على كل شيء،
وتستأصلي الأشواك التي تجرح نفوسنا؟

-١٢٠-

أواه! إن عواطفنا الشابة سينضب معينها، أو لن تروى مياهاها إلا القفار التي لا
تنبت فيها إلا الأعشاب المظلمة المؤتشفة، هذه الأعشاب السريعة النمو كالدهريج؛ وإلا
الأزهار النحيلة السيقان، بالرغم من بهائها، والتي لا يولد عبيرها الوحشي غير الآلام؛
وإلا هذه الشجيرات التي لا تقطر إلا السم الزعاف: تلك هي النباتات التي يولدها
الوجدان تحت أقدامه، الوجدان الذي يجتاز رمال العالم القفراء، ويتحرق في غير طائل
إلى الثمار السماوية المحرمة علينا.

-١٢١-

أيها الحب! لست من سكان هذه الأرض؛ أنت ملك خفي نؤمن به؛ وأنت دين
شهداؤه القلوب المحطمة؛ لكن العين المجردة لم ترك ولن تراك كما يجب أن تكون. إن
روح الإنسان هي التي أبدعتك، كما أبدعت عليين، بواسطة أحلام تخيلاتنا وأهوائنا.
وهذه الصورة التي وهبتها فكرة لا تزال تطارد الروح يعذبها ألواح فتاك ويضنيها
اللغوب ويعنيها العذاب.

-١٢٢-

إن النفس إذا عافت الجمال الطبيعي تخلق لنفسها في هذيانها عالماً من الخيال.
فأين هي القسمات التي تدركها عبقرية المثال؟ إنها في أحلامه وحدها. إذ هل في وسع
الطبيعة أن تقدم لنا شيئاً له كل هذا الجمال؟ وأين هو السحر والفضائل التي نستطيع
أن نتصورها في الشباب ونتابعها في عهد النضوج؟ أيها الفردوس الخيالي الذي
نسعى إليه بائسين، أنت تغرر بالقلم والريشة اللذين يريدان أن يصوراك في كل جمالك
وبهائك.

-١٢٣-

من يُحِبُّ يَهْذِ، فإن الحب هذيان الشباب، وعلاجه أشق وأكثر مرارة. فكل يوم يمضي يسلب فتنة من معبوداتنا، حتى نكتشف أخيراً أنها ليس لها الميزة ولا الجمال اللذان زينا بهما صورها المثالية. ولكن السحر القاتل يظل مع هذا، وبالأسف، يسيطر علينا، ويظل يجرنا إليه، حاصداً الزوبعة من الرياح التي بذرناها مراراً؛ والقلب العنيد الذي بدأ يجرب كيميائه كصاحب الصنعة، يعتقد في نفسه أنه قد قارب الظفر بمطلوبه وأنه قد صار غنياً في اللحظة التي يكون فيها أشد ما يكون إملاقاً وقرأً.

- ١٢٤ -

إننا نذبل منذ عهد شبابنا، ويتخوننا السقم ويتخذ لحمنا؛ ويظل الدواء مجهولاً لدينا، ولا نستطيع أن نروي شفاهنا المحترقة عطشاً، على الرغم من أننا أحياناً، ونحن في خريف حياتنا، نرى خيالاً يغربنا، شبيهاً بذلك الذي نشدناه في مستهل عمرنا. ولكنه يأتي متأخراً جداً، فنصير بانسين بؤساً مزدوجاً. الحب والشهرة والطموح والجشع - كلها سيان، فكل منها لا نفع فيها ولا غناء، وكل منها شر وبلاء؛ لأنها جميعاً شهب خداعة ذات أسماء مختلفة، والموت هو الدخان الأسود الذي يقنى فيه اللهب.

- ١٢٥ -

قليل من الناس، بل لا أحد يجد ما يحبه أو ما كان يمكن أن يحبه؛ فعبثاً تطرد الصدفة والتقارب الأعمى وضرورة الحب الصارمة، عبثاً تطرد كل هذه الأشياء كل أنواع الكراهية لدينا؛ إذ سرعان ما تعود وقد سممتها إهانات لا تغتفر؛ والظروف، هذا الإله غير الروحي، هذا المشوّه للخلق، يصنع ويعين كوارثنا المقبلة بعصا يحيل لمسها الأمل إلى تراب - تراب قد وطئناه أجمعين.

- ١٢٦ - (١)

حياتنا جوهر زائف: إنها ليست تقوم في انسجام الكل. فلماذا هذا القضاء الرهيب الذي قضى به علينا؟ ولماذا هذه الوصمة التي لا تمحي، ووصمة الخطيئة؟ إننا نستظلُّ بدوحته هدامة، دوحه أو (باس) ذات غصون هائلة: أما جذرها فهو الأرض

(١) في هذه الفقرة كل فلسفة بيرن، وفيها اصدق تعبير عن تشاؤمه .

كلها؛ وغصونها وأوراقها هي السموات التي تقطر وتصب على الإنسان مصائبها التي لا تنفد، كأنها الندى المتساقط: فالمرض والموت والعبودية، وكل الشرور التي نراها، وأدهى منها، كل الشرور التي لا نراها، كلها تطارد النفس حياشة لها إلى ألوان من العذب متجددة لا تنقطع أبداً.

- ١٢٧ -

لكن دعنا نتأمل أنفسنا ومصيرنا بجرأة وجسارة؛ إنه تحلُّ شائنٌ عن العقل أن نتنازل عن حقنا في التفكير، وهو ملاذنا الوحيد الأخير؛ وهو على كل حال ملاذي أنا وسيظل كذلك أبداً. فعلى الرغم من أن هذه الملكة الإلهية مغلولة معذبة، قد ضيق عليها الخناق واعتقلت في الظلام، خوفاً من أن يشرق الحق بجلاء كبير على العقل غير المتأهب، فإن الشعاع ينفذ مع ذلك، لأن الزمان والذكاء يشفيان عمّانا.

- ١٢٨ -

أقواس فوق أقواس! ليخيل إلى المرء أن روما قد حشدت كل غنائم محاربيها وجنودها وأرادت أن تصنع تمثالاً واحداً من كل أقواس نصرها! إنه الكوليسيوم^(١). وهاهي ذي أشعة القمر الفضية تتلألأ كأضوائه الطبيعية؛ ويخيل إلى المرء أنه لا يمكن أن يكون غير النور الإلهي هو الذي يستطيع وحده أن يضيء هذا الكنز من التأمّلات الذي لا ينفد. وإن الظلال الزرقاء لليلة من ليالي إيطاليا، الظلال التي تحلق فوق هذا البناء الفخم الرائع، لتبدو كمنقبات ألقى على عظمتها.

- ١٢٩ -

هنا تبدو قبة السماء قد وهبت القدرة على الكلام؛ فإنها تعلن الخلود. وأشياء هذه الدنيا، التي طبعها الزمان بآثار أقدامه، يحيا فيها نوع من العاطفة والشعور؛ وحيث أهوى بيده، وتحطم معوله الهدام، توجد قوةٌ وسحر في الشرفاتِ الدارسة، تفوق فخامة هذه القصور الفاخرة التي لا تزال تنتظر بائنة العصور والأزمان.

(١) بناء ضخّم في روما ، على هيئة مسرح هائل هو أكبر مسرح في العالم . كان يجري في ساحته الصراع بين الاسود وبين المصارعين والعييد .

- ١٣٠ -

أيها الزمان! يا من تزين ما مضى، وتعبد الأطلال، ولا تواسي القلب أو تأسو جراحه إلى بعد أن تنزف منه الدماء. أيها الزمان! يا من تصلح أحكامنا حين تخطى، يا محكّ الحق والحب، أنت وحدك الفيلسوف، ومن عداك كلهم سوفسطائيون. أيها الزمان! أيها المنتقم الذي لا يفقد شيئاً وإن تأخر ميعاده - إنني أرفع إليك يدي وعيني وقلبي وألتمس منك منحة:

- ١٣١ -

وسط هذه الأنقاض التي بنيت لنفسك فيها معبداً ومذبحاً تزيد الوحدة الهائلة من قداسته، أود أن أقدم، بين القرابين التي هي أخلق بك، قرباناً هو الثمار المرة لسنوات، إن تكن قليلة، فإنها مليئة بالكوارث. فإذا كنت رأيتني منتفخ الأوداج من فرط الكبرياء، فارفض أن تستمع إليّ؛ لكن إذا كنت متواضعاً في عهد النعمة، وإذا كنت قد احتفظت بأنفتي ضد الكراهية التي طاردتني دون أن ترهقني؛ فاجعلني لا أحمل هذا السهم عبثاً في نفسي - فهل لن ينوح أعدائي؟

- ١٣٢ -

وأنت يا إله الانتقام العظيم الذي لم تترك يدك ميزان مظالم بنى الإنسان؛ أنت يا من دعا الفوريات من أعماق الهاوية وأمرتها بأن تطارد بحياتها أورست^(١)، كيما تلومه على انتقام كان سيكون عادلاً لو أن يداً أخرى هي التي أنجزته! هنا في هذا المكان الذي بجلك فيه الأقدمون، وخصصوه لعبادتك، هنا أدعوك اليوم. أولاً تسمع صوت قلبي؟ إنني أدعوك من التراب، فاستيقظ! ستسمع لي وعليك أن تفعل!

- ١٣٣ -

ليس هذا لأنني قد لا أستحق الجرح الذي أصاب قلبي، بأخطائي أو أخطاء آبائي. ولو كانت اليد التي أصابتني يداً عادلة، إذن لما كانت قد سعت إلى وقف دمي عن

(١) أورست، هو ابن أجمنون وكليتمسترا. ولما قتل كليتمسترا أباه، أنقذته أخته إلكترا من خنجر أمه، وحملت سرى إلى قصر استروفوبوس، ملك فوكيس الذي كان زوج أخت أجمنون. فرباه هذا مع ابنه بيلادس، مما ولّد بينه وبين هذا صداقة نادرة المثال. ولما بلغ أورست أشده، انتقم لأبيه بأن قتل أمه كليتمسترا وخليتها الزاني ايجشوس.

سيلانه. ولكنني لا أريد أن تبتلعه الأرض. إنما أهبه إياك؛ وأنت الذي ستتكفل بالانتقام؛ ولا يزال الوقت وقت إيجاده. وإذا لم أكن أنا قد سعيت إليه، احتراماً ل... دعنا من هذا ! إنني أنام، ولكنك ستظل ساهراً.

- ١٣٤ -

وإذا كان صوتي قد انطلق، فليس ذلك لأنني أرتعد من ذكرى ما تحملته من آلام: فليتكلم هذا الذي رأى جبيني شاحباً، أو شاهد قلبي قد خارت قواه في حشرجاته القاتلة. ولكنني أريد أن تكون هذه الصفحة أثراً خالداً لذكراي؛ وكلماتي لن تذهب أدراج الرياح، حتى لو صرت تراباً؛ وسيأتي اليوم الذي ستحقق فيه كل التنبؤات العتيقة التي أودعتها في هذه الأشعار، وستنصبُّ أكداس لعناتي على رءوس أعدائي.

- ١٣٥ -

هذه اللعنات ستكون غفرانا. اشهدي يا أرض، يا أمي، واشهدي يا سماء! أفلم يقدر على أن يناضل مع مصيري؟ أفلم أقاسِ الآماً لا تستحق إلا الغفران؟ أفلم يتحطم عقلي ويتمزق قلبي وتبتدد آمالي وتثلم سمعتي، وأخان في أعز ما أملك في حياتي؟^(١) وإذا كنت لم استسلم لليأس القاتل، فذلك إنما كان لأني لم أخلق تماماً من نفس الطين الذي جُبِلت منه نفوس أعدائي.

- ١٣٦ -

من أشنع الاضطهادات وأشدّها قسوة وصرامة، حتى أتفه الدناءات الخائنة، أفلم أبصر كلُّ ما يستطيع حقد الناس أن يفعله؟ فتارة كانت النميمة المزيدة غضباً تتهمني بأعلى صوتها؛ وتارة أخرى كان الحساد الجبناء يتهايمسون باسمي ويقطرون سما ناقعاً خفياً؛ وكانت وجوههم المناقفة، التي تبصر بعيون تفهم الصمت، تبدو مخلصّة، ولكنها كانت بدون همس ولا حركة غير الإشارة أو الزفرة الزائفة تبلغ وشايتها الخرساء إلى جماعة الحمقى السذج.

(١) هنا إشارة إلى ما فعلته به زوجته .

-١٣٧-

ولكن حييت، ولم أحيَ عبثاً. فقد يفقد عقلي قواه، ودمي حرارته؛ وقد يفنى بدني وأنا أصارع الآمي؛ ولكن ثمة في نفسي شيئاً يتحدى العذاب والزمان، ويظل حياً حينما أموت؛ شيئاً إلهياً غير أرضي، أشبه ما يكون بالذكرى التي تتركها الأصوات الأخيرة لقيثارة خرساء، سينزل على قلوبهم بعد هدوئها، هذه القلوب المتحجرة اليوم، فتشعر حينئذ بندمٍ للحب متأخر.

-١٣٨-

وهأنذا قد ختمت على الآمي وشكاتي. فسلاماً إليك الآن، أيتها القوة (١) الرهيبة، التي نجهل اسمها، ولكنها تكشف لنا عن نفسها بواسطة سحر لا يمكن مقاومته، حينما أجتأب في ظلام الليل هذه الأماكن فتلهمينني هدوءاً عميقاً لا يشبه مطلقاً هدوء الخوف؛ إن مقامك حيث تبدو الأسوار الدارسة مغطاة برداء من العليق؛ وهذا المنظر الرائع يأخذ عنك معنى عميقاً قد بلغ من الوضوح حداً يجعلنا نصير بضعة مما قد كان، ونستشرف إلى الماضي شهوداً عليه غير منظورين.

-١٣٩-

ههنا ترددت جلبة الأمم الطامعة التي كانت تعبر عن عطفها بهمس خافت، أو تصفق تصفيقاً حاداً حينما يذبح الإنسان بواسطة أخيه الإنسان. ولماذا يذبح؛ لماذا، لأن هذا كان قانون السرك الدامي، ولأن هذا كان يجلب السرور إلى قلب الأباطور؛ ولم لا؛ فسيان صرنا قوتا للدودة، أو سقطنا في ميدان القتال أو جندلنا في ساحة السرك؛ فكلاهما ليس إلاً مسرحاً يتعفن فيه أهم الممثلين.

-١٤٠-

وها هو ذا المساييف (٢) يتراءى أمام ناظري، وقد أسند رأسه إلى يده؛ وجبينه الفتتي يدل على أنه قد قبل أن يموت، ولكنه يغالب الألم والحشرجة؛ ورأسه تسقط إلى

(١) يمكن أن تكون الزمان أو الانتقام أو روح القيدم .

(٢) تمثال مشهور موجود في متحف الكابيتول ، يسمى عادة باسم : "المساييف المحتضر" ويبرن لا يصف التمثال ، إنما يصف هذا المساييف وهو يصارع في ساحة الكوليسيوم .

أسفل تدريجياً؛ والنقط الباقية من دمه تفر من صدره المشقوق ببطء واتناد، وتساقط كما تساقط القطرات الأولى من المطر. وها هي ذي الساحة تدور من حوالبه وتسبح؛ وها هو ذا قد فارق الحياة قبل انتهاء التصفيق القاسي الذي حيا ذلك البانس الذي انتصر.

-١٤١-

لقد سمع له، ولكنه لم يحفل به؛ فقد كانت عيونه في قلبه بعيدة عن هذا المكان. أما النصر؛ وأما الحياة التي فقدها، فلم يساوي شيئاً عنده؛ لكن خيل إليه أنه يرى كوخه الوحشي على ضفاف الدانوب، وأطفاله الصغار كلهم يلعبون، وأمهم الداكية (١) جالسة إلى جوارهم، بينما هو، أبوهم، قد ذبح من أجل عيد في روما - كل هذا امتزج بدمه. فهل يقضي نجه دون انتقام؟ ألا أيها القوط، هبوا، وأطفئوا نار حمتكم!

-١٤٢-

ولكن هنا حيث تنفس القتل ربح الدماء؛ وهنا حيث سدت الأمم كل الشعاب وزارت وزمجت أو همست كأنها سيل جبلي يندفع ويتواثب ويتلوى في مجراه؛ هنا حيث كانت الحياة والموت لعبة ومسلاة للشعب الروماني، يتوقفان على أهواء الجمهور - هنا تردد صوتي وحده في هذه اللحظة، وأضاءت أشعة القمر الشاحبة الساحة المهجورة، والدرجات المنهارة والجدران التي عفى عليها الزمان، والأروقة الأرضية التي أيقظ فيها وقع أقدامي الأصداء.

-١٤٣-

إنه ظلل، ولكن أي ظلل! منه بنيت جدران وقصور وأنصاف مدن وأسوار؛ غير أنك تتجول طويلاً في هذا الهيكل العظمي الهائل، وتدهش مما عسى أن يكون ما أخذ منه ووضع فيه من مكان. فهل سطي عليه ونهب حقاً، أم أزيلت منه هذه الأشياء

(١) نسبة إلى مقاطعة داكيا، التي يسكنها محاربون أشداء، وتقع على الشاطئ الشمالي من الدانوب الأسفل، وقد فتحها الرومان في عهد تراجان سنة ١٠٣. وهي تشمل الآن مقاطعات فالافيا وترنسلفانيا ومولدافيا. وإليها ينسب بيرن هذا المسافر.

لتكديسها فيه؟ وا أسفاه! حينما تفحص جيداً هذا الأثر الضخم، يظهر لك الثلم واضحاً أمامك، فلا يحتمل ضوء النهار لأن أشعة الشمس تضيء بكل وضوح الأشياء التي أعمل فيها الزمان والإنسان معولها.

- ١٤٤ -

لكن حينما يبدأ القمر في الصعود إلى ذروة علاه، ويتلبث فوقه برقة وسكينة؛ وحينما تلمع النجوم من خلال ثغرات الزمان ويتماوج نسيم الليل العليل في الجو الرقيق مع الغابة التي تغطي هذه الأسوار الغبراء، كأنها الغار على رأس قيصر الأول الصلعاء^(١)؛ وحينما يتلأل الضوء ساجياً غير خاطف للأبصار حينئذ يستيقظ الموتى في هذه الدائرة السحرية: لقد وطئ الأبطال هذا المكان؛ وأنت تدوس الآن على تراهم.

- ١٤٥ -

"حيث يقوم الكوليسيوم، تقوم روما؛ وحينما يسقط الكوليسيوم، تسقط روما؛ وإذا سقطت روما، سقط العالم"^(٢): بهذا المكان كان يتحدث الحجاج من بلادنا وهم عند هذا البناء الشامخ في أيام السكسون، التي ندعوها باسم الأيام القديمة؛ ولا زالت هذه الأشياء الثلاثة الفانية قائمة على أسسها، لم يلحقها دثور؛ روما، وأطلال الكوليسيوم التي لا يستطيع شيء أن يعيد بناءها، والعالم، هذا الكهف الواسع الذي يقطنه - لصوص، أو من شئت.

- ١٤٦ -

أيها البسيط، الرائع^(٣)، القاسي السامي معاً في عمارتك، المكرس لكل القديسين، أيها المعبد لكل الآلهة، من جويتتر حتى المسيح - لقد أبقى عليك الزمان

(١) "يذكر سويتون أن مجلس الشيوخ قد سمح، بصفة شخصية جداً، لقيصر بأن يحمل على رأسه دائماً تاجاً من الغار. ولم يشأ قيصر بهذا أن يدل على أنه فاتح العالم، إنما أراد به أن يخفي صلح رأسه. وكان من العسير جداً على الأجنبي أن يفهم الداعي إليها، لو أنه رآه في روما؛ ونحن أيضاً ما كان في وسعنا أن نفهم علة هذا، لو لم يرشدنا إليها ذلك المؤرخ" (بيرن).

(٢) كلمة قالها بيد المحترم، وهو مؤرخ وراهب (٦٧٥-٧٣٥).

(٣) هنا يصف بيرن البينثيون، وهو معبد مشهور في روما، بناه أجريا، في أيام حكم أوغسطس، وكما يدل عليه اسمه، كان مكرساً لكل الآلهة. وقد أصابته صاعقة، فتهدم منه جزء. فقام آدارن بإصلاحه.

وبارك حولك. أنت تبدو هادئاً، بينما كل ما حولك يترنح أو يسقط وينهار من أقواس
وأمبراطوريات، والإنسان يجري دائماً إلى تراب قبره في طريق معبد بالأشواك. أيها
البناء الماجد، هل ستبقى أبداً؟ إن منجل الزمان وصولجان الطغاة قد تحطما على
أحجارك، أنت معبد وملاذ للفنون وللدين، أيها البنثيون، أنت فخر روما!

-١٤٧-

أيها الأثر المتخلف عن زمان مليء بالأمجاد وفنون بلغت ذروة النبل؛ أصابك
التهديم، ولكنك لا زلت كاملاً، يستروح المرء في حرمك قداسة تهيب بكل القلوب.
أنت نموذج للفن. ومن يسع إلى روما نشداناً لذكرى الأجيال يخيل إليه أن المجد لا
يُلقي شعاعه إلا من خلال نافذتك وحدها؛ ومن ينشد التقوى، يجد هنا مذابح يقدمون
عليها صلواتهم؛ ومن يأت للإعجاب بما أنتجته العبقرية، يستطع أن يريح عيونه على
صور عظماء تزين تماثيلهم النصفية هذا البناء.

-١٤٨- (١)

ولكن ههنا سجن. فماذا أبصر في ظلام محانيه؟ لا شيء. تأمل ثانية: فها هما
صورتان تتقدمان ببطء أمامي؛ إنهما شبهان من نسج خيالي. كلا، بل إنني أراهما حقاً
أمامي كاملين: شيخ عجوز وامرأة جميلة شابة نضرة كأنها أم حانية على وليدها، قد
استحال دمها إلى تسنيم. ماذا تفعل هنا، بجيدها البلوري العاري ونهودها البيض
البارزة؟

-١٤٩-

إن هذا الينبوع الصافي العميق للحياة الشابة ينمو ويفيض؛ إننا نأخذ أول قوتنا
وأعذبه من قلب أمنا وعلى قلبها نقطات؛ ما أسعد الزوجة الشابة حينما ترى نظرة ابنها
البريئة وتمتمة شفثيه الخفيفة اللتين تعبران عن طمأنينة وخلو من كل ألم؛ إنها تفهم

(١) "في هذه الفقرة والثلاث التالية إشارة إلى قصة الفتاة الرومانية التي يذكرها الرحالة بها مكان هذه الحادثة (أو المكان المزعوم لها) في
كنيسة سان نيقولا في السجن" (بيرون).

السرور الذي يخالغ قلب رضيعها ! أمأ الرجل فلا يستطيع أن يتنبأ به؛ وهي تتحلى بمنظر ابنها الحبيب وهو راقد في مهده، كأنها برعم من الورد يتفتح قليلاً قليلاً. من سيكون هذا الطفل؟ لست أدري؛ فحواء قد ولدت قابيل.

- ١٥٠ -

لكن هنا تقدم امرأة فتية هذا القوت الثمين إلى الشيخوخة، لا إلى الطفولة؛ إنها تعطي أباها الدم الذي تلقته منه مع الحياة. كلا، إنه لن يموت طالما استمرت نار الصحة والإحساس البنوي المقدس في هذه الشرايين الحارة الجميلة تغذي نيل الطبيعة الكبرى، الذي يفيض مجراه العميق بأعلى مما يفيض به نهر مصر. من هذا الصدر اشرب واحي، أيتها اليفن الكبير؛ فليس في الجنة ما يشبه هذا الكوثر.

- ١٥١ -

إن أسطورة المجرة في السماء ليس لها من الصفاء ما لهذه القصة التي تلمع بشعاع عذب، والطبيعة تنتصر في هذا القلب لأوامرها وقوانينها، أكثر من انتصارها في الفراغ العالي الذي وضعت به عوالم رفاة بالنور. أيتها الظئر المجلدة؛ لن تضيع أية نقطة من اللبن الذي سيحي موات قلب أبيك، ويرد له الحياة التي تلقيتها منها؛ إن هذا اللبن إنما يعود إلى ينبوعه الأصلي، كما تعود نفوسنا إلى حضن الكون حينما تفر من قيود البدن.

- ١٥٢ -

لكن، لنصوب الطرف إلى حجر هادريان^(١) الذي يحاكي أهرام مصر العتيقة، يحاكي هذه الكتلة من التشويه. لقد شاء هوى أمبراطور أن يبحث عن هذا النموذج الهائل على ضفاف النيل البعيدة؛ وقُضي على الفنان أن يعمل وكأنه يبني لمردة عمالقة، وأن يقيم هذا البناء كيما يضم يوماً ترايه التافه. وإن الناظر إليه ليبسم بسمة فلسفية عريضة وهو يبصر هذا التصميم الهائل الذي انبثق من فكر مثل هذا الكائن.

(١) حول ضريح هادريان إلى قصر سنت أنجلو منذ سنة ٥٢٠ ميلادية؛ وعلى قمته صورة ملاك، ومن هنا جاء اسمه. وهناك بحر يربط بين هذا القصر وبين قصر البابا في الفاتيكان

-١٥٣-

لكن تأمل ! فهذا المعبد^(١) الواسع الرائع الذي تبدو عجيبه ديانا صومعة لو قورنت به. إنه معبد المسيح المقدس قد أقيم على قبر شهيدته. لقد رأيت عجيبة أفسوس وتأملت أعمدها المتناثرة في الصحراء، والضبع وابن آوى يرقدان تحت ظلاله؛ ورأيت قبة أيا صوفيا ترتفع وتصاعد كأنها كرة تتألف في شعاع الشمس؛ ودخلت هيكلها بينما كان المسلمون الذين استولوا عليها يؤدون فريضة الصلاة؛

-١٥٤-

لا يمكن أن يقارن بك معبد أو مذبح قديم أو جديد، أيها البناء الرائع الأقدس الأصدق، الجدير وحده بالله. منذ خراب صهيون، حينما تخلى العلي القدير عن مدينته القديمة، ما هو أجل بناء أقامه بنو الإنسان تقديساً له؛ العظمة والجلال والقدرة والقوة والجمال - كلها قد جمعت في هذا المعبد الخالد.

-١٥٥-

ادخل: فإن عظمته لن ترهقك أبداً؛ ولماذا؟ ليس هذا لأنه يتضاءل؛ ولكن عقلك يتسع بفضل روح هذا المكان وينمو نمواً هائلاً، ولا يجد بعد مأوى جديراً به في غير هذا المعبد الذي وضعت فيه كل آمال الخلود. وسيقدر لك يوماً، إن كنت جديراً بهذا، أن تعين الله وجهاً لوجه، كماتعائين الآن قدس أقداسه؛ ستعائنه دون أن تقضي عليك نظراته.

-١٥٦-

أنت تتقدم، ولكن أناقة هذا المعبد الهائلة تخدعك، إذ يزداد نمواً واتساعاً كلما ولجت فيه، كأنه جبل عال تبدو قمته كأنها تتباعد من خطوات من يصعدونه. وكلما نما، ازداد ظهور الانسجام بين أجزائه الضخمة؛ وتتبدى أمام عينيك المشدوهتين أنواع

(١) هنا يبدأ وصف كنيسة القديس بطرس بروما، التي تعد أعظم كنائس الدنيا. وعجيبة أفسوس هي معبد ديانا في مدينة أفسوس بآسيا الصغرى، وكانت إحدى عجائب الدنيا السبع.

من المرمر الفاخر، ولوحات ثمينة، ومذابح تضيء في مشاعل من الذهب؛ كما تتراى القبة السامية التي تنافس في علوها أجمل الأبنية. فعلى الرغم من أن أسسها قد أقيمت على الأرض، فإن السحب تتنازعها.

-١٥٧-

إنك لا تستطيع أن ترى كل شيء دفعة واحدة، بل عليك أن تقسم هذا الكل العظيم من أجل أن تتأمل كل جزء بعد الآخر. وكما أن المحيط يكونُ سواحل تستحق منك أن تنظر إليها، فاحشد انتباهك حول كل موضوع مفرد على حدة؛ وركز فيه كل خواطرك وأفكارك حتى تنقش في ذاكرتك نسبه الأنيق، وتنشر تدريجياً اللوحة الرائعة التي لم يكن من المستطاع أن تقدم كلها دفعة واحدة أمام عينيك اللتين لا تقويان على أن تستنفضا بنظرة شاملة.

-١٥٨-

وما الخطأ منها، بل منك أنت: فحواسنا قد بُرئت على نحو من شأنه أن يجعلها لا تدرك شيئاً إلا على درجات، وما نشعر به من عواطف عميقة يتجاوز نطاق كل بيان. وهكذا، فإن هذا البناء فوق طاقة إعجابنا: فعظمته الحارقة البراقة تتحدى حقارة طبيعتنا وضآلتها، إلى أن ترتفع بنفوسنا وننميها إلى مستوى ما نتأمله.

-١٥٩-

قف قليلاً واملاً روحك من فيض هذا النور. فههنا أكثر من إرضاء الدهشة، وههنا أكثر من تلك العاطفة الدينية التي نتوجه بها إلى إله معبد، أو مجرد الإعجاب بالفن وكبار الفنانين الذين استطاعوا أن يقيموا تمثالاً أعظم من كل ما أبدعه الأقدمون. وإن ينبوع السمو ليجد هنا أعماقه، ومنه يقود عقل الإنسان رماله الذهبية، ويتعلم كل ما يمكن إبداعه من أفكار وروائع.

-١٦٠-

أو دعنا نذهب إلى الفاتيكان كيما نشاهد الألم وقد مجده عذاب لاؤكون^(١): حب
والد وحشرجة فان يحتملها صبر إله.
عبثاً يناضل ! عبثاً يتوتر ذراع شيخ عجوز ضد الثنيات الملتوية التي يحوكها
التنين من حوله: إن هذا السلسلة الحية تأسره في حلقاتها المسمومة؛ والوحش الهائل
يزيد في تعذيبه ثم يقضي على زفراته المختنقة القضاء الأخير.

-١٦١-

أو تأمل الإله^(٢) الذي يقذف قوسه سهاماً قاتلة محتومة، إله الحياة والشعر
والنور: هذا الشمس في صورة الإنسان. لقد أضاء جبينه النصر الذي أحرزه: فالسهم
قد انطلق يتلألاً فيه انتقام كائن خالد؛ وفي عينيه وفي حركة أوداجه تعبير عن احتقار
جميل؛ وفي وجهه صولة وجلال يبرقان أجمل بريق؛ وفي نظرتة وحدها ما ينبئ عن إله.

-١٦٢-

لكن في شكله الرقيق الأنيق يتبدى حلم الحب، الذي تصوره حورية متوحدة يشقائق
قلبها إلى عاشق سماوي، ويصيبها الجنون من هذه الرؤيا الفاتنة. في شكله إذن تعبير
عن كل ما بارك حوله الجمال المثالي في نفس شاعت فيها انبل العواطف التي تسمو
على الإنسان، حينما تكون كل فكرة من أفكارها وحياءاً من السماء، ونوراً خالداً يرسل
من بعيد بريقاً إلهياً فيه تحقيق لصورة الله.

(١) تمثال لاؤكون تمثال في الفاتيكان . أما لاؤكون فابن بريام ، وكان كاهناً لأبولون ، كلفه أهل طروادة بأن يقدم قرباناً إلى نبتون ، إله
البحر ، من أجل أن يعينهم . لكن حدث أثناء تقديمه القربان أن خرجت عليه من البحر حيتان عظيماًتان ، هاجمتا ابنيه اللذين وقفا إلى
جوار المذبح . فحاول أبوهما أن يردهما عنهما ، غير أن الحيتين انتقضتا عليه وعصرتا جسمه بين التواءاتهما المخيفة ، حتى مات وهو
يعاني أشد أنواع الألم والحشرجة ، وكان هذا عقاباً له عن محاولته اقناع الطرواديين بعدم أخذ الحصان الخشبي الذي عمله اليونانيون
حيلة وخدعة . وقد ساهم في نحت هذا التمثال ثلاثة نحاتين من رودس هم : بولييدورس وأجيساندروس وأتيئودورس ، وقد أثار من
حوله كثيراً من الجدل ، في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن الماضي ، بين كبار النقاد الفنيين . راجع كتابنا "شوبنهاور"
ص ١٨٦-١٨٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٢ .

(٢) هو أبولون ، إله الشعر والنور ، وله تمثال مشهور ، حينما اكتشف وجدت يده اليسرى ناقصة ، فأكملة أحد الفنانين من أتباع
مدرسة ميكلنجلو . وهذا التمثال ، المعروف بأبولون بلفدير ، يمثل أبولون بعد أن أصاب بيثون (وهي حية مشهورة قتلها أبولون
بسهامه) ؛ ويمتاز بالبساطة والوظيفة معاً ، وفي وجهة تعبير عن الانفعال والغضب والاحتقار غير أنه يعوزه شيء ، من الحياة .

-١٦٣-

وإذا كان حقاً أن برومسيوس قد اغتصب من السماء النار التي نستدفيء بها، فقد كوفئ من أجل هذا بفضل هذا الفنان الذي استطاع أن يضيف على هذا المرمر الشعري كمالاً خالداً. فإذا كان هذا من عمل كائن فانٍ، فليست الفكرة من ابتكار إنسان، لأن الزمان نفسه قد عدها مقدسة في عالم الخلود، ولم يحل غدائرها إلى تراب؛ إنها تتلوث بغيبار السنين، ولا تزال تتنفس اللهب الذي أشرف على تكوينها.

-١٦٤-

لكن، أين هذا الرحالة الذي أتغنى به في أشعاري هذه، هذا الذي أعان إلهامي في الماضي؟ يخيل إليّ أنه قد تورك وأتى متأخراً. لقد مضى، وهذه آخر أنفاسه. لقد انتهت جولاته وتبددت رؤاه، ولم يعد بعد شيئاً مذكوراً. لئن كان قد كان شيئاً آخر غير خيال، وإذا كان من الممكن عده واحداً من الأشباح التي تحيا وتتألم - فليكن هذا، ولكن شبحه يفنى الآن في هاوية الخراب والعدم.

-١٦٥-

هنا حيث تلتقي الظلال والجواهر والحياة وكل ما نرثه منها في صورتها الفانية؛ وحيث نُشرِقنا شامل من خلاله يصير كل شيء شبحاً؛ والسحابة التي تفصل بيننا قد زالت فيها هي وكل ما برق وتلألأ حتى يأتي المجد نفسه فيصير أصيلاً وغروباً، ناشراً هالة من الحزن على شفا الظلام، هي شعاع أشد كآبة من أشد الليالي كآبة، لأنه يلهي أنظارنا.

-١٦٦-

ويرغمنا على تأمل أعماق الهاوية، نشداناً لما عسى أن نصير إليه يوماً ما، حينما يلتقي بنا إلى ما تحت وجودنا البائس. ومع هذا، فلا نزال نحلم بالمجد؛ ونود أن يضيء هذا الاسم الزائف الذي لن نسمعه بعد. يا لها من فكرة مواسية! ليس في وسعنا أن نصير ما نحن عليه في جوهرنا. أفلا يمكن أن نكون قد احتملنا مرة الأثقال التي أبهظت نفوسنا؟ نفوسنا التي فاض عليها العذاب، وقلوبنا التي كان عرقها دماً جاسداً.

-١٦٧- (١)

صه ! فإن صوتاً قد ارتفع من أعماق الهاوية، إنه زمزمة بعيدة رهيبة، كأنه صوت أمّةٍ أصابها جرح بالغ مميت. وفي وسط الزويدة والظلام، تنشق الأرض وتنتحب؛ والهاوية غاصة بالأشباح: منها ما يتبدى في صورة ملكة، على الرغم من أن جبينها لم يعد بعد مكللاً بالتاج. وعلى الرغم من شحوبها، فلا تزال جميلة، تضم إليها طفلها بألم أمومي، وعبثاً تحاول أن تقدم إليه ثديها.

-١٦٨-

أيها الفرع الأخير لأصلاب من الملوك، أين أنت؟ أيها أنت؟ أيها الأمل لعدة أمم، هل توقفت عن الحياة؟ أو لم يكن في وسع القبر أن ينسلك، ويختار بدلاً منك رأساً أقل عظمة وأضال مكانة! أيتها الأم للحظة عابرة، وا أسفاه! في وسط هذه الليلة الحزينة: بينما كنت تنوحين على طفلك، أتى الموت فأنهى كل آلامك! وموتك ماتت سعادتنا الحاضرة، وتلك التي أملت فيها في المستقبل الجزر الأمبراطورية.

-١٦٩-

إن الفلاحة تلد دون أن يقتضيها الميلاد فقدان الحياة. أما أنت فقد كنت سعيدة يعبدك شعبك؛ وهؤلاء الذين لا يبكون على الملوك (٢) سيبكون مع ذلك عليك أنت؛ وإن قلب الحرية الدامي قد توقف عن تكديس أحزانه على فرد واحد؛ لأن الحرية قد أطلقت دعواتها إليك من أجلك، ورأت قوس قزحها قائماً فوق رأسك. وأنت أيضاً، أيها اللورد المتوحد، أيها الزوج البائس المكروب؛ هل بنيت بها عبثاً! لقد كنت زوجاً لعام، وأباً لطفل لم يعيش!

-١٧٠-

أواه! لقد كان ثوب زفافك رداء حدادك؛ وثمره زواجك لم تكن إلا تراباً. آه! لقد رقدت في التراب، تراب اللحد، يابنة الجزر الشقراء، محبوبة ملايين رعاياها! كم من

(١) هنا يبدأ بيرن رثاءه للأميرة شارلوت، التي توفيت في نوفمبر سنة ١٨١٧؛ وكانت ابنة الوصي على العرش، الذي صار من بعد جورج الرابع. وكانت محبوبة من الشعب الإنجليزي حباً كبيراً، بعكس أبيها. وتزوجت الأمير ليوبولد، أمير ساكس كوبرج (الذي أصبح فيما بعد أول ملك لبلجيكا)؛ غير أنها توفيت وهي تلد، بعد ثمانية عشر شهراً.
(٢) من أمثال بيرن.

الثقة وضعنا بين يديها ، الثقة بمصيرنا ومستقبلنا! وعلى الرغم من أن هذا المستقبل لم يكن عندنا غير ليلة القبر ، فقد لذ لنا أن نفكر أن أبناءنا سيبدلون لابنها طاعتهم وقيادهم ، وسيباركون الأم بذريتها المطلوبة. لكن! ويا أسفاه! قد كان هذا الأمل لنا مثل نجمة الرعاة المحبوبة . ولكنها لم تكن إلا شهاباً.

-١٧١-

واحسرتاه علينا ، لا عليها ، لأنها ترقد ناعمة بأطيب رقاد . فماذا كانت ستري على العرش؟ الدخان الواهي الناشئ عن نفخ الحماسة الشعبية ، والنصائح الخداعة تسديها عصبية من المتملقين ، وهذا الوحي الزائف الذي يلقي في آذان الملوك والأمراء منذ أن قامت الملكية ، إلى أن تتسلح الأمم المحمومة بحماسة جنونية. يا له من مصير عجيب يثل عروش أكبر الملوك ، ويضع في الكفة المضادة ثقلاً مخيفاً لا يلبث أن يحطم هؤلاء ، إن عاجلاً أو آجلاً^(١).

-١٧٢-

لقد كان من الممكن أن يكون هذا مصيرنا. لكن كلا ، فإن قلوبنا تأبى أن تصدق هذا . فقد كانت شابة ، جميلة ، طيبة من دون تكلف ، عظيمة من غير أن يكون لها أعداء . ثم صارت عروساً ثم أمماً . واليوم! كم من روابط مزقتها تلك اللحظة الرهيبة الكالحة؟ من قلب أبيك حتى قلب أحقر رعاياك ، تمتد السلسلة الكهربائية لذلك اليأس الذي كانت صدمته زلزالاً ، حتى ساد الحداد هذه البلاد التي تنافس أبناؤها في حبك.

-١٧٣-

سلام عليك يا نيمي^(٢) ! لقد قبعت في وسط الروابي المجللة بالغابات ، إلى حد أن الريح الصرصر العاتية التي تستأصل شجرة البلوط من جذورها والتي تحمل المحيط

(١) "قلت مارية على المقصلة ، والبصابت ماتت غماً وكمدماً ؛ وشارلكان مات راهباً ؛ ولويس الرابع عشر مات مفلساً من المال والمجد ؛ وكرومويل مات من القلق ؛ وأعظمهم جميعاً ، نابليون ، يحيى سجيناً . وفي وسع الإنسان أن يضم إلى هذه القائمة من الملوك والأباطرة قائمة طويلة بأسماء أخرى شهيرة وشقية بانسة معاً" (بيرن) .

(٢) "كانت قرية نيمي بالقرب من خميلة إيجريا ، وقد احتفظت إلى اليوم باسم الخيملة ، نظراً إلى الأشجار التي كانت تظل معبد ديانا . ونيمي لا تبعد عن ألبانو الفاخرة إلا مسافة قصيرة تقطع على الخيول" (بيرن) .

على تخطي حدوده، وتقذف بأواجه المزيدة إلى أعلى السماء - تضطر إلى احترام المرأة البيضاء لبحيرتك البلورية. إن سطحها الهادئ هدوء الكراهية المنافة، يحمل مظهراً من البرد العميق الساكن الذي لا يستطيع شيء أن يعكر صفاءه؛ وأموهاها تدور حول نفسها، كأنها حية راقدة.

-١٧٤-

وبالقرب منها، تشع من الوادي المجاور أمواج ألبانو الساكنة؛ ومن بعيد ينساب تيار التفره، والمحيط الواسع يرحض شاطئ لا تيوم حيث قامت الحرب التي تحدثت عنها الملحمة^(١) التي تبدأ بهذا المطلع: "السلاح والرجال..."، التي طلع نجمها على أمبراطورية؛ وعن يمينك مكان التجأ إليه شيشرون نشداناً للراحة من ضوضاء روما؛ ومن تلك الناحية التي تحول فيها الجبال دون الرؤية الواضحة، كانت تفلح مزارع السابين، التي تفيأ فيها الشاعر (هوراس) ظلال الراحة.

-١٧٥-

ولكنني نسيت أن رحالتي قد بلغ غايته، وعليه وعلي أن نرحل فيفترق كلانا عن أخيه. لقد انتهى كلانا من أداء واجبه أو كاد. لكن دعنا ننظر مرة أخرى إلى المحيط. إن أواجه ترف أمام عيوننا المشدوّهة؛ وها نحن نبصر الآن من فوق جبل ألبانو صديق شباننا، ألا وهو المحيط الذي تتبعناه من قبل منذ صحور كاليه حتى المنطقة التي فيها يحيط البحر الأسود بسمبليجاس الزرقاء.

-١٧٦-

لقد مرت سنوات طوال - طوال، وإن لم تكن عديدة - منذ ذلك الحين، وأنتجت أثرها في كلينا. وبعض من الآلام والعبرات قد خلقتنا في نفس المكان الذي منه بدأنا تقريباً. ومع هذا فإننا لم نقض أعمارنا عبثاً؛ بل حظينا بجزائنا، حظينا به في هذا المكان. أجل، ما أجمل هذه المكافأة، ألا وهي أن نستشعر الغبطة في شعاع الشمس، ونحصد من الأرض والبحر ثمار سرور له من النفاسة ما يجعلنا ننسى أن ثمة أناساً لتعكير صفوه علينا.

(١) هي الانبادة للفرجيل، التي تروي مغامرات انياس، الأمير الطروادي الذي أبلى في حرب طروادة وذهب إلى صقلية وإيطاليا؛ ثم قتل في معركة مع الأثرويين.

-١٧٧-

أه! ألا ليت الصحراء مقامي، ومعني روحي ملائكية تشاركني في وحدتي، حتى أستطيع أن أنسي جميع الناس، ولا أعشق غيرها، دون أن أكره أحداً. وأنت أيتها العناصر! أليس في وسعك أن تهيبني مثل هذا الكائن، أنا الذي أشعر بأسمى الوجد في حضرتك النبيلة؟ أوأهم أنا حين أظن أن أمثال هذه الأرواح تسكن أكثر من مكان؟ وإن كان من النادر جداً أن يتاح لنا التحدث وإياهم.

-١٧٨-

في الغابات الطاهرة (التي لم يدنسها إنسان) إغراء، وعلى الشاطئ المهجور سحر وفتنة، وعند البحر العميق جماعة لم يعكر صفوفها قدم ثقيل، وفي هدير أمواجه موسيقى عذبة. لكن هذا لا يقلل من حبي للإنسان؛ إنما أعشق الطبيعة أكثر منه في هذه اللحظات التي أخلو فيها إليها وأجاذبها أشهى الحديث، ناسياً كل ما يمكن أن أكونه، وكل ما كنته من قبل كيما أتحد بهذا الوجود، فأشعر بما لا أقدر على التعبير عنه، وإن كنت لا أقوى على إخفائه كله.

-١٧٩-

ألا فلتهدر بأمواجك، أيها المحيط الأزرق الداكن العميق! إن آلاف الأساطيل تجوب طرقاتك الطويلة دون أن تبلغ أطرافك. وهذا الإنسان، الذي يملأ الأرض بآثار تخريبه، يقف سلطانه عند الساحل، لا يستطيع تجاوزه إليك؛ وما يجري على سهلك المائي من كوارث إنما أنت فاعله، ولا يبقى عليه أدنى ظل لتدمير الإنسان، اللهم إلا ظله هو حينما يسقط في لحظة كأنه قطرة مطر في أعماقك وهو يعوي ويصيح، يهوي فيك، دون قبر ولا كفن ولا تشييع ناقوس، منسياً من الجميع.

-١٨٠-

لا أثر لأقدامه فوق طرقاتك، ومساحاتك ليست من ممتلكاته وغنائمه، إذ لا تلبث أنت أن تنهض وترده عنك. والقوة الدنيئة التي يستخدمها من أجل تخريب الأرض لا تشير عندك إلا الاحتتار والازدراء. إنك تقذف به من أحضانك إلى أعلى السماء، وترسل به، وأنت تلهو وتمرح، إلى آلهته في تلك الأماكن التي وضع فيها أعز أماله، ثم تلقي به على الأرض مرة أخرى - وهنا تدعه يرقد.

-١٨١-

ما هذه الأسلحة الرهيبة التي تصعق أسوار المدن المبنية من الصخر، وتخيف الأمم، وتجعل الملوك في عواصمهم يرتعدون؟ وما هذه القلاع المتحركة، الشبيهة بالحيتان الضخمة، والتي يصل الزهو بأصحابها وبانيتها إلى حد أنهم يتخذون لأنفسهم لقب سادة البحار، سادتك أنت أيها المحيط، والمتحكمين في مصائر الحروب؟ ما قيمة هذه الأشياء كلها في نظرك؟ إنها مجرد ألعوبة في يديك، تذوب، كما يذوب زبدك الأبيض، في مرارة أمواجك، التي قضت إن على كبرياء الأرمادا أو على غنائم طرف الغار.

-١٨٢-

إن سواحلك إمبراطوريات، كلها تحول وتفنى، وتظل أنت باقياً أبداً. فأين ذهبت آشور واليونان وروما وقرطاجنة؟ لقد كانت أمواجك ترتطم على حدودها في أيام الحرية، ومن بعد إبان الطفيان؛ وإن سواحلهم اليوم لتذعن للغريب، وشعوبها من عبيد أو برابرة. وإن مصيرهم البائس قد أحال ممالك إلى صحراوات. أما أنت، فلم يصبك من هذا شيء. لقد بقيت ثابتاً لم يتغير فيك شيء؛ اللهم إلا ألعاب أمواج الوحشية هنا وهناك، وكنت أداعب غدائك بأناملي. كما أفعل الآن.

-١٨٥-

الآن أديت رسالتي، وانقطع انشادي، واستحالت الحانني إلى أصداء. وقد أتى أن يقطع هذا الحلم الطويل؛ ولا بد من إطفاء المصباح الذي أضاء لي إبان الليالي. وما قُدِّرَ، قُدِّرَ. ألا ليتني أحسنت عملي ! لكنني لم أعد بعد من كنته قبل؛ ورؤاي ترنق الآن أمام عيوني بوضوح أقل؛ والشعلة التي أضاءت روحي تترنح وتضوى ويغذ إليها الهمود.

-١٨٦-

وداعاً! يا لها من كلمة لا بد أن تقال، يرن فيها رنين الأسي والحزن. وداعاً مع هذا ! وداعاً إليكم يا من قصصتم أثر زحالتني حتى آخر الشوط! إذا كانت ذاكرتكم تعي فكرة من أفكاره، وإذا كانت إحدى ذكرياته تطوف بنفوسكم، فإنه لم يلبس إذن في غير طائل نعال الطريق وقلنسوة السفر المزينة بالقواقع والأصداف. وداعاً مرة أخرى! ولندع له وحده الأسف، إن كان له منه نصيب؛ ولكم أنتم العظمة الحسنة من هذه الأناشيد.

جورج جوردون بيرن لوحة حياته

١٧٨٨: ولد جورج جوردون بيرن في لندن في ٢٢ يناير سنة ١٧٨٨ من أسرة عريقة في النبالة، إذ ترجع نبالتها إلى أيام وليم النورمندي، المعروف بوليم الفاتح (١٠٢٧-١٠٨٧)، كما ترجع في أصلها إلى النورمنديين الذين كانوا يقطنون في المقاطعة المعروفة باسمهم في شمال فرنسا. وكان من أسلافه من اشترك في الحروب الصليبية. ولما امر هنري الثامن (الذي حكم سنة ١٥٩٠-١٥٤٧) بحل الأديرة، منح أحد آل بيرن دير نيوستد في مقاطعة نونتنيهام. ونظير ما أسدوه من مساعدة للملكة إبان الحروب الأهلية في إنجلترا، منح شارل الأول (١٦٠٠-١٦٤٩)، وتولى الحكم في سنة ١٦٢٥) لقب اللوردية إلى أحد أبناء الأسرة، فكان أول لورد بيرن. وخامس لورد، كان معروفاً بسوء الخلق، وعلى العكس من ذلك كان أخوه الأونورايبك جون بيرن، الذي كان بحاراً مغامراً، وارتفع إلى مرتبة أميرالبحر. وكان له ولدان، أكبرهما كان وسيم الطلعة كثير الإغراء، ولكنه لم يكن صاحب مبادئ، حتى كان يسمى باسم "المجنون جاك بيرن" وقد تزوج مرتين؛ وزوجته الثانية هي أم شاعرنا، وهي من أصل اسكتلندي، ومن أسرة عريقة تحمل في شرايينها دم آل استيوارت الذين حكموا إنجلترا لعهد طويل، غير أنها كانت شرسة الطبع قليلة الحظ من التهذيب.

١٧٩١-١٨٠٩: في سن الثالثة فقد أباه؛ ولما بلغ السادسة توفي ابن عمه، فأصبح وارث اللقب، فمنحه وهو في سن العاشرة.

وتلقى تربيته الأولى على يد أمه، وهي على ما ذكرنا من غرابة الطبع؛ فأساءت إليه، لأنها كانت تارة تدلله إلى حد الإفساد، وتارة أخرى تزيد في تعنيفه إلى درجة تعبيره بالعاهة التي ولد بها، ونعني بها أن كعبي قدميه كانا سيئَي التكوين إلى حد

أنه لم يكن في وسعه أن يركز بهما على الأرض، إنما كان مضطراً إلى المشي على مقدم القدم، مما كان يصور في مشيه شيئاً من العرج القليل. كما تلقى تربيته أيضاً على يد مربيته الأسكتلندية، وقد كانت بروتستنتية متطرفة، حببت إليه "العهد القديم" من الكتاب المقدس، مما سيظهر أثره في "أشعاره العبرية".

ثم لما بلغ الخامسة التحق بمدرسة أولية في أبردين، ثم في دولوتس. ولكنه تلقى دراسته التي أثرت فيه أكبر التأثير في مدرسة هرو؛ فقد أمضى بها سنوات، وإن كانت الأولى منها بائسة، فإن الأخيرة كانت أسعد شطر في حياته، حتى إنه فكر في أن يسمي هذه الملحمة التي بين يدي القارئ باسم "اتشيلد أف هرو"، وأخيراً اتخذ اسماً أقرب هو "اتشيلد هارولد".

وبعد أن أتم دراسته في هرو، التحق بكلية الثالث (ترنتي كوليدج) في جامعة كمبردج. وهو إن لم يكن قد أعجب كثيراً بالدراسة فيها، فإنه استطاع الاطلاع بحرية إبان هذه الفترة؛ واستمر في قرص الشعر (الذي بدأه في هرو)، وسرعان ما نشر ديواناً صغيراً بعنوان: "ساعات الفراغ، تأليف لورد بيرن، القاصر". غير أنه هوجم في "مجلة ادنبره" مهاجمة قاسية؛ فرد على الهجوم بقصيدة بعنوان: "الشعراء الإنجليز والنقاد الاسكتلنديون"، سنة ١٨٠٩.

وإبان هذه الفترة التي تعد عهد الطلب بالنسبة إلى بيرن، وقعت له مغامرات غرامية مبكرة جداً في سن الثامنة، والثانية عشرة، والسادسة عشرة؛ وكان حبه فيها عنيفاً عنف طبيعته في كل شيء.

١٨٠٩-١٨١١: ولما بلغ الحادية والعشرين دخل مجلس اللوردات؛ غير أنه قوبل بمقابلة باردة أثرت في نفسه إلى درجة أنه عزم على الرحيل من إنجلترا فغادرها بعد بضعة أيام من دخوله المجلس. وهنا بدأ عهد التنقل، إذ ارتحل أولاً إلى اسبانيا، حيث كان الإنجليز بقيادة ولسلي (دوق ولنجتون فيما بعد) يساعدون الإسبان على طرد نابليون من شبه الجزيرة الإيبيرية. ومن أسبانيا ارتحل إلى بلاد اليونان وألبانيا. وهذه الرحلة إلى أسبانيا واليونان وألبانيا هي التي وصفها في النشيد الأول والثاني من هذا الكتاب الذي بين يديك. ثم سافر إلى تركيا، حيث زار أزمير واستامبول، غير أنه لم يضمّن هذه الرحلة في هذا الكتاب إلا إشارة؛ إنما استعان بها في قصيدته الكبرى: "دون جوان".

وقد استغرقت هذه الرحلة قرابة سنتين، فكان لها في شعره ونفسه أكبر الأثر، مما هو ظاهر بوضوح في هذا الكتاب.

١٨١٢-١٨١٦: وفي سنة ١٨١٢ نشر بيرن بعد عودته إلى إنجلترا النشيدين الأول والثاني من "تشيلد هارولد"، فلقياً رواجاً هائلاً، حتى قال هو: "لقد استيقظت ذات صباح فوجدت نفسي مشهوراً". وهذا النجاح العظيم يُعزي أولاً إلى روح العصر التي كانت روح روسوفي "هوليزا الجديدة" و"أحلام الترييض المتوحد"، وجيته في "فرتر" قد أثرتا فيه؛ وثانياً إلى كون البلاد التي وصفها في قصيدته هاتيك كانت هدف انتباه العالم آنذاك؛ وثالثاً إلى الروح الجديدة الغربية التي ظهرت فيها.

ثم تلاها بنشر "عروس أبيدوس"، في سنة ١٨١٣؛ و"القرصان" و"الارا"، في سنة ١٨١٤؛ و"حصار كورنثوس" و"بريزينا" في سنة ١٨١٦. وهي أقاصيص شعرية تدور غالباً حول الشرق وبلاد اليونان؛ وفيها هذه الألوان الشرقية الزاهية التي استهوت روح العصر كله في ذلك الحين.

وفي مستهل سنة ١٨١٥ تزوج بيرن مس إيزابلاً ملبانك، وكانت فتاة باردة، متمزجة، متحذقة، تغلب عليها نزعة إلى التقوى المغالية، وإن كانت مهيبة الطلعة والجمال؛ وهي صفات على النقيض تماماً من صفات بيرن، فكان طبيعياً أن يكون الزواج غير موفق إطلاقاً. فافتقرت باختيارها عنه، بعد أن ولدت منه ابنة هي أدا، في ١٠ ديسمبر من نفس العام؛ وكان فراقها في منتصف يناير سنة ١٨١٦. ولكي تبرر انفصالها عنه، راحت، شأن لداتها من النساء، تكيل التهم لزوجها: فاتهمته بأنه مجنون؛ ولما ثبت أنه عاقل، أدعت أن بينه وبين أخته غير الشقيقة، أوجستا، صلات غير شريفة؛ وذهبت تعلن هذا الاتهام في المجتمع الإنكليزي، دون أن يزعمها وازرع من شرف أو ضمير، أو حتى من عطف حتى لو افترضنا أنه اتهام صحيح؛ ولكنه انتقام المرأة الرهيب قد جارها عن كل سبيل قويم. فأثارت بهذا نائرة المجتمع الإنكليزي، المتزمت بطبعه، الناقم على بيرن لأسباب أخرى؛ فلم يستطع بيرن البقاء بإنجلترا، فغادرها إلى غير رجعة في ٢٥ أبريل سنة ١٨١٦.

ومسألة هذا الاتهام من المسائل التي أثارت من حولها أكبر الجدل، ولا زالت تشير، حتى بعد نشر "مراسلات لورد بيرن، خصوصاً مع ليدي ملبورن وغيرها" سنة

١٩٢٢، التي اتخذ منها البعض وسيلة لترجيح صحة الاتهام، بل حتى لتوكيده. لكن السر لا يزال يكتنف هذه المسألة من كل نواحيها. وعلى كل حال فليس المجال هنا مجال تفصيل القول فيها والإدلاء برأي قاطع، وإن كنا نميل إلى نفي هذا التهام.

١٨١٦-١٨٢٤: غادر بيرن انجلترا إذن إلى غير رجعة؛ فارتحل إلى بلجيكا أولاً، حيث زار ساحات القتال فيها، خصوصاً ساحة معركة ووترلو، بعد أن مضى على هذه المعركة سنة. ثم غادر بلجيكا إلى جنوب ألمانيا، حيث تمتع بمناظر الرين الرائعة التي أبدع وصفها في النشيد الثالث من "أتشيلد هارولد"؛ ومن هنا تابع هذا النهر حتى منابعه في سويسرة، حيث أقام مدة عند بحيرة جنيف (ليمان). وهنا التقى بشلي، طريد المجتمع الإنجليزي هو الآخر، فنعماً سوياً بصحبة الطبيعة الفاتنة في هذا الإقليم الساحر؛ مما كان له أثره في شعر بيرن وحبه للطبيعة، خصوصاً بتأثير شلي فيه.

ولما قضى من سويسره وطره ارتحل إلى إيطاليا. فسافر أولاً إلى البندقية، حيث أمضى هنا حياة مطلقة من كل قيد، فيها من العريضة والمجون وانتهاج أعنف اللذات شيء كثير. ثم سافر من بعد إلى رافنا، حيث أقام في صحبة الكونتيسة جويتشيولي، وقضى عهداً عامراً بأعنف الغرام وأعرق الشهوات والاحساس؛ ولم يقتصر تأثيرها فيه على الناحية الفنية، خصوصاً في اختيار موضوعاته، بل امتد أيضاً إلى الناحية السياسية، فشارك في الحركات السياسية التي كان يقوم بها الزعماء الوطنيون في إيطاليا من أجل طرد النمساويين، حتى لفت إليه أنظار رجال الشرطة.

وفي تلك الأثناء نشر النشيد الثالث من "أتشيلد هارولد" في سنة ١٨١٦، والنشيد الرابع في سنة ١٨١٨؛ كما نشر "سجين اتشيلون"، سنة ١٨١٦؛ و"منفرد"، سنة ١٨١٧؛ و"بيو"، سنة ١٨١٨؛ و"مازبا" سنة ١٨١٩؛ وابتدأ "دون جوان" الذي أكمله في الفترة ما بين سنة ١٨١٩-سنة ١٨٢٤؛ كما نشر في سنة ١٨٢١ "نبوءة دانتة"، وفي سنة ١٨٢٣، "الجزيرة"؛ كما كان قد نشر "شكاة تسو" سنة ١٨١٧. ثم نشر مسرحياته: "قابيل"، و"مارينو فلييرو" و"سردانابال"، و"الفوسكاريان" سنة ١٨٢١؛ و"قرنر" سنة ١٨٢٣؛ و"السما والأرض"، سنة ١٨٢٤.

وتنقل في ربوع شمال إيطاليا، مقيماً في بيزا وجنوة، وهو على اتصال مستمر بشلي الذي كان يقيم في إيطاليا في ذلك الحين أيضاً، وشهد احتفال موته، هذا الاحتفال شبه الوثني.

وكان قد شارك في السياسة كراديكاليٍّ ضد الهوج، لأنه كان يميل إلى الجمهورية ضد ملكية بيت هانوفر؛ كما كان معجباً بنابليون كل الإعجاب، إلى حد التقديس، بينما كان يبغض دوق ولنجتون، فلا يكاد يدع فرصة تمضي دون مهاجمته والنيل منه. وحين سقط نابليون رثاه بهذا الرثاء الرائع الموجود في النشيد الثالث من هذا الكتاب. ولما ينس من السياسة في وطنه شارك، كما قلنا، في السياسة الإيطالية، لأنه كان يدافع عن قضية الحرية في كل مكان. فلما أخفق الكاروناري، هذه الجمعية الإيطالية السياسية، في كفاحهم ضد النمساويين، انصرف عن قضية إيطاليا إلى قضية اليونان في كفاحها ضد تركيا طلباً للاستقلال. فعاون زعماء اليونان - وإن اختلف مع بعضهم - مادياً أو أدبياً؛ وأخيراً ذهب بنفسه إلى بلاد اليونان لكي يحارب هو نفسه في صفوفهم ضد الأتراك، في مدينة مسولنجي؛ غير أن الحالة الصحية في هذه المدينة كانت سيئة، فأصيب بالحمى، ومات في ١٩ أبريل سنة ١٨٢٤، شهيداً من شهداء الحرية والاستقلال لوطن غير وطنه.

نشرات ومراجع

نشرت مؤلفات بيرن عدة نشرات لا سبيل إلى حصرها. وأهمها:

Poetry, ed.by H. Coleridge. 1905

Letters and Juurnal, ed. By Prothero, 1898-1904.

أما أهم نشرات "اتشيلد هارولد" فهي:

J- Darmesteter: Childe Harold, avec des notes en franeais, par J. Dramesteter, Paris,1882;

A. Mommesn: Childe Harold, erlautert von August Mommsen, Barlin, 1885;

W. Rolfe: Childe Harold, wiht notes by william J. Rolfe, Boston, 1886;

H.F. Tozere; Childe Harold, with notes by H.F. Tozer, Oxford, 1885

E.E. Morris: Childe Harold, ed. With notes and an introduction by Edward E.Morris. London, Macmillan, 1903; 4th ed. 1908

أما عن حياة بيرن فيراجع:

Thomas Moore: The Life, Letters and Journals of Lord Byron, London 1831.

كما يراجع حياته بقلم Galt، سنة ١٨٣٠؛ ونويل Noel، سنة ١٨٩٠؛ وا . ماين

A. E.C.Mayne، سنة ١٨٩٢؛ وم.بلامي M.Bellamy، سنة ١٩٢٤؛ وأندره موروا

Maurois، سنة ١٩٣٠؛ ويراجع أيضاً:

Medwin: Conversaltion with Byron, 1824;

Trelawny: Recollections, 1858.

أما عن قصة بيرن مع زوجته فيراجع:

Harriet B.stowe: Lady Byron Vindicated, 1870;

Lord Lovelace: Astarte, 1905;

Edgcombe: Byron, the last Phase, 1920;

Sir J.Fox: The Byron Mystery, 1924;

Lord Byron's Correspondance, Chiefly with lady Melbourne, etc., 1922.

وكدراسات عن بيرن، يراجع:

W. Hazlitt: The spirit of the age, 1825;

Swinburne: Essays and studies, 1875;

Matthew Arnold: Essaays in criticism, 2the series, 1888;

G. Brandes: Hauptstromungen, Vol. IV;

Otto Schmidt: Rouseau and Byron, Leipzig, 1890;

وعن تأثير بيرن:

Otto Weddigen: Lord Byron's Eintluss auf die europa i schen Litteraturen der
Neuszeit, Hannover, 1884;

W.Axon: Stray chapters in Literature, London, 1888

Ed. Esteve: byron et le romantisme francais, 1907;

S.C.Shew: Byron in England, his fame and after- fame, 1924.

منهاجنا في الترجمة

هذا الكتاب هو في الأصل ملحمة مقسمة إلى فترات مرقومة بالأرقام كما هنا؛ وكل فقرة مكونة من ثمانية أبيات، على طريقة فقرة اسبنسر spenserian stanza، لأنه حاول تقليد اسبنسر في طريقة نظمه وفي لغته أيضاً، لذا جاءت لغته عتيقة، فيها كثير من الإهمال وسوء نظم الكلم والانحراف عن قواعد النحو والصرف، بل وسوء أو عدم فهم الألفاظ.

وقد فضلنا في هذه الترجمة أن تكون نثراً، اللهم إلا الأغاني، فقد ترجمناها نظماً؛ وذلك إلى أن نتوصل إلى إيجاد فقرة كفقرة اسبنسر في الشعر العربي. كما حاولنا أن نجعلها أوضح ما يكون حتى نزيل غموض الأصل، كل هذا مع التقييد بالأصل الإنجليزي قدر المستطاع، اللهم إلا فيما يستلزمه الوضوح وسلامة التركيب وجمال الأسلوب.



لورد بايزون

أَسْفَار شِيلْد هَارُولد

أعمال خالدة

الكون سفر لم يقرأ منه غير الصفحة
الأولى من لم ير إلا وطنه، وأنا قد
تصفحته منه قدراً وافراً، فوجدته رديئاً
تافهاً، ولكن هذا الامتحان لم يكن عقيماً،
فقد كنت أبغضت وطني، ولكن ألوان
العنت التي سامتني إياها مختلف الشعوب
التي عشت بين ظهارانيها هدتني إلى محبة
هذا الوطن، فإذا كنت لم أظفر من أسفاري
إلا بهذه الفائدة وحدها، فكفى هذا كي لا
أسف على ما حملتني هذه الأسفار من
متاعب ونفقات.

ISBN:2-84305-867-X



9 782843 058677

ALEXANDRA-AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الإسكندرية

عنبر